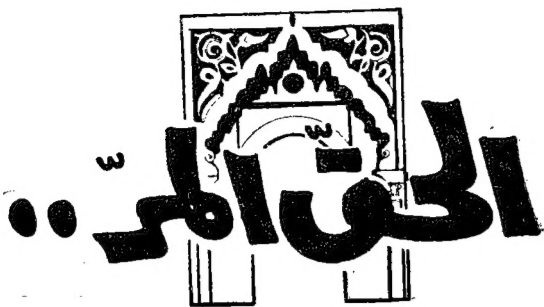


مفاهيم إسلامية



محمد جلال كشك

مكتبة عمّار

للطباعة والنشر والتوزيع
١٣ شارع الجمهورية - القاهرة

إلى الذين لا يطيقون قول الحق المر ..
ولا حتى يطيقون سماعه . .

خطبة الكتاب

هذه بعض قراءات في سفر تراثنا الإسلامى .. لا نريد بها أن نجتز ماضيها ، ولا أن ننشئ بخمر الأسلاف .. بل أن نفتح عيوننا على هول ما يدبر لنا ونتلمس الطريق الوحيد الذى يمكن من خلاله أن نلهب حماسة الجماهير ونطلق طاقات الأمة العربية ، ونجمع حولها لإرادة العالم الإسلامى لنحرر أرضنا المحتلة ، ومسجدنا الأسير ، وتاريخنا الذى دنسته الصهيونية ، ونستنقذ شرفنا الذى يوشك أن يجبل بعار لا يمضى أبد الدهر ..

والحق أن الحضارة الإسلامية ، بشموخها وجلالها ، قادرة على أن تنسى مرارة الزمان ، وانهميار المسكان .. وكما تخرت أجيال من أمتنا باستغراقها فى تلاوة التراث .. وكما استهانت أجيال من أمتنا

بخطر ما يدبر لها من أعداء العروبة والإسلام ، لأن نور مجدها قد بهر أعينها ، فعجزت عن أن ترى ما يتحرك في الظلام ..

غير أن تراثنا يعلمنا ألا نستهن بدأب الجرذان أو دابة الأرض .. فالأولى ظلت تأكل في سد مأرب حتى طاح به السيل ، وتبددت حضارة سبأ .. وذوت الجنتان .. والثانية أكلت منسأة سليمان فسقط وانطلق الجن فرحين ..

ومهما يكن شموخ تراثنا وعظمة أسلافنا .. فلاشك أن قرونا من الظلام قد سادت الوطن الإسلامى .. وأن قرون التخلف قد فرضت آثارها على كل شيء .. وعلى الإنسان المسلم أولاً وقبل كل شيء ..

ولاشك أن قوى العداء الأبدى للمسلمين .. وهى الحضارة الغربية الصليبية^(١) ، ثم ورثتها الشرسة ، الصهيونية .. لاشك أنهما قد أجادا استغلال فترة الظلام هذه ، فتسللوا .. وضربوا .. ولاشك أنهم حركوا عوامل التخلف لصالحهم ، وفى الاتجاه الذى يخدم هدفهم ، وهو القضاء على الإسلام ، وإذلال المسلمين ، والتصرف فى أقدارهم ، وانتزاع أرضهم ، وما وهبهم الله من ثروات ..

ولاشك أن المسلمين قادرون ، على أن يواجهوا الخطر المحيق

(١) الحضارة الغربية الصليبية هى الحضارة الأوروبية — الامبريكية بصرف النظر عن انقسامها إلى دول أو نظم أو كنائس مختلفة

بهم . . قادرون على تحرير إرادتهم ، واستخلاص أرضهم ، وإنزال
الهمزينة بعدوهم ، وبعث حضارتهم من جديد . .

يستطيعون ذلك لو أدركوا حقيقة الخطر الذى يواجههم ، حقيقة
الدوافع التى تحرك الحقد الاستعمارى للحضارة البيضاء ضدنا . .
كيف كان لشعار : « قاتلوا المسلمين » ، فعل السحر فى أوروبا وأمريكا
فى صيف ١٩٦٧ أى فى النصف الثانى من القرن العشرين . . حتى هبت
الجماهير فى فرنسا تتبرع خلال أربعة أيام بـ مليار فرنك . . وهو مالم
يجمع لشعب فيتنام فى أربع سنوات ! . . تبرعوا بها لإسرائيل من
أجل قتل المسلمين ! وهكذا كانت الصحف تنشر فى صدر صفحاتها
الاولى ، وهكذا كانت اللافئات تقول فى المظاهرات ! وهكذا كان
يكتب على صناديق التبرعات . .

« قاتلوا المسلمين ! » !

فتحرك الحقد الصليبي الموروث . .

وما من عاقل يظن أن الدافع هو حب اليهود . . أو الخوف
على اليهود من تصريحات الشقيرى ! فالإنسان الأوروبي لا يكره

(١) لم يجد الفيلسوف الوجودى سارتر ما يعتذر به عن رفع هذا الشعار
فى فرنسا ، وسيره هو شخصيا فى مظاهرات ترفع هذا الشعار الصليبي . . لم يجد
ما يعتذر به إلا أنه خطأ فقد عرف بعد ذلك بوجود مسيحيين عرب ! . .
ربما يصحح فى المرة القادمة : « قاتلوا المسلمين والمسيحيين العرب !
» (راجع حديثه فى الاهرام ٦٧/٧/٣) وانظر كتابنا « أخطر من النكسة »

بعد المسلمين إلا اليهود .. والحس الغربي المتبلد الذى لم تحركه مذابح
الاستعمارية والطغيان الوحشى طوال هذه السنين .. ما باله ينفعل على
هذا النحو لمجرد منع سفن اسرائيل من المرور فى خليج العقبة ١٤

لقد آن أن نعرف أن أوروبا وأمريكا تعادينا لأننا :

• مسلمون

• عرب

• لأننا التحدى الحضارى لهم

• لأن قيمنا أعلى وأسمى

• لأن أرضنا أغنى وأخصب وأقدر على بناء حضارة أكثر
ازدهاراً ..

• لأنهم يسرقون ثرواتنا ، ويستغلون خيراتنا ..

• لأن حضارتهم قامت على استغلال ونهب آسيا وأفريقيا حيث
يعيش المسلمون ، وحيث كانت حضارة المسلمين .

هذا هو العداء الاصلى ، وفى إطاره يجب أن نعمل ، فلا تطوح بنا
أوهام اقناعهم أو كسبهم .. فهم لا يحبون اليهود ، ولكن يتمنون
أن يقتل اليهود لهم العرب .. ويذلوا المسلمين .. وهم ان يسمحوا أبدأ
بقيام دولة عربية أو إسلامية قوية فى مستوى العصر .. لا بد أن
ينتزع ذلك من براثنهم انتزاعاً بالدم والحديد والنار .. فهذا هو قانون

التاريخ الأبدى .. ما من قوى كبرى تسمح راضية بقيام قوة كبرى جديدة .

لنستغل تناقضاتهم كما نشاء ، وكلما أمكن ، على أن يكون واضحاً أنه ما من قوة كبرى يرضيها أن يكبر ويقوى الآخرون ..

إذا ما عرفنا طبيعة العداء الذى نواجهه ونوعية التحدى الذى يفرض علينا فسنعرف طريق الخلاص .. إنه البحث عن جذورنا .. والامتداد العميق بهذه الجذور فى أرضنا .. لأنها وحدها هى التى تستطيع أن تورق .. وأن تصمد للأعاصير التى تريد أن تقتلعنا وتطوح بنا ..

وقد تنبه حس الجماهير بعد الخامس من يونيو .. فانفجرت طاقات من الشوق إلى الإسلام ، بعيدة كل البعد عن أن تكون غيبوبة صوفية ، كذلك التى كانت تنتشر فى الوطن الإسلامى فى أعقاب الهزائم والانهارات .. بالعكس ، فرغم كل مبررات اليأس القاتل .. إلا أنه من الممكن أن نلمس فى هذا الحنين إلى الإسلام والشوق إليه ؛ ملامح إرادة بعث ، وتصميم على النصر ، وإدراك للدور الذى يمكن أن تقوم به العقيدة فى مواجهة الخطر الصهيونى .. ويقين أنها ليست عقيدتنا التى هزمت .. بل نحن الذين تخلينا عنها ..

لكن .. هذا الشوق يمكن أن يضل .. وهذه الإرادة يمكن أن يزيغ طريقها ، لا بمجرد الشعارات الجديدة التى بدأت تصدر عن

جيف النظريات والحركات العقائدية ، ونفايات المذاهب التي قذف بها المحيط الصليبي عند شواطئنا .. هذه الشعارات التي تدور حول ضرورة التخلص من الدين لتصبح مجتمعاً علمانياً .. وإن لم يكلفوا أنفسهم عناء اخبارنا بما هي مظاهر التمسك بالدين التي عاقت زحفهم !

إن هذه الشعارات لا تهدف في الحقيقة إلى ابعاد الدين عن السياسة ، كما يدعون ، فهو مبعد ، والحمد لله ، منذ سنوات اكبر من عمرهم ، وعمر من غروا بهم !

الهدف الحقيقي ، هو سد الطريق على أية محاولة لتلمس الحل الحقيقي ..

إلا أن هذه المحاولات لا تعمل وحدها ، بل لا يقل عنها خطورة محاولات إشباع شوق الجماهير ، بتقديم قشور التدين الشكلي .. بل التنطع وليس التدين .. إخفاء جوهر الدين ، إخفاء طبيعته الحية المتطورة ، وتحويله إلى أوراك وأذكار ودروشة .

لذلك وجدتني في هذه الفترة ، أحاول أن أعود لقراءة التراث .. بحثاً عن فهم جديد .. ينير الطريق .. فكانت هذه القراءات .. نشرت بعضها فلقيت استجابة واسعة فأحييت أن أجمعها وأضيف إليها وأقدمها للقارئ المسلم لعلنا معاً نبدأ بفهم جديد وإيمان جديد .. وعمل جديد ..

وقد سميتها باسم : « الحق المر » وهو عنوان الفصل الذي خصصته لأبي ذر رضي الله عنه ، مقتبساً من جملة طالما كان يكررها كلما واجه

الناس بالحق فضايقوا به ، وضايقوا بالحق .. فكان يعتذر قائلاً : « لقد
عاهدني خليلي أن أقول الحق مهما يكن مرأ .. »

فإن كان بعضنا لا يطيقون قول الحق ، فلعلهم لا يغضبهم أن يقوله
غيرهم .. ولا يبلغ بهم العجز حد الحق على قائليه .. هم الذين عناهم الله
سبحانه وتعالى بقوله :

« يحسبون كل صيحة عليهم .. هم العدو فأحذرهم »

فشر الناس هم أولئك الذين لا يقدرّون على قول الحق ولا يطيقون
سماعه .. ولهم أهديت هذا الحديث حتى نبليهم وفيهم ما يرضى الله .

جول كوك

٢٦ ربيع الثاني ١٣٨٨

١٧ تموز ١٩٦٨

٣ ب بهجت على الزمالك

مدخل

نحن نؤمن أن التاريخ الإسلامى صنعته المسلمون ، بإرادة الله تعالى فى كل جزئية من تفاصيله .

غير أننا لا نلزم أحدا بإيماننا هذا ، ولا نفرضه كقضية يشترط التسليم بها قبل النقاش . . بل من حق من يشاء أن يستخدم أى منطق يثبت أنه على فى مناقشة هذا التاريخ والحكم عليه .

ونؤمن أن الله قد اراد لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام أن ينقل آخر كلمات السماء للأرض . . فأعلمنه ، خاتم النبيين ، وأعلن بعد فتح مكة أنه قد أتم نعمته واكمل الدين واختار لنا الإسلام ديناً .

(١) لو لم تكن للإسلام من معجزة الا هذا التبليغ الذى لا يصدر بهذا اليقين الا ممن بيده الأمر . . خالق الكون . . ثم تتأكد مشيئته ، فلا يظهر نبى آخر ، ولا حتى دعى ناجح . . لو لم يكن لديتنا الا صدق هذه الآية عبر أربعة عشر قرناً . . ثم توفر الأدلة على أنها ستصدق إلى أن يرث الله ، الأرض ، ومن عليها . . أقول لو لم يكن فى ديننا الا هذه المعجزة لسكانت الحجة التى لا تغلها حجة . .

ولأن إرادة الله قد شاءت أن يكون محمد هو خاتم النبيين ،
وأن يكون الإسلام هو آخر كلمات السماء للأرض .. فإن حكمته تعالى
اقتضت أن تكون هذه الرسالة صالحة لكل زمان ومكان .

إذ لو كانت الرسالة محدودة بزمان معين ، أو موجهة لبلد بعينه ،
أو جيل أو جنس ، أو جماعة من الناس .. لكان دورها ينتهى بانتهاء
من وجهت إليهم ، بانقضاء هذا الزمن المحدد ، أو بزوال هذه الأمة
المعينة .. أو بانتقال الإنسان عبر المسكان بما شاء له الله أن يخرق
حواجز المسكان ، وأبعاده ، ليستقل إلى بيئة غير بيئته وظروف غير
الظروف التي نزلت لها الرسالة وبها ..

فالإيمان بأن الإسلام هو خاتم الأديان . مرتبط بالإيمان
بصلاحيته لكل زمان ومكان .. لأن القول بغير ذلك يعنى أن صلة
السماء بالأرض تنقطع في مرحلة من عمر الإنسان على هذه الأرض ..

أى أن الناس يستقبلون زمنا يعفون فيه من محاسبة السماء ،
ويضطرون إلى إقامة مجتمعاتهم بغير هدى السماء وبغير التزام أمامها ..
قد أعفهم السماء من ذلك بانتهاء رسالتها ..

ولكن إرادة الله اقتضت أن تستمر السماء في هداية الإنسان ، كما
اقتضت أن تكون رسالة محمد هي آخر التوجيهات وآخر كلمات السماء
في شئون الأرض ..

(١) إلا ما شاء الله بغير الرسل والأنبياء

وهذا لا يتأتى — كما قلنا — إلا بأن تتضمن هذه الرسالة من عناصر الخلود ما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان . . أى لكل الأجيال وكل القرون وفى كل بقعة من أرجاء هذا الكون يصل إليها الإنسان . .

وإذا كان علماء الطبيعة والفلك يعرفون الكون بأنه محدود ولا نهائى . . فلا بد أن تكون الرسالة التى جاءت لتنظيم هذا الكون . محدودة ولا نهائية . .

تستطيع أن تؤمن بهذه القضية انطلاقاً من إيمانك بأن الإسلام هو خاتم الأديان . . وتستطيع أن تؤمن بها من خلال دراسة الإسلام كمناهج لاطلاق طاقات الإنسان وتحقيق انسانيته فى هذا الكون . .

فالرسالة المحمدية نزلت خلال زمن محدود ؛ ٢٣ سنة . . وفى مكان محدود . . أرض العرب . . وبين جيل محدود هو الجيل الأول الذى عاش سنوات البعثة .

وقواعد الإسلام ، قد حفظها كتاب الله ، وتعهد ، خير من وفى ، أنه سيحفظه من التبديل والتحريف . . وصدق وعده ، لحفظ كتابه ، فى عهود ما كان أصعب حفظ كتاب — أى كتاب — فيها !

ورغم كل ما انتاب العالم الإسلامى من أخطار وهزائم واغارات . سلم كتاب الله فلم تمتد له يد بتشوية أو تحريف ، واختلف المسلمون فى كل شئ . ولم يختلفوا فى حرف من كتاب الله . .

ومن حقائق هذا الكون — التي لا تحتل الجدول — هي أنه قد
نظم وفقا لقوانين نستطيع أن نكتشفها ونوجهها ولكننا لا نملك
إلا الخضوع لها كبداية للسيطرة عليها ..

وان الأديان ساعدت الانسان على اكتشاف هذه القوانين
والسيطرة عليها ، سواء آمننا انها جاءت من السماء أم من عبقرية
مصلحين إجتماعيين ..

والاسلام — كما نرى — هو أفضل النظرات التي تفسر هذا
الكون ، وتهدى إلى بذل الخير .

وفي تفسيرنا الديني أن الله الذي وضع قوانين الكون ، شاء لها
أن تعمل ، وشاء لنا أن نتعلم كيف نسيطر عليها ، وكيف نبني حياتنا
في اطارها ، متخطين حتميتها بالخضوع لضرورتها ..

فالناس يصنعون حياتهم من خلال علاقة تفاعل ، متغيرة باستمرار ،
بين ما ترسمه أفكارهم ومبادئهم من مثل ، وما يتيح لهم إمكانيات
عصرهم من وسائل مادية لبناء الحياة وفقا لهذه القيم .. أى بين أحلامهم ،
وقدرتهم على الاقتراب من هذه الأحلام وتجسيدها في تشريعات
وعلاقات إجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية .

ومن هنا فإن الرسائل والنظريات والفلسفات ، يمكن الحكم
عليها من ناحية قدرتها على تدليل الكون للانسان ..

فالنظريات التي تدعو لارتقاء الإنسان يفترض فيها أن تتضمن :

- مثلاً تدفع الانسان إلى رفض الواقع ، ساعياً إلى وضع أفضل في علاقاته مع نفسه ، ومع الكون ..

لأن القيم والمبادئ التي تبارك الواقع وترضى به ، قد تحدث للانسان سعادة مورفونية ، ولكنها لا تدفع الانسان إلى الارتقاء ..

- قيم واقعية ، تبدأ من إنسان المكان والزمان المعينين لتصنع فيه ، وبه ، التغيير .. فإن عجزت عن احداث هذا التغيير ، كانت مجرد خيالات وأفكار عن جنة في عالم آخر ، ولكائن آخر غير هذا الانسان ..

ان القيم والمثل والفضائل التي لا تجد ناساً يطبقونها ولا مجتمعات تمارسها ، هي كقدرات آلهة اليونان والجن الخرافية ، لاسيلاً إليها ، ولا يعيب الانسان أن يتغاضى عن إمكانية إدراكها .. بل يبدد وقته ، ويفسد حياته ، من يحاول الوصول إليها ..

- مدى صلاحيتها لتخطى حدود الزمان الذي عبرت عنه ، وحدود المكان الذي ظهرت فيه وحملت بصماته في تكوينها وصياغتها .. فذلك ما يحدد امتداد الدعوه وشمولها وعالميتها ..

والاسلام — كما قلنا — يفترض فينا أن نؤمن بصلاحيته لكل زمان ومكان ..

وقلنا أن القرآن قد ضبطت آياته وحروفه ، وأنه من غير المعقول

أن نفترض اننا سنجد فيه قوانين الجاذبية لينوتن، أو الفسبية لانشتين ..
أو الانتخابات بالقائمة .. والنظام الرئاسى .. ونظم لإدارة القطاع
العام !

ومهما بلغ جهد البعض فى استخراج التماسير ، فستبقى هناك قضايا
تفصيلية لم ينص القرآن عليها .

ولولا ذلك ما وضع فقهاء المسلمين ، القياس والاستحسان
والإجماع .. واكتفوا بعلم واحد هو التفسير ..

بل اكتشف فقهاء المسلمين هذه البديهية العسيرة على إدراك
الكثيرين .. الا وهى : محدودية النصوص ، ولا نهائية المشاكل التى
تثيرها الحياة !

بل ان معجزة ديننا أن القرآن الملزم لنا حرفيا ، ليس فيه هذا
الاغراق فى التفاصيل الذى تقسم به بعض الكتب المقدسة ، ومن
ثم فإنه مامن مسلم قد وجد نفسه فى حرج أمام نص من نصوص القرآن
فى أى عصر من العصور ..

فرغم نسبية المعرفة وتطورها باستمرار فيما يتعلق بنظرة الانسان
إلى الكون وقوانين المادة وحركتها إلى حد تعارض النظريات مع
بعضها ، تعارضا تاما ، فما من نص فى القرآن تستطيع أن تقول أنه

يشل إنطلاق أى علم من العلوم ، أو يجعل المسلم يغمغم كما فعل جاليلو :
« ورغم ذلك فإنها تدور ، أو يشعر بذلك الحرج الذى عاناه الرجل
الطيب الذى زار فلسطين فى العصور الوسطى لأوروبا ، وعاد إلى روما
يقول هامسا أن انهارها لا تفيض لبنا وعسلا !

بل كان « عمر » يشير إلى هذا المعنى كلما حدثه : « كعب ، اليهودى
الأصل ، عن إشارات وردت فى التوراة عن سلوك عمر ، فيتساءل عمر
دهشا مستنكرا : « أتجد عمر فى التوراه » ١٩

ولقد حرر الاسلام المسلمين من تراث التفصيليات الواردة
فى الكتب السابقة عليه بأن أعلن أنها حرفت وشوهت وبدلت ،
وما دام لم ترد نصوص كافية تحدد مواقع التحريف على وجه الحصر
فإن من حقنا أن نرفض كل خبر فيها لا يتفق وديننا .. وعقلنا ..

فالقرآن هو وحده النص الذى لا يحتمل خلافا .. ثم تأتى السنة
وهى سلوك الرسول وإجاباته على قضايا مجتمعها وعصره ..

وقد شاءت إرادة الله ألا تدون السنة كما دون القرآن ، بل صد
المسلمون عن ذلك صدا .. وكان من الممكن أن تضبط سنة الرسول
وتقيد فى كتاب كما حدث فى القرآن واذن لأصبح لدينا القرآن ..
وضبط دقيق لسلوك الرسول وأقواله فى مدة حياته ، ولأصبح الكتابان
ملزمين ، غير قابلين للنقاش أو الجدل .. وهو ما تنبه له العبقري الملمهم ،
عمر بن الخطاب ، عندما سمع أنهم كتبوا الحديث ، ففى رواية عبد الله

ابن العلاء أنه سأل القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، أن يملأ عليه حديثا ، فقال ان الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب ، فأنشده الناس (أى طالبهم) أن يأتوه بها ، فلما أتوه بها أمر بتحريقها ثم قال : « مشاة كمشاة أهل الكتاب » ، قال فمنعني القاسم يومئذ أن أكتب حديثا . . . »

ثم كانت الخلافات وفساد الرعية ، ودس الخريين والمتآمرين من أعداء الاسلام والعاملين في التنظيم الصهيوني . . فزورت على رسول الله الأحاديث . .

وهو أمر كان معروفا ومتوقعا . . حتى قبل أن يتوفى رسول الله ، وكأنه كان مدبرا تدبيرا لحكمة نحاول في هذه الدراسة أن نتفهمها . .

فرسول الله ينذر : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »

وقال الزبير بن العوام : « والله ما قال متعمدا ، وانتم تقولون متعمدا . . »

وكان كبار الصحابة يمتنعون عن الحديث عن رسول الله ، ويتحرجون من ذلك اشد التحرج ، فعن السائب بن زيد ، انه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة إلى مكة ، قال فما سمعته يحدث عن النبي حديثا حتى رجع . . !

وسئل سعد بن أبي وقاص ، عن شيء ، فأستعجم فقال : « إني أخاف أن أحدثكم واحدا فتزيدوا عليه المائة » .

وعن عمر بن ميمون : اختلفت إلى عبد الله بن مسعود سنة ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ، ولا يقول : قال رسول الله ، إلا أنه حدث ذات يوم بحديث جرى على لسانه : قال رسول الله ، فعلاه الكرب حتى رأيت العرق ينحدر عن جبهته ثم قال إن شاء الله ، أما فوق ذاك ، أما قريب من ذاك ، وأما دون ذاك . . . ١

بل يعرف رسول الله بوحى النبوة أن الحديث الصحيح ، أى السنة الصحيحة ستختلط بالمدسوس ، فيضع لنا ، منهاجا عليا ، إنسانيا ، رائعا ، أساسه الدين ، فى تمحيص الباطل من الحق :

يقول صلوات الله عليه :

« إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه » .

فنحن مطالبون بتقديم التمهيص على التسليم ، أما بالنسبة للنص القرآنى فإن التسليم والإيمان يسبقان التفكير والتأمل . . ولكن

رسول الله يجعل قناعتنا نحن البشر هي الحكم في قبولنا أو رفضنا لما
يقدم لنا على أنه سنة نبينا ..

ثم شئت لإرادة الله أن يختلف كبار الصحابة كأشد ما يكون
الاختلاف ، ويحملون السلاح ضد بعضهم البعض .. ثم ينتقل الخلاف
إلى جبهة المسلمين فيقتاتلون ، ويقتل بعضهم بعضا .. وهم يستندون
جميعاً إلى تأويل النص ، اجتهدوا فيه .

ومن تأويلهم للنصوص ، وما دسه الأشياخ المتأخرون أصبحنا
مطالبين أن نقدم الفكر والمناقشة ، وأن نرد النص أو الحادث إلى
المبادئ الأساسية للإسلام على ضوء ، ما وصلت إليه معرفتنا ،
وما يتفق واحتياجات الزمان والمكان ..

بهذا وصلت حرية الفكر في الإسلام إلى ذروتها .. فقد رفض
الإسلام مبدأ الكهنة والكهانة ، أي الجماعة المختصة باصدار رأى
السماء فيما يجد من شئون الحياة .. فهذا الحق مباح لآى مسلم يستطيع
أن يفهم النصوص ويستوعب معرفة عصره ، ثم يكون قادرا على
أن يستخرج من النص تشريعاً يتلاءم مع احتياجات الزمان والمكان .

فباب الاجتهاد مفتوح ، ولكنه ليس كباب الخان لا تهر كلابه من
كثرة الطراق .. بل لا يجتازه إلا من ملك مفاتيحه ، وهى بعد ذلك
متاحة لكل من صدق العزم ..

ولأنه ليس لدينا نص محدد لكل ما تجابهنا به الحياة المتجددة دائماً ؛ فمن واجبنا أن نجتهد ، أى أن ندرس وأن نستنبط .

وقد نشأ علم الحديث من هذه الأسس .. التفكير والتحقيق قبل التسليم .. ولا جدال أنه يعد أدق علوم التاريخ .. فقد كان على علماء الحديث أن يمحسوا عدداً هائلاً من الروايات حفظت ونقلت دون أن تكتب .. وانتقلت إليهم عن طريق العنونة المشهورة أى يرويها أحدهم نقلاً عن آخر نقلاً عن ثالث حتى تصل إلى الصحابي الذي يحكى عن رسول الله .

وبالطبع كان بوسع أى إنسان أن يقول : « حدثنى فلان ... » ، لذلك بدأ علماء الحديث بأن أجروا عملية حصر شاملة ، هى بلا جدال ، الأولى من نوعها فى التاريخ .. أحصوا جميع الصحابة الذين كانت لهم صحبة مع رسول الله تسمع لهم بالحديث عنه .. ثم وضعوا جدولاً زمنياً دقيقاً إلى حد السكال بتاريخ اسلامهم ، والمواقع التى شاهدوها ، وتاريخ وفاتهم ، فإن نقل أحدهم حديثاً عن أبى ذر فى غزوة بدر ، كان من السهل الحكم بكذبه ، لأن أباً ذر لم يشهد غزوة بدر بل جاء إلى المدينة بعد الخندق .

وبلغ من الدقة التى يعجز عنها صحفى اليوم .. أن أباً موسى الأشعرى وصل هو وقومه إلى المدينة فى نفس اليوم الذى وصل فيه المهاجرون من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب .. فأرخ البعض أن أباً موسى وجماعته من المهاجرين للحبشة ، ولكن التمهيص الدقيق أثبت أنهم اختلطوا بالقادمين من الحبشة فأشيع أنهم من المهاجرين ! وفند

.. مؤرخو السنة المعتمدين هذا الوهم ..

وفي المكتبة العربية عدد من المراجع تحمل ترجمة لجليل الصحابة
سقبل أن يظهر Who is Who بأكثر من ألف عام !

ثم انتقلوا لدراسة تاريخ حياة التابعين والرواة عن التابعين إلى
الجيل المعاصر للذين دونوا السنة لأول مرة

وهذه الدراسة امتدت فشملت تاريخ الحياة .. سنة المولد وسنة
الوفاة .. والبلاد التي عاش فيها ومشاهير الرجال الذين عرفهم .. حتى
يمكن تحديد الزمان والمكان الذي تم فيه التلقي عن الصحابي أو التابعي ،
وضبطها على تاريخ كل من المصدر والناقل عنه .. فيقال هذا : « وهل ،
أى خطأ ، لأن فلان مات في الشام سنة عشرين و فلان لم يذهب إلى
الشام إلا في سنة ٢٢ هجرية فتبطل الرواية ..

ثم امتدت هذه الدراسة فشملت معرفة أخلاق المروى عنهم وصفاتهم
الشخصية والجسدية .. فيقال أنه كان كثير النسيان ، أو ضعيف البصر ،
أو ضعيف السمع أو كان يشق بفلان الخارجي ، فكان يدس عليه
الحديث ، أو كانت له ميول كذا وكذا ..

وكل هذه المعلومات كانت توضع في الاعتبار عند تمحيص الحديث
وتحقيق الرواية ..

من هنا نستطيع القول ان علم الحديث في مصادره المتفق عليها

قد بلغ أقصى ما يمكن أن يصل إليه علم وضعي من الدقة واليقين . .
ثم تبقى هذه النسبة من حق التفكير التي ترجع لكونه من إنشاء بشر
يجوز عليهم الخطأ والنسيان ، وصلى الله عليه وسلم القائل : «لأنما أنا بشر
مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني . . . »

هذه النسبة من حق التفكير هي التي تؤكد صلاحية الإسلام لكل
زمان ومكان . . فنحن لا نسير مقيدين بأغلال النصوص . . .

ومن هنا نقبل أن الدعوة لرفض السنة ، هي دعوة لإلغاء حرية
الفكر في الإسلام ، أو دعوة مشبوهة لما يسمى بالفصل بين الدين
والحياة . .

غير أني لا أقف في هذا الحديث عند ضرورة التفكير في نصوص
السنة . . بل أقف عند جانب آخر من روعة هذا التراث .

فكما قلنا إن السنة هي إجابات الرسول على أحداث محدودة
الزمان والمكان . . فكيف يمكن أن نستفيد بها نحن مع اختلاف
المكان ، ونأى الزمان ، واختلاف ظروف الحياة ؟

انضرب مثلاً ، ونستغفر الله الذي لا يستحي أن يضرب مثلاً
ما بعوضة فما فوقها :

البترول . . موجود من قبل ظهور الإنسان ، وكان الهنود
الحمر يستخدمونه كدواء مسهل . . وكان الناس في العصور الوسطى

لا ينتفعون منه إلا بالقطران يرصفون به أو يداونون به جرب الابل .
وفي بداية القرن العشرين استخدموه كوقود في لمبات الجاز .. اما الآن
فيصنع منه بارفان وطعام وملابس .. ولاحد لما يمكن أن يستخرج
منه جهد الإنسان وفكره ..

وكانت نيران الفرس التي لا تنطفئ هي آبار بترو لهم تشتعل ..
وكان الفرس المجوس سعداء بذلك إلى حد الامتنان بعبادة هذه النار
والفرع من انطفائها .. ولكن احفاد هؤلاء الفرس اليوم يفرعون
لوشبت النار في بئر بترو لاخوفا من ردة إلى المجوسية ، بل خوفا
على شكل الانتفاع الجديد من البترول ..

ولاشك أن المادة المكونة للبترول لم تتغير عبر هذه القرون ،
ولكن معرفتنا هي التي تتغير وحاجتنا إليها هي التي تطورت .. وانتفاعنا
بها هو الذي يتبدل ويتقدم ..

فسنة رسول الله وأفعاله قد لبث حاجة الزمان والمكان للذين
عاصروا الرسالة ، ولكنها - أي سنته - تحمل من الخير والهدى والقيم
ما تستطيع شتى الأجيال أن تصل إليه، وتثرى به حياتها، وتنير طريقها ..

وقد كان السلف الصالح من المسلمين ، راعين في موقفهم من إثبات
السنة ، فلم يقيموا من أنفسهم أوصياء على الأجيال القادمة يتخيرون
لها ما يليق وما لا يليق ..

أن عمر رضى الله عنه القائل : لا تخلقوا أولادكم باخلاقكم

فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم ، كان يعبر عن وعى هذا السلف بسنة التطور ، وبحق كل جيل أن يفكر في حدود احتياجات عصره وقيم عصره .. ولو أقام هؤلاء من أنفسهم رقباء على الأجيال فتخيروا لنا وحذفوا ، لفرضوا بصمات تفكيرهم واجتهادهم على التاريخ الإسلامى كله .. بل ولطوقوا حركة هذا التاريخ بقيود قيمهم . وما وسعهم فهمه .. وفرضوا قيود الزمان والمسكان على رسالة أريد لها الخلود فى كون متغير الزمان لانهاى المسكان ..

ولو أنهم جمعوا كل ما وصل إليهم من روايات وأثبتوه دون نقاش وألغوا عقولهم ، مسلمين بصحة كل ما وصل إليهم ، لسقطوا فى الجانب الآخر من الخطأ .. وهو إلغاء حق المناقشة والاعتراض .. حق الاجتهاد والاستنباط والقياس ..

ولكنهم اختاروا أسلم الطريقتين فاثبتوا كل ما وصل إليهم من روايات ، فابقوا التراث سليما كاملا .. ثم أعملوا عقولهم ومنطقهم فقبلوا ما اقتنعوا وآمنوا به ، وشكوا فيما لم تثبت صحته بالدليل القاطع ، ورفضوا ما ثبت لهم بطلانه ، بادلتهم العلمية المتاحة لهم .. وبمنطق فهمهم لروح الدين .. ثم تركوا لكل جيل أن يدلى بدلوه ..

ومن هنا كنا مكلفين أن لا نقف عند الأبعاد العارضة للحادثة موضوع الحديث .. بل علينا أن ننمى مداركنا ونعيد المحاولة كي نحقق أقصى درجات الفهم والهداية ..

خذ مثلاً حادث السحر . . فقد تردد الحديث عنه ، لا قول أخيراً
بمناسبة ما كتب ، بل منذ بداية كستابة علم الحديث وأماكره جانب
كبير من العلماء . .

وحديث السحر في شتى الروايات عن عائشة وعن عمر مولى غفره
وعن عمر بن الحاكم ، أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر النبي ، ثم أن
جبريل وميكائيل عليهما السلام . . أخبرا النبي بذلك فدعا جبر
ابن إياس الزرقى ، وهو أحد الذين شهدوا بدرًا ، فدلّه على موضعه
في بئر ذروان فخرج جبر حتى استخرجه ، وقيل أن الذى استخرج
السحر قيس بن محصن .

فقالت عائشة يا رسول الله : فأخرجه للناس . . وقالت لا تحرقه . .
(أى السحر) . . ألا تقتله ؟ (الساحر) فقال . . لا أفتح على أمتى
باباً للشر . . أو كرهت أن أثير على الناس شراً . .

وفي حديث زيد بن أرقم : فما حدث به ولا رأتى في وجهه ! ،

وعن « الزهرى » فى ساحر أهل العهد قال : لا يقتل . . فقد
سحر رسول الله رجل من أهل العهد فلم يقتله ،

وبرى النووى أن السحر ليس كفراً فى حد ذاته ولكن يعتبر
كفراً ، إذا كان ضمن طقوسه لإجرامات كافرة ، وقال « لا يقتل عندنا . .

وقال مالك الساحر كافر . . ويقتل بالسحر . .

وقال النووي « وعندها ليس بكافر ، فإذا ثبت أن الساحر قتل
للساحر بسحره ، واعترف أنه مات بسحره وأنه يقتل غالبا لزمه القصاص .
وقال أصحابنا ولا يتصور القتل بالسحر بالبدنة وإنما يتصور باعتراف
الساحر . .

وأول ساحر قتل في الإسلام ، هو ذلك الذي جاء ذكره في حادثة
جندب بن كعب بن عبد الله ، وسبب ذلك أن الوليد بن عقبة بن أبي
معيط لما كان أميراً على الكوفة ، حضر عنده ساحر فكان يلعب بين
يدى الوليد ، يربه أنه يقتل رجلاً ثم يحياه ، ويدخل في فم الناقة ثم
يخرج من حياتها ، فاخذ سيفاً من صيقل واشتمل عليه وجاء إلى
الساحر فضربه ضربة فقتله وقال : أحى نفسك ، ثم قرأ : « اتاتون
السحر وأنتم تبصرون ، فوضع في السجن فلما رأى السجناء صلاته
وصومه خلى سبيله ، فاخذ الوليد السجناء فقتله ، وقيل بل سجنه حتى
أتاه كتاب عثمان بإطلاقه ، وقيل بل حبس الوليد جندباً فجاء أخوه
فاخرجه فانطلق إلى أرض الروم ، فلم يزل يقاتل بها المشركين ، حتى
مات لعشر سنوات مضين من خلافة معاوية . .

اعترف اننى توقفت عند ما قرأت الحديث . .

كيف يسحر رسول الله ؟

كيف يتقبل عقل على السحر ؟ . .

بل إن « ماكس ويبر » يستشهد بحديث السحر على أن الإسلام

يفتقر إلى العقلانية ، ومن ثم لا يستطيع أن يبني المجتمع الصناعي !

ثم عدت اقرأ الحديث . . ولنقرأه معا :

● الفعل قد تم .

ليبد بن الأعصم مارس السحر ضد رسول الله ، والدليل عليه
لا يقبل الشك أو الطعن ، فهو بشهادة رسول الله عن تبليغ من جبريل
وميكائيل . . شاهدان يرحمان أهل الأرض جميعاً . .

فالشهادة جاءت من نفس المصدر الذي يرجع إليه ديننا كله . .
فما من مسلم أو مسلمة يحق لهما أن يتشككا في جريمة لبيد بن الأعصم ،
بعد أن يشهد رسول الله نقلا عن جبريل . .

الدليل المادى على صحة تبليغ جبريل قد وجد وهو أشياء تستخدم
عادة في السحر ، مطمورة في البئر .

افترح على رسول الله أن يحرق مادة السحر لكي يبطل مفعولها ،
وبالطبع كان سيصاحب الحرق بعض الطقوس ، من المؤكد أنها
ما كانت لتكون من طقوس الوثنية ، أو فيها ما يغضب الله . . بل
تلاوة آيات من القرآن وبعض الدعاء .

رفض رسول الله رفضا قاطعا أن تجرى هذه الطقوس ، وقال :
لا افتح على امتي بابا للشر . . والرسول هنا يتحدث عن الشر الذى
يأتى لا من السحر الأسود ، بل من فعل ابطال السحر . .

إذا ما اتخذ شكل طقوس معينة ، فهنا أبصر صلوات الله عليه
ببصيرة النبوة ، أى شر يمكن أن يفتح على أمته لو أصبح لإبطال السحر
سنة عن نبيهم ..

أى حرفة ستنشأ تحت اسم : « إبطال السحر » ، أى قلق سينتاب
الناس طالما أن السحر الموجه ضدهم لم يبطل .. أى ثقل ستكتسب
عملية السحر ذاتها ، من خلال الإيمان بضرورة لإبطالها بأفعال مادية
وغير مادية .. فذلك وحده دليل لا يدحض على تأثيرها .. وخطورة
الاستمرار هذا التأثير ..

كل هذا أغلقه رسول الله برفضه إجراء طقوس ..

• فما ذكره له رسول الله ولا رآه فى وجهه .. أى أن رسول
الله لم يواجهه مرتكب فعل السحر بأى اتهام ، ولا عبس فى وجهه ،
ولا بدا عليه أية ملامح تشير إلى اتهام ..

• الساحر لم توقع عليه عقوبة ، ولا وجه له اتهام ، ولا حتى عومل
بنفور .. ورفض رسول الله أن يقتله حتى لا يفتح بابا للشر !

وقد استند فقهاء المسلمين إلى ذلك فى عدم قتل الساحر .. والذى
قرر قتله ، لم يقتله لأنه ساحر بل لأنه كافر .. وقال الآخرون أنه
إذا استخدم فى سحره ما يفضى إلى الكفر .. كان مرتدا .. والصحابي
الذى قتل الساحر قتله لأنه قال أنه يحيي الموتى وألقت السلطة الإسلامية
القبض عليه ، وأودعته السجن ، لولا أنه هرب بمعونة أخيه ،

أو بمعونة الحارس إلى الشام حيث مات في جبهة القتال . . وتذكر أن
القاتل المقبوض عليه صحافي . . والساحر شخص مجهول لعله من الفرس
اسلم أو لم يسلم . . ومع ذلك لم تتردد السلطات الاسلامية في القبض
على الصحابي . .

ونستطيع أن نستخلص من الحديث مبدأ تشريعيًا عامًا ،
وقاعدة قانونية خاصة . . فرغم ثبوت التهمة دينيًا بطريق القطع . .
إلا أنها تفتقر إلى الدليل المادي . . إلى دليل أَرْضَى . . فأدلة الإثبات
سماوية كلها ، وهي تبليغ جبريل إلى الرسول بأن ذلك السحر من فعل
ليد بن الأعصم ، ثم إرشاده إلى جسم الجريمة المدفون في البئر والذي
ثم ضبطه . .

ولكن من حق المواطن اليهودي أن يشهر في وجه العدالة الاسلامية
دفاعًا بطلب دليل مادي يثبت أن هذا السحر الموجود بالبئر يخصه
ومن فعله . . ومن حقه أن يطلب جبريل إلى الشهادة ويخصمه . . ومن
حقه أن يطعن في شهادة رسول الله فهو لا يؤمن بأنه رسول الله ،
وقد كفله الإسلام حرية العقيدة ، فليس لنا أن نجبره على التسليم
بصدق من لا يؤمن به . .

إذن فلا دليل ماديًا يبيح لعدالة الاسلام أن توقع عقوبة مادية .

فمادامت الأدلة من السماء . . فلتكن العقوبة في السماء . . وليس
من حق العدالة الاسلامية أن تعاقب ولا أن تتهم ولا أن تتجاني

لمواطن يهودى يستظل بعدلها ، مادامت لا تملك دليلا ماديا من أدلة
هذه الأرض . .

وبعد هذا الحديث بعشرة قرون كانت أوروبا تشهد حرق الساحر
والساحرة أحياء كاحتفالات روتينية^١ ، وربما لا يزيد الدليل عن وجود
مقشة أو تقوس بأنف الضحية يكفي لإدانتها بالسحر^١ . .

والقضاة الانجليز ، أدانوا ، وضميرهم مستقر ، جان دارك بالسحر
بينما رفض الفقهاء ثبوت تهمة القتل على الساحر إلا بالاعتراف . .
لاستحالة توفر دليل مادي على القتل بفعل غير مادي بمقاييس
ذلك العصر^٢ . .

نظلم أنفسنا إن وقفنا من الحديث عند التساؤل . . هل سحر
رسول الله أو لم يسحر . . فالسحر مازال يمارس إلى الآن . . فهو
كخرافة أو كحقيقة موجود في المجتمع . . والحديث لا يدفع أى مسلم
للخوف من السحر أو الإيمان به أو الاشتغال به فقد رفض النبي
كما رأينا أن يقوم بأى طقوس لفك السحر . .

(١) في الفترة من ١٤٨٠ إلى ١٧٨٠ قتل في أوروبا ثلاثمائة ألف سيدة
على زعم أنهن ساحرات .

(الاهرام ٦/٨/١٩٦٨ صفحة ١٠)

(٢) إذا اعتبرنا أن التأثير النفسى أو الإيحاء فعل مادي . . بعد تقديم
علم النفس .

ولكن أبعاد الحديث أعمق وأبعد من هذه القضية . .
فإنه كما رأينا يضع الأساس في وقاية المجتمع الاسلامى من فتنة السحر . .
وأعفى المواطنين الأبرياء من أن تنسكل بهم غوغائية الجماهير ،
أو أحقاد السلطة باسم السحر . .

انه قمة خالدة في الشرعية . . في الأركان الواجب توافرها للادانة . .
في المساواة المطلقة أمام القانون . .

ان هذا الحديث هو أساس المبدأ القانونى الرائع ، لا يقضى القاضى
بعليه ، فرسول الله خير من علم وأعدل من قضاى . . ولكنه لا يقضى
بعلمه . . ولا ينزل عقوبته بمواطن يهودى . .

كم من اليهود أعدموا وسجنوا في حضارة القرن العشرين في الغرب
لمجرد أنهم يهود . . بل كم من اليهود أدينوا بلا دليل إلا
كونهم يهودا . .

أى قمة تسمو بها حضارتنا في هذا الحديث ، وبعض الدول تعاقب
على التعرض لرئيس الدولة بالإشارة !

ولكن محمدا رسول الله لم يجد نصا قانونيا يبيح له أن يعبس في وجه
من مارس السحر ضده !

لا حد لما يمكن أن تكتشفه البشرية في تقدمها من قيم في سنة
رسول الله . .

وبعد :

فليست هذه دراسة لحياة رسول الله . . . فما يطبق ذلك
إلا أولو العلم والعزم . . . بل هي عبادة وتأمل ودعوة للفهم ننير
بها حياتنا . . .

* * *

من أحوال المصطفى

سئلت عائشة أم المؤمنين وزوجة رسول الله :

« كيف كان رسول الله في بيته ؟ »

فقلت :

« كان بشراً كالbشر يصلح نعله ويرقع ثوبه ويخدم نفسه »

نعم كان صلى الله عليه وسلم ، بشراً كالbشر ، وتلك هي معجزة السماء . . . ولكن البشر كل البشر ليسوا كحمد بن عبد الله . . . وحسب البشرية أملا في الاستمرار والارتقاء . . . أن يحاول البشر الاقتداء بسيرة رسول الله . . .

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمًا في يوم الاثنين ١٢ ربيع
الأول الموافق ٢٩ أغسطس سنة ٥٨٠ ميلادية .

وكان عليه الصلاة والسلام متوسط الطول . . ليس بالقصير
ولا بالمفرط الطول . . كبير الرأس . . بوجهه بعض الاستدارة . .
عريض الجبين يوشك حاجباه أن يلتقيا ، بينهما عرق ، إذا غضب
انتفخ واحمر ، أسود العينين ، في سوادهما شيء من الحمرة ، طويل
رموش العين ، شديد سوادهما ، بأنفه تقوس . . حسن الثغر . .
أفلاج . . كبير الفم . . عظيم اللحية ، متموج شعر الرأس . . طويل
الذراعين . . دقيق الساقين . . أبيض اللون مشربًا بحمرة . .
مشدود العضلات . . ليس في جسده استرخاء ولا ترهل . .

كان إذا غضب احمر وجهه . . وإذا حزن أكثر من مس
لحيته . . وإذا تسكلم أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها . . وإذا

- • استغرق في الحديث ضرب راحة يده اليمنى ببطن إبهامه اليسرى • •
- • وإذا رأى ما يكره أشاح بوجهه • • وإذا عطس غطى وجهه • •
- • وكان يضحك حتى تبدو نواجذه • • وكان أكثر الناس تبسما • •



وكان في طعامه لا يرد موجوداً ولا يتكلف مفقوداً ، فما قرب
إليه شيء من الطيبات إلا أكله . إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير
تحريم . وما عاب طعاماً قط . إن اشتهاه أكله وإلا تركه . . .

كان يحب الحلو البارد . . . ويحب العجوة . . . ويأكل البطيخ بالرطب
والقشاة بالملح . . . وكان يفطر في رمضان على الرطب - البلح المرطب -
فإن لم يجده فعلى التمر . فإن لم يجده فعلى جرة ماء .

وكان يأكل بثلاث أصابع . . . ولا يأكل متكئاً . . . بل قال
أنا أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد . . . كان يجلس على
الأرض ويوضع طعامه على الأرض . . .

كان قدحه من خشب غليظ مضرب بحديد . . . وأرسل له المقوقس
قدحا من زجاج فكان يشرب فيه

كان إذا سقى أصحابه شرب آخرهم . . . وإذا شرب أولهم أعطى
الذى على يمينه كائناً من كان الذى على يساره . . .

وإذا لم يجد الطعام صبر حتى إنه ليربط على بطنه الحجر
من الجوع . .

كان يعمل في حفر الخندق يوم غزوة الأحزاب ، فرأى صحابته
الحجر على بطنه من شدة الجوع .

ما شبع من خبز القمح ثلاثة أيام متتالية حتى فارق الدنيا . . ولا
أكل خبزاً منخولاً منذ أن بعثه الله نبياً إلى أن توفي . . أما الشعير
فكانوا ينفخونه بالنفث .

وكان يمر عليه الشهر لا يجد ما يخبزه . . ويمر عليه شهران لا يوقد
في بيته نار . . أى لا يطبخ

، ولكن كان لنا جيران من الانصار نعم الجيران . . كانوا
يهدوننا بعض الطعام . . .

وقالت عائشة أيضاً . . : « لو كان لدينا مصباح . . لا كنا ،
أى لا كلك زيت المصباح

، كنا نعيش على انثر والماء ،

وصلى عليه الصلاة والسلام ، مرة ، جالسا من شدة الجوع

قدموا له عصير اللوز : فقال أخروه عني ، هذا شراب المترفين .
وتوفي ودرعه مرهونة عند يهودي ، اشترى منه ثلاثين قدحا
من الشعير أخذها لطعام أهله .

وبعث يشتري من يهودى ، على أن يؤجل الدفع ، فرفض أن يبيعه .. وقال ما لمحمد زرع ولا ضرع فمن أين سيسدد ؟

لم يكن لديه قط قميصين معاً ، ولا ردائين ، ولا ازارين ولا نعلين . أحب الشباب إليه القميص ، وكان عنده قميص من القطن قصير الكمين إلى الرسغين واسعهما ، فوق الكعبين .

وأهدى إليه من الشام جبة وخفان فلبسهما حتى تمزقا . . وحج في قطيفة لاتساوى أربعة دراهم .

كان يلبس الصوف - أرخص شيء وقتها وأكثره لإيلا ما للجسد - ويخفف النمل ويرقع القميص ، ويركب الحمار .

وكانت له حصيرة ينام عليها . . ويبسطها في النهار فيجلس عليها . ونام عليها حتى أثرت في جنبه .

وكانت له مخدة من جلد حشوها ليف ، ، وأحياناً ينام على عباءة . تشى مرتين . . فطوتها زوجته حفصة ٤ مرات . . فلما نام عليها ، كان من لينها ورفاهيتها أن استغرق صلى الله عليه وسلم في النوم حتى فاتته صلاة الليل . . فنهى « حفصة » عن ذلك وأمرها أن تعيد العبادة إلى وضعها الأول . .

ورأت امرأة من الانصار ما ينام عليه فأهدته مرتبة من الجلد حشوها صوف . . فأمر عائشة بأن تردّها .. أمرها ثلاث مرات . . وعائشة أم

المؤمنين وزوجة رسول الله تقول : فلم أردها حتى أمرني ثلاث مرات . .
لأنني كنت أحب أن يكون في بيتي مثل هذا . .

اشتت زوجة سيد الخلق أن يكون في بيتها مخدة من جلد حشوها
صوف . . فنهاها رسول الله دفعا للترف !

وكان إذا نام يضع يده تحت خده وينام على جنبه الأيمن .



ولم يكن يحب الفقر . . ولا يرضى به . . وكان في دعائه يستعيز
منه ، وأعوذ بالله من الجوع ضجيعاً . . ، وكان يستطيع أن يملك
ثروة جزيرة العرب كلها .

وكان يعطى كما وصفه أعرابي : « عطاء من لا يخشى الفقر »
ولو احتفظ بنصيبه في الغنائم كأي فرد من جيشه لكان من
الأغنياء العرب .

ولكن مادامت البشرية قد كتب عليها أن تعيش قروناً عديدة
وفيها الفقر والغنى . . غير نظام تصل إليه . . هو ذلك الذي
يجعل حكامها في جانب الفقراء . .

فما أبشع أن تجتمع السلطة والغنى في جانب واحد . .
وما أبشع أن يستأثر المترفون بالسلطة . . أو أن تستأثر
السلطة بالرفاهية . .

* * *

كان يحب النظافة وحسن المظهر . . ينام أول الليل ، ويستيقظ
في أول النصف الثاني فيستخدم السواك ، وفرشة الأسنان ، ويتوضأ
ويصلي .

وكان إذا خرج للقتال أعدت له عائشة ما يحتاجه في سفره . .
فتضع دائماً دهنها (عطرا) ومشطا ومرآة ومقصين ومكحلة وسواكا . .

وكان له خاتم من فضة كتب عليه :

الله

رسول

محمد

وهو الذي حمّله أبو بكر ثم عمر . . ثم عثمان ست سنوات حتى
وقع منه في بئر أريس . وفشلت كل الجهود في استخراج رجم قلة
الماء في البئر . . فتشأ المسلمون . . وأدركوا أن الحكم لا بد له
من أن يقع في الشر . . وما كان خاتم رسول الله ليوقع به شر

الحاكمين . . فذهب وذهب معه حام لولا أنه حفظ بكل دقائقه
ما صدق البشر . . أن بشرا عاشوا مثل هذه الأيام . .



كان يسهر يسمر مع زوجاته ليلا . . ويجلس بعد صلاة الفجر مع
أصحابه إلى صلاة الصبح . فيذكرون حديث الجاهلية فيضحكون ويتسم
كان يمزح مع أصدقائه . . كان له صديق بدوى يأتي لزيارته مرة
كل سنة . . فرآه الرسول في السوق . . فجاء من ورائه وغطى عينيه
وقال من أنا ؟

وتسابق مع عائشة وهي صغيرة فسبقتة . . فلما كبرت وامتلات
وزاد وزنها سابقها فسبقها . . فقال : هذه بتلك . . أى واحدة بواحدة
وكان يخرج لسانه لحفيده الحسين فيضحك الحفيد . .

وقال : إني أتزوج النساء وآكل اللحم وأنام وأقوم وأصوم وأفطر
فمن رغب عن سنتي فليس منى .

ناداه رجل ياسيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا . . فقال :
لا يستهوينكم الشيطان . . أنا محمد بن عبد الله . . عبد الله ورسوله . .
والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلي .

وكان أصحابه إذا رأوه قادمًا عليهم لم يقوموا إليه وهو أحب
الناس إليهم .. ولما يعرفون من كراهيته لقيامهم .

وكان يكره أن يمشى أصحابه وراءه .. ويأخذ بيد من يفعل فيدفعه
إلى السير بجانبه .

رآه رجل فارتعد .. فقال رسول الله : هون عليك فإنني لست
ملكاً .. إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد ..

كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى
حاجته .. وكان يخفف حذاء الرجل المسكين .. ويخيط ثوب الأرملة

كان يعود المريض .. حتى غلاماً يهودياً كان يخدمه ..

وما كان يغلق دونه الأبواب ، ولا يحول دون مقابله حجاب .
ولا يغدى عليه بالجفان ، ولا يواح عليه بها .. كان من أراد مقابلة
في الله يقابله ..



كان يحب لأمته أن تنتقد . . وأن تطالب بحقها ، وأن تعترض ،
وتبدى رأيها في ما ينفعها ، وما يريبها من سلوك الأمراء . .

كان يمشى وقد لبس ثوباً غليظاً فجاء أعرابي ف جذب من الثوب
بعنف فأثر حرف الثوب الغليظ في عنقه حتى ترك أثراً واضحاً به .
وصاح الأعرابي : يا محمد ، أعطني من مال الله الذي عندك . فضحك
رسول الله وأمر له بعطاء .

وجاء يهودى ف جذب رداءه حتى سقط عنه ، وقال ادفع دينك يا محمد
فقد اشتريت يابنى عبدالمطلب بالمماطلة . فارتعد عمر من الغضب وقال
للرجل أتقول هذا يا عدو الله لرسول الله ؟ فابتسم الرسول وقال : أنا
وهو أحوج إلى غير هذا الأجدر أن تأمرنى بدفع الدين ، وتأمره
بحسن المطالبة به . وتعينه على تحصيل حقه . اذهب وادفع له حقه
وزده عشرين صاعاً من التمر .

وعندما جلس يقسم الأموال في غزوة حنين اعترض أعرابي فقال
هذه قسمة لا عدل فيها . . ولا أريد بها وجه الله ، وصاح في وجه النبي
اعدل يا محمد . فقال النبي : « ومن يعدل إذا لم أعدل . وإذا كنت
لا اعدل فقد خبت اذن وخسرت » . واستأذن عمر في قتل الرجل . فقال
الرسول : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى » .

دفع رجل في بطنه بحريذة من النخل ، فجاء الرجل يطلب أن يقتص ،
فكشف النبي بطنه للرجل وأعطاه الجريذة ليضربه بها فقبل الرجل بطن
النبي وقال : « بل أردت أن يرتدع الجبابرة من بعدك » .

وداس أعرابي على قدم الرسول أثناء الحرب فضربه بالسوط ،
فلما انتهت المعركة دعاه وأعطاه السوط وطلب منه أن يجلده ، فاستعاذ
الرجل أن يجلد نبيه فطلب منه النبي أن يعفو عنه .



كان يكره أن ينقسم المجتمع على نفسه أو تفرسه الطبقية أو الذل ،
أو الوشاية والتجسس .

قال :

« من اطلع في بيت قوم بنير إذنهم ففقدوا عينه .. فلا دية له
ولا قصاص » ..

قال :

« لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً . . فإنني أحب
أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »

قال :

« إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث . ولا تجسسوا ولا تحاسدوا
ولا تباغضوا .. وكونوا عباد الله إخواناً » .

قال :

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ، ولا يحقره » .

بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم
حرام : دمه وماله وعرضه ..

من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب
يوم القيامة .

ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة ..



كان يكره أن يذل الإنسان نفسه بالاعتراف ، فنهى عن أن يفضح نفسه وقد ستر الله عليه . .

جاءه ما عز بن مالك . . وكان يتلما رباة هزال الاسلى بوصية من أبي ما عز ، فلما بلغ مبلغ الرجال جاء ما عز وصيه فقال له لاني كنت أحب امرأة ففعلت منها . . وقد ندمت على ما فعلت فما رأيك فأمره أن يأتى رسول الله ، فيخبره . .

ففعل . .

فإرجعه رسول الله . لعلك قبلت . . لعلك غمرت . .

والرجل يصبر على أنه زنى أربع مرات

فيسأله رسول الله بصريح العبارة وكان يكنى دائماً ، فاعترف الرجل فعاد يسأله أسئلة دقيقة تفصيلية لعل الرجل يجد مخرجا يعفيه . . أو لعل القانون يجد مخرجا له . . ولكن ما عزا يصبر . .

فعاد رسول الله يسأله : هل تعرف ماهو الزنى ؟

قال الرجل : نعم ، فعلت بهما في الحرام ما أفعله بزوجتي
في الحلال . .

فيسأله رسول الله : « أهلك جنون » . . ويسأل أصحابه ، فينفى
الرجل . . وينفى أصحابه . .

فيسأل رسول الله . . « فإذا تريد بهذا القول ؟ » يقول ما عز . .
أريد أن أتطهر بالعقاب . .

ويشرح رسول الله أن هذا المعترف لو أنكر عند بدء التنفيذ
أو هرب منه . . وجب إيقاف التنفيذ . .

ولما عاب بعضهم صنيع ما عز . . قال رسول الله لقد تاب توبة
لو تابها طائفة من أمتي لأجزت عنهم ،

وقال رسول الله للوصي : « ياهزال بش ما صنعت بيتيمك !
لو سترت عليه بطرف ردائك لكان خيرا لك » .

وهو القائل : « ادروا الحدود بالشبهات » أم القاعدة القانونية
الحديثة : « الشك يفسر لصالح المتهم » .



كان يحب المرأة . . إنسانه . . وأما . . وزوجه . . وبناتا . .
وشريكه في الحياة . .

سئل : من أحق الناس بمودتي :

قال : « أمك . . ثم أمك . . ثم أمك ثم أبوك » ،

وقال :

« من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما ، فمات فدخل النار
فأبعده الله »

وقال :

« لم تر للمتحابين مثل الزواج »

وأمر الذين سألوه . . أن يزوجوا ابنتهم للفقير الذي تحبه لا الغني
الذي يريدونه هم . .

وكان صلوات الله عليه يقبل عائشة ، وإذا شربت من الإناء أخذه
فوضع فيه في موضع فمها وشرب . .

وكان يتكىء في حجرها ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها وكان يقبلها وهو صائم ..

وزاحمته على الخروج من باب المنزل .

وغضب مرة مع عائشة فقال لها هل ترضين أن يحكم بيننا أبو عبيدة ابن الجراح . فقالت : لا ، هذا رجل إن يحكم عليك لى ..

قال هل ترضين بعمر ؟ قالت لا .. أنا أخاف من عمر ..

قال هل ترضين بأبي بكر (أبوها) .. قالت : نعم ! ..

فجاء أبو بكر ، فطلب منه رسول الله أن يحكم بينهما .. ودهش أبو بكر وقال أنا يا رسول الله ؟ ! ..

ثم بدأ رسول الله يحكى أصل الخلاف ..

فقاطعت عائشة قائلة « أقصد يا رسول الله ، أى قل الحق .. فضربها أبو بكر على وجهها فنزل الدم من أنفها ، وقال : فمن يقصد إذا لم يقصد رسول الله ، فاستاء الرسول وقال ما هذا أردنا .. وقام فغسل لها الدم من وجهها وثوبها بيده .

وكان إذا غضبت زوجته وضع يده على كتفها وقال اللهم اغفر لها ذنبها وأذهب غيظ قلبها ، وأعذها من الفتن .

وتغضب عمر على زوجته ، فراجعته . فأنكر أن تعارضه ، فقالت زوجته لماذا تنكر أن أراجعك ، فوالله إن زوجات النبي

صلى الله عليه وسلم ، ليراجعنه . وتهجره إحداهن إلى الليل ، . .

وكان إذا دخل على أهله ليلاً سلم تسليماً لا يوقظ النائم ويسمع اليقظان وكره أن يفاجئ الرجل زوجته إذا عاد من السفر فجأة . . بل يبعث لها من يبلغها بوصوله . .

دخل أبو بكر عليه وهو مغطى بثوبه وفتاتان تضربان بالدف (الطار) أمام عائشة ، فاستنكر ذلك ، فرفع النبي الغطاء عن وجهه وقال دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد . .
واتسكات عائشة على كستفه تتفرج على رقص وغناء بعض الأحباش حتى سئمت .

« من ربي بنتين جاء يوم القيامة أنا وهو . . » وضم أصابعه أى متساويين . أو متجاورين .

رفض أن يعزل (أى منع الحمل) . . إلا بموافقة المرأة . فليس من حق الرجل أن يتخذ هذا القرار بمفرده ؛ ولأله أن يتصور المرأة مجرد أداة لاشباع رغبته الجنسية ، وليس ثمة إهانة لامرأة إذا كبر من رجل لا يريد أن تحمل منه وهى تريد . .

قال « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » قال « ان من أشرف الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ، ثم ينشر سرها » .



كان رقيق القلب شفيقا ، محبا لاهله وأصدقائه والابرياء الذين
لم يرهم .

لما أصيب زيد بن حارثة ذهب لزيارته ، فبكت ابنة زيد ، فبكى رسول
الله . وتسائل بعض أصحابه عن بكائه فقال هذا شوق الحبيب
إلى حبيبه ..

وحضر وفاة حفيدة له فدمعت عيناه .

واشتكى سعد بن عباد فلبا دخل عليه رسول الله بكى ..

وقبل سعد بن مظعون عندما أصيب وبكى بكاء طويلا ..

وسمع من رجل كيف وأد (قتل) ابنته في الجاهلية .. فبكى
رسول الله حتى صاح الجالسون في الرجل : أحزنت رسول الله ..
فنهاهم الرسول ، وطالبه أن يعيد القصة .. وبكى الرسول حتى نزلت
دمعة على لحيته ..

وعاش ابنه إبراهيم حتى بلغ ١٨ شهرا ، وكان يحبه ويصعد إلى الجبل ليراه عند مرضعته وهى زوجة حداد . . . ويقبله ويلاعبه . . .

وكان فرحا به . . . رزق به فى شيخوخته . . . وما كان له من صبية ذكورا غيره ، ثم أدركه وهو يموت ، فجعلت عينا رسول الله - تذر فان الدمع .

وقال :

« إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا .
وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »

وكسفت الشمس ، وقال المسلمون الذين رأوا حزن نبيهم . . .
« الشمس كسفت لموت إبراهيم »

فسارع إلى المنبر يخشى الفتنة على أمته فقال : « إنما الشمس

(١) اعتقد - وأستغفر الله قبل القول وأرجو أن يردنى من له علم - أن إرادة الله شاءت الا يكون لرسول الله أولاد ذكور وقضى الله بذلك قبل أن يولد إبراهيم فى الآية الكريمة « ما كان محمد أباه أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . فلو عاش إبراهيم وأصبح من رجال المسلمين لنسخت الآية . . .

وبقدر ما هى معجزة آلهيه صدرت قبل مولد إبراهيم . وصدقت بعد نزولها بسنين . . . فهى أيضا تفتح باباً لانهائية له للحديث عن موقف الإسلام مما يسمى بالقدر والمكتوب . . . فإن هذه الآية المتضمنة للحكم قاطع ، لم تمنع رسول الله من أن يفرح بابنه ويرجو له أن يعيش ويحزن على موته . . .

والقدر آیتان من آیات الله لا تمکسفان لموت أحد ولا لحياته ،

قال :

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، وليكرم جاره ،



جاء يدعونا للعزة .. فاما أن نعيش كراما ، نمارس الحق ،
ونحميه ، ولنا اليد العليا ، والعزة في أرضنا وديننا .. أو نموت
شهداء مدافعين عن الحق .. عن اوطاننا ، وما أعظم مكانة الشهيد ،
ومكانة المقاتل في سبيل الحق ..

قال « إن الله تعالى يقول ما من عبد من عبادى خرج مجاهدا
في سبيلي إلا ضمننت له أن أرجعه مأجورا غانما .. أو شهيدا أغفر له
وأرحمه وأدخله الجنة »

وقال « جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ،
يخرج الله به من الهم والغم »

وقال : « من جاهد في سبيل الله فأنا أضمن له بيتا في أعلى
غرف الجنة .. »

« من أرسل نفقة في سبيل الله فله بكل درهم سبعمائة درهم »

« من أعان مجاهدا في سبيل الله أظله الله يوم لا ظل إلا ظله »

« من اغبرت قدماه في سبيل الله حرما الله على النار ،

« من جرح في سبيل الله ختم له بخاتم الشهداء له نور يوم القيامة . .
ويأتى جرحه له لون الزعفران ويريح المسك يعرفه بها الأولون
والآخرون ويقولون فلان عليه طابع الشهداء .

وقال : « رباط يوم - يعنى اتخاذ موقع في مواجهة العدو والسهل
على حراسة الموقع - في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها . . » « رباط
يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه . »

« مقام أحدكم في سبيل الله خير من عبادة أحدكم في أهله ستين سنة »
« من رباط في شيء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام أجزأت عنه
رباط سنة ،

« حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليها (أى
في الصلاة) وصيام نهارها ،

« حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله . »

« من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله تطوعا لا يأخذه النوم
لم ير النار بعينه ،

« من تعلم الرمي (الرماية) ثم تركه فقد عصاني ،

« عليكم بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، « من مات ولم يغز أو يجز غازيا
أو يخلف غازيا في أهله بخير ، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة ،

وقال « إذا ضن الناس بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعين ،

واتبعوا أذئاب البقر ، وتركوا الجهاد في سبيل الله ، أنزل الله بهم بلا .
فلم يرفعهم عنهم حتى يرجعوا إلى دينهم . . .

الشهيد يغفر الله له فور أول نقطة دم تنزل منه ، ويرى مقعده من الجنة ، يحلى حلية الإيمان ويزوج من حور العين ، ويعفى من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار . ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه .

وقال « ما يجحد الشهيد من القتل إلا كما يجحد أحدكم من القرصة ،
« ولا تجف الأرض من دمه إلا جاءت إليه حوريتان من الجنة
فيأخذان بيده ومع كل واحدة حلة من الجنة ،

الذى لا يفر من العدو ويظل صامدا في موقعه ، أولئك في الغرف
العلا من الجنة ، ويضحك إلههم ربك ولا حساب عليهم . .

« والذى جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقي العدو قاتله حتى يقتل . .
فذاك الشهيد الممتحن في خيمة الله تحت عرشه لا يفضلُه النبيون إلا
بدرجة النبوة ،

« إن السيف محام الخطايا ،

وقال « إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى
ترجعوا إلى دينكم . .

وفسر صحابته قوله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » بأنها
ترك الجهاد . . لأن ذلك يغرى بنا العدو فيأتى ويهلكنا . .

وكان إذا أراد غزوة تحدث بما يفهم أنه يقصد غيرها . . كأن يكون هدفه غزوة حنين ، فيسأل عن طريق نجد . . ويكلف من يجمع المعلومات عن مياهها وطرقها . .

وكان يقول : الحرب خدعة . . وكان يبعث العيون (الجواسيس) يأتونه بخبر عدوه ، ويطلع الطلائع (دوريات استكشاف) ويبيت الحرس ، وكان يرتب الصفوف عند القتال بيده ويقول تقدم يا فلان . . تأخر يا فلان . . وكان يجعل لا صحابه شعارا يعرفون به إذا تسكلموا . .

وكان يلبس الدرع والخوذة ويتقلد السيف ويحمل الرمح والقوس العربية .

ويأبى على القائد إن لبس عدة الحرب أن يرجع عن قتال العدو . . وكان لا يأمر أصحابه بما لا يفعله . . فهو في الحرب أشجع المسلمين ، وأقربهم إلى صفوف العدو . .

يقول على بن أبي طالب :

« كننا إذا اشتد القتال نتقى برسول الله ، وأشجعنا هو الذى يقترب من موقعه ،

ولما انهزم المسلمون فى موقعة حنين ثبت رسول الله ، وأمر العباس أن ينادى :

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب .

فماد المسلمون وانتصروا . .

قاتل . . وجرح . . وهزم . . وانتصر . .



كان يؤمن بالرجال الأحرار الذين يصنعون النصر ..

عندما خرج في غزوة بدر .. لم يخرج حتى استشار المسلمين واستقر رأيهم على القتال والتزموا به .. ولم يكن يرضى بانتزاع الموافقة العلنية من فوق المنبر لما فيه من إحراج .. بل كان في الجيش نظام العرفاء .. قل ضباطا أو مسئولين سياسيين .. يطلب منهم التعرف على رأى الجنود ونقل رغباتهم التي لا يحبون إعلانها أمام الجميع ..

وقاد رسول الله الجيش يوم بدر ، حتى وصل إلى موقع ما فأمرهم أن يعسكروا فيه ويتخذوا مواقعهم ..

وتقدم منه أحد الجنود فسأله : أهذا الموقع هو أمر من الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر .. أم هو الحرب والرأى والمكيدة ؟ ..
وربما كان إيمان المسلمين بأن هذا الموقع من اختيار الله ، له تأثيره الفعال في رفع معنوياتهم ، ولكن .. إن سيرة الرسول - كما رأينا - ليس المقصود بها هو الفترة الزمنية التي عاشها الرسول ، بل الزمن الذي ستعيشه الرسالة ..

وأهمية غزوة بدر، ليست في انتصار ثلاثمائة مسلم على تسعمائة وخمسين مشركا .. لأنها من الناحية العسكرية ، مجرد اشتباك يمكن أن يحدث في أحد أحياء الزنوج بأمرىكا .. أو إحدى قرى الصعيد ..
ولكن أهميتها الخالدة ، هي المبادئ التي أرسيتها ، والقيم التي أعزتها .. ومنها هذه القصة :

قال الرسول : « لا .. هو الحرب والرأى والمكيدة ، أى من تدبير واختيار رسول الله

ولم يتردد الجندى المسلم .. اعترض .. انتقد ..
قال :

« فليس هذا بالموقع يارسول الله .. انهض حتى تنزل أول الماء .. الخ .. »

أى اقترح موقعا آخر يعسكر فيه المسلمون ..

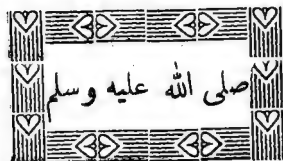
ومن المؤكد أن المؤرخ العسكرى كان سيؤيد الرسول ، لو أنه رفض الانتقال .. فهذه أول معركة يخوضها المسلمون . وأول قرار عسكرى يتخذه رسول الله ينتقده ويخطئه جندى عادى فى الجيش ؟
ما تأثير ذلك على معنويات الجند ؟ ..

ولكن رسول الله يعلم البشرية ، ولمئات القرون والأجيال ..
فيبادر قائلا : الرأى ما أشرت به .. انهضوا ، .

* * *

وَيَصْدُرُ أَمْرُهُ فَيَتَحَرَّكُ الْجَيْشُ ، وَيَعْسُكِرُ حَيْثُ أَشَارَ الْجُنْدِيُّ ..
وَيَنْتَصِرُ جَيْشُ الْأَحْرَارِ ..

كَانَ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ .. وَكَانَ كَمَا تَصِفُهُ عَائِشَةُ : « مَا رَأَيْتُ
وَجَلًّا أَكْثَرَ اسْتِشَارَةً لِلرِّجَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ..



قالت عائشة ما رأيت أحداً شدد عليه الوجع من رسول الله .
وكان يدخل يده في قدح به ماء ثم يمسح به وجهه ويقول اللهم أعني
على سكرات الموت . . .

لما دفن قالت فاطمة ابنته : يا أنس كيف طابت أنفسكم أن تحثوا
على رسول الله التراب . . .

وكان يدعو :

« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل
وعذاب القبر .

اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة . . وأعوذ بك من أن
أظلم أو أظلم .

اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ،
ودعوة لا يستجاب لها . . .

آمين يا رسول الله .

وقال من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله . . .
وقال من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا . . .



حكايات عن عمر



.. ما أعظمه من راعٍ .. وما أعظمها رعية ..
.. وما أصدقها عقيدة أنجبت الراعى والرعية ..



إذا كان الشاعر قد رأى أن من أعظم ما يبتلى به الفتي في أيام محنته «
أن يرى حسنا ما ليس بالحسن ! . . فإن أعظم من ذلك بلاء . . أن
يرى الفتي ، أو ترى الأمم سيئا ما هو الحسن كل الحسن . . فتتنكر
للعظمة في تاريخها ، وتنوء تحت ثقل ما تظنه نقط ضعف في فلسفتها . .
وهي القوة كل القوة !

ويفسد خصومها عليها أمرها فيصورون مواقف المجد كأنها قضايا
مخرجة ، ويشيرون شكها في القيم الخالدة التي تنبع منها عظمتها وتشرق
فيها روحها الحقيقية . .

وما أكثر ما زيف خصوم الإسلام تاريخنا ، وما أكثر ما نشروا
من بلبلة حول أيامننا الخالدة ، وقيمنا التي ما زالت البشرية تعترف
بمحاولة الوصول إلى سفحها . .

وخلال قرون المحنة التي مر بها العالم الإسلامي ، في تخلفه المادي ،
وانهزامه أمام حضارة أوروبا ، المنتشية بحديدتها ونارها . . ومع

الإحساس بالهزيمة المادية ، استطاع علماء الغرب ومزيفوه أن يشككوا
المثقفين المسلمين في كثير من الحقائق ، على نحو جعل هؤلاء ينساقون
خلف المبشرين والمستشرقين ، فيشككون في أروع موافقنا . . وبدلاً
من أن تكون هذه المواقف حجة لهم على خصوم الإسلام ، إذا بهم
بتأثير السم الغربي يتخاذلون إلى حد الشك في هذه المواقف والظن
بأنها فقط ضعف تحتاج إلى تبرير . .

ومن هذه القضايا . . قضية الحكومة الإسلامية . . هل كانت
عظمة هذا النظام نابعة من قوانينه ومن تكوينه الاجتماعي ، أم من
عظمة حكمه وارتفاعهم إلى مستوى فوق طاقة البشر ؟

ومعنى الإجابة على السؤال بالشك الأول منه ، أن النظام صالح
للتنطبق في ذاته ، جدير بالمحاولة . . أما لو قلنا إن العظمة ترجع
للرجال العظام ، رغم ما في ذلك من إغراء لما فيه من تمجيد لمؤسسى
الدين ورجاله الأوائل . . فإن ذلك يعنى أنه لا سبيل إلى عودة هذا
النظام إلا بأن نفتش عن المهدي المنتظر الذى يملأها عدلاً بعد
أن ملئت ظلماً . .

وقبل أن نجيب على هذا السؤال ، يجب أن نقرر حقيقة كثيراً
ما يغفل عنها الدارسون . . ألا وهى نسبية الحكم على النظم . . فالذين
عاشوا أيام النبوة والخلافة الرشيدة ، روعهم الانتقال إلى الحكم
الأموى ، فأنكروه ، وثاروا عليه ، ونقلوا عبر التاريخ غضبتهم هذه ،

حتى ليخيل للدراس اليوم أن معاوية كان طاغية أو حاكماً مستبدًا يظلم الأمة ، وينكر عليها حقوقها . .

والحق أن الانتقال إلى عصر الأمويين ، بدأ مروعا ومذهلا ولا يمكن قبوله للذين عاشوا عدل عمر وزهد علي . .

ولا شك أن الأمر يخالف هذه النتيجة التي نخرج بها من دراسة فترة الصدام الحاد بين الذين أرادوا للخلافة الراشدة أن تستمر ، وبين الذين رأوا أن الناس قد تغيروا ، وأن النظام الكامل لا يقوم على الحكومة الصالحة وحدها ، بل يقوم أولا على رعية صالحة . . وعرفوا أنه لا معنى للعن الدهر . . فإن الناس تفسد وليس الدهر . .

نخطيء إذ نظلم هذا الحكم الذي وضع قاعدة ارتباط الحاكم بالمحكومين . . وصور ضرورة هذا الارتباط ومسئولية الحاكم في المحافظة عليه ، إلى حد تشبيهه بأن : « لو كان بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت . . إذا أرخوا شددتها ، وإذا شدوها أرختها . . »

وما أكره الحكومات التي لا تكتفي بقطع الشعرة ، بل تنسف الجسور الحديدية بينها وبين شعوبها . .

وكما كان يقول فقهاء ومؤرخو المسلمين في العصور التالية . . « لو رأيتم معاوية ، لقلتم أنه المهدي المنتظر ،

فالحقيقة الأولى التي يجب أن نركز عليها ونعنيها في هذه الدراسة ، هي أن النظام الاسلامي الذي قام ابتداء من معاوية ، لم يكن أرقى

النظم في عصره فحسب ، بل ولقرون عديدة . . بل ولا زالت أكثر جوانبه . وأكثر قيمه تتفوق على كل ما وصلت إليه البشرية في طورها . .

واننا نظم هذا النظام عند ما نقارنه بفترة نادرة من عمر البشرية ، هي تلك الفترة التي عاشها المجتمع الإسلامي ، منذ أن هاجر الرسول إلى المدينة ليبنى لأول مرة مجتمعاً إسلامياً . . إلى أن قتل عمر . . أو إلى أن اختلف الناس حول عثمان . . ثم كانت تلك الفترة المخالفة لكل قوانين التطور عندما قامت حكومة على كرم الله وجهه ، ، عندما تفوقت الحكومة ربما لأول وآخر مرة ، على الشعب ، ، كانت حكومة « على ، أعظم وأكبر من أن تطبقها أمته ، ، فليهم وملوه ، ، وكان يتعجل أشقاها يخلصه من هذه الرعية التي تظلم أمراءها !

حكومة عمر

من هنا فإن محاولة التعرف على خصائص هذه الفترة النادرة من عمر البشرية ، تتطلب دراسة حكومة عمر بن الخطاب ، والتكوين الاجتماعي للدولة التي حكمها . . ففيها وصل النظام إلى التطبيق الكامل ، بعد ماتم في عهد الرسول وخليفته تشكيل المجتمع الإسلامي في أرض العرب ، وتأمين حرية هذا المجتمع في أن يفكر وأن ينظم وأن يحكم نفسه بنفسه ، ولا يمكن الحكم على مجتمع من المجتمعات إلا إذا أمن خطر التدخل الخارجي ، ولا يمكن أن تمتحن فلسفة إجتماعية إلا إذا أتاحت لها الفرصة لكي تمارس حقها في التطبيق بحرية كاملة وأمن من خطر الإبادة الشاملة . .

وفي عهد عمر وصلت الدولة الإسلامية إلى قمة أمنها الداخلي والخارجي ، وأتيح للفلسفة الإسلامية أن تمتحن في التطبيق ، لا من خلال العلاقات في مجتمع المسلمين ، بل وكفلسفة توجه سلوك المؤمنين بها في تعاملهم مع غير المؤمنين بالإسلام . .

ففى عهد عمر كان الاسلام ثائراً مغيراً ، وكان حاكماً مستولاً ، ،
وفى عهده ظهرت القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، التى
أمتحننت قدرة الفلسفة الاسلامية على التشريع لمواجهة ما يجد من مشاكل

من هنا كان المؤرخون على حق فى تركيز اهتمامهم على دراسة
الدولة العمرية ، فى دراستهم للفلسفة الاسلامية فى أكمل تطبيقاتها

ولكن المؤرخين يقعون فى خطأين أساسيين :

● الاول هو دراسة الدولة العمرية كظاهرة منفصلة ، وهى ليست
أكثر من التطبيق الشامل للمبادئ التى رسخت وتشربتها النفوس
وتخلقت بها فى المجتمع الاسلامى بالمدينة منذ العام الاول للهجرة

● الثانى ، ، هو استغراقهم فى تحليل شخصية عمر بن الخطاب
رضى الله عنه : ومحاولة تفسير روعة الحكم بعظمة عمر وحدها

وإذا كانت الامم المتعطشة للعدل ، لها العذر ، فى أن تتطلع إلى
حلم لولا أنه حفظ بكل تفاصيله ، لما صدق الناس ، أن بشراً مثلهم ،
قد تمتعوا بمثل هذا الحكم ، ،

البشرية معذورة إن اكتفت بنصيحة ابن عباس : أكثروا من
ذكر عمر ، فإنكم إن ذكرتموه ذكرتم العدل ، وبذكر العدل
تذكرون الله . . .

ولكن المؤرخين ، والمسلمين منهم بالذات ، لا عذر لهم فى الوقوف

عند شخصية عمر ، فصدر العظمة الحقيقية في مجتمع عمر ينبعث من
ثلاث حقائق :

• العقيدة التي صاغت سلوك الأمة ، وسلوك الحاكم ، وحددت
العلاقة بين الحاكم والأمة .

• الأمة التي كونها الاسلام ، وتعلمت على يد الرسول ، وعرفت
واجباتها ، وحقوقها ، وما كانت لتقبل انحراف حاكم أو تفرط في
مشغال ذرة من حقوقها .

• شخصية عمر التي تشربت خلق الاسلام ، ووعت جوهره على
يد خير البشر وسيد المرسلين . . فكان عمر نموذجا إسلاميا
كاملا ، اتاحت له فرصة نادرة في عمر التاريخ ، وهي تولى السلطة فترة
زمنية كافية لامتجان أفضل فلسفة في التطبيق ، بين ، وبجهود ، خير
أمة أخرجت للناس . .

فالعهد العمرى هو مزاج هذه الحقائق الثلاث :

العقيدة

الأمة

الحاكم المسلم

أما العقيدة ، فإن مداد البحر لا يكفي للكتابة عنها .

وأما الحاكم المسلم ، فإن ما يجب أن ينتبه إليه الدارس لشخصية

عمر هو الدور الذي لعبته العقيدة في صياغة شخصيته وخلقه من جديد . . . نفياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام . ولكن العقيدة تعيد صياغة المؤمن ، فتستأصل عناصر الشر ، وتتألق إمكانيات الخير ، وتفجر العبقريّة الكامنة . .

وعمر المصارع في الأسواق صاحب الخمر والنساء في الجاهلية ، هو كله من صنع الإسلام ، صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟

عمر الذي صنع في الجاهلية صنما من «عجوة» فلما جاع أكله . . يتفوق بالعقلية الإسلامية ، حتى يقطع جذع الشجرة الذي بايع المسلمون النبي تحته مخافة أن يفتن الناس ، ويقول للحجر الأسود : « والله إنني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما فعلت . . »

وعمر الذي زعموا أنه دفن ابنة له حية في الجاهلية ، بالإسلام يصبح عمر أرق وأحن قلب عرفته البشرية بعد رسول الله . . حتى ليطوف ليلا على رعيته ، فإن سمع بكاء طفل لا ينام ، ولا يهدأ حتى يراجع أمه ويقرعها : « إنك لأم سوء ما بال طفلك يبكي ؟ » فترد المرأة كعادة رعية عمر في الاحتجاج ، بمهاجمة رئيس الدولة . . « والله ميننا وبين عمر ! »

فرض المرتبات للأطفال من سن الفطام ، فأنا أحاول أن أجبر الطفل على الفطام وهو يابى . . .

يبكى عمر ويرتعد ويبيت الليل يؤنب نفسه : « ويلك يا عمر ، كم قتلت من أبناء المسلمين » .

وما أن لاح الفجر حتى هب ينادى : « لا تعجلوا اولادكم على الفطام .. قد فرضنا مرتبا لكل طفل يولد في الإسلام » ..

بالإسلام .. وحده .. تحول القلب الجاهلي إلى رحمة المسلم ..
بإيمانه بدين الرحمة .

وحتى عندما تقارن بين عمر قبل الإسلام ، وأى مسلم أو مسلمة نجد عمر هو الأضعف !

جارية عمر المسلمة .. أقوى من عمر .. يضربها حتى يكمل ساعده ، وتزهده نفسه ، وهى على إيمانها ، فيتركها قائلا : « انى اعتذر اليك .. أنى لم اتركك الامملا .. » فتزد جاريته بشجاعة المؤمنة : « هكذا فعل الله بك » .

وعندما توجه عمر إلى بيت اخته مهددا منذرا متوعدا .. تواجهه اخته باسلامها فتقهره ، بل وترفض أن تسلمة الصحيفة التى كتبت فيها الآيات ، الا ان اغتسل وتطهر .. ويخضع عمر ويذهب فيغتسل ويعود يقطر ماء .. ومع قطرات الماء يسجل اعترافه بتفوق ما فى الصحيفة عليه ، وتفوق من لهم حق تلاوتها عليه .. وعندئذ تسمح له اخته بأن يمس الصحيفة .. ويقهر إيمانها شركه وتنير الآيات قلبه .. فيصبح عمر المسلم كما يصفه رسول الله « ما سلك عمر طريقا الا سلك

الشیطان غیره ، « إن الشیطان یخاف من عمر » ، ما طلعت الشمس
ولا غربت علی رجل خیر من عمر . .

ویقول ابن مسعود : « کان اسلام عمر فتحا ، وهجرته نصرا ،
ولامارته رحمة . .

ویقول له زیاد بن أبی سفیان : والله ما فی خلق الله من أتیه
اکثر منك . .

ویتهم بعضهم خالدا بالثورة فیقول : اما وابن الخطاب حی
فهیات . .

و « عمر ، أول من یعترف بفضل الإسلام علیه . . اذا أمر ابا
سفیان ، فأطاع . . سجد لله شکرا وقال : الحمد لله الذی جعل ابن الخطاب
یامر ابا سفیان ببطح مكة فیطیع

عمر هو نموذج الرجل العظیم ؛ تطلق العقیدة طاقات عظيمة ،
وتنیر قلبه ، وتمنحه عبقرية المؤمن التي وصفها هو فأبدع : « لست
بحب ، والحب لا یخدعنی » .

وما اظن أن البشرية قد تلمست يوما مثملا تتلمس الیوم السبیل
الی حاکم لیس بحب ، فلا یغرر بها ، ولا یمکر بها ، ولا الحب یخدعه ،
فیضیع أمرها . .

رعية عمر

اما العامل الثالث في تكوين عظمة العهد العمرى ، فهو كما قلنا رعية عمر . . تلك الرعية التى رباهها رسول الله فى مجتمع المدينة ،
والتي قاتلت معه فى سبيل الله وتعلمت على يديه ، أن تعرف الحق ،
وتطالب بالحق ، وتفرض الحق . .

فهذه الحكايات عن عمر نحاول فيها أن نتلمس ملامح هذه الرعية ..
الامة التى صنعت مجتمعا هو اقرب محاولة للسكال . . اقرب
مطابقة لآمال البشرية وأحلامها منذ أن انقسم الناس إلى حاكمين
ومحكومين . .

جاءت اقمشة من اليمن ، فوزعت على المسلمين بالتساوى ، ونال
عمر مثلاً نال رجل الشارع . . وكان عمر طويلاً يمشى بين الناس
وكانه راكب ! فظهر عمر على المنبر وقد ارتدى قميصاً من هذا القماش ،
ثم خطب فدعا الناس إلى الجهاد . . فإذا بصوت ينطلق من ساحة
المسجد يقول : « لاسمعا ولاطاعة ! » ويسأل عمر وسط صمت رهيب
« لماذا ، يرحمك الله ؟ ! » فيقول الرجل في غير تعلم : « اخذت من
القماش مثلاً اخذنا فكيف فعلته قميصاً وانت أطول منا . . لا بد انك
استأثرت علينا . »

ويجد عمر أن الرجل محق في مساءلته ، فينادى ابنه عبد الله
ويطالبه بالتفسير . . ويعلم عبد الله أنه تنازل عن نصيبه لآبيه حتى
يمكنه أن يفصل قميصاً يستر عورته إذا ما صعد على المنبر يدبر أمور
دولة ممتدة من البحر الأبيض إلى حدود الصين !

ويقتنع الرجل فيقول : « الآن نسمع . . ونطيع ! » .

بهر المؤرخين موقف الحاكم في القرن السابع ، يقبل المحاسبة
ويدافع عن نفسه أمام محكمة الرأي العام . . ففسوا الرجل الذي تسام
واتهم وحاسب . . وخلع الطاعة لما توهم انحراف السلطة . . في عصر
عبدت فيه الحكام . . وساده الأكاسرة والقيصرة . . وشهدنيرون يحرق
روما . . رغم تطور القانون الروماني ! فلا يجد من يردعه أو يحاسبه
ولكن الرجل المسلم يرى أن شرعية الحكومة تسقط ، إذا
ها استأثر رئيسها بنصف مترقاش ! . .

موقف عظيم أن يقبل الحاكم المحاسبة . .
وأعظم منه ، أمة تتمسك بالعدل وتصر عليه وتحاسب حاكمها
وتواجهه بما يريها . . وتطالبه بالتفسير .

* * *

يقف عمر على المنبر ، فيعلن أنه قرر عدم المغالاة في المهور . .
وهي فكرة راودت كثيراً من المصلحين . . ولكن امرأة من
عامة المسلمين ترى في اقتراح عمر اعتداء على حق المرأة ، ومخالفة لما
تعتقد أنه تفسير الآية :

« وآتيتن إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا . . اتأخذونه
يهتاناً وإثماً مبيناً » . .

فترفع صوتها من مؤخرة المسجد قائلة :

- « ليس هذا من حقك يا عمر ! »

ويسأل عمر : « لماذا ؟ »

فتواجه المرأة بالنص . . بالآية السكرية فيتراجع عمر قائلا
من فوق المنبر :

« أصابت امرأة واخطأ عمر ، . . ثم يبكي قائلا :
« كل الناس أفقه منك يا عمر ؟ ! »

يقف المؤرخون عند عظمة الحاكم تخطئه امرأة من رعيته فينقد
نفسه علنا ويتراجع عن قانون نوى إصداره ، بمجرد أن تشهر امرأة
في وجهه اعتراضا بعدم دستورية القانون . . الذى التزم بطاعته . .

عكف المؤرخون على هذا الموقف . . حتى أصبحت قولاته « اخطأ
عمر وأصابت امرأة » من الأقوال المأثورة الخالدة ولو انصفوا
لخلدوا قولة المرأة « ليس هذا من حقلك يا عمر ! ! »
فأى عظمة أكبر من عظمة امرأة تجاهر برأيها في مواجهة
الحاكم ، ولا تقبل تشريعاته قضية مسلمة . .

وأى أمة تلك التى تعرف فيها المرأة حقوقها ، وتكتشف فوراً
تعارض القانون عند اعلانه مع هذه الحقوق فتدفع بعدم دستوريته . .

لو كانت أمة غير تلك التى رباهها رسول الله ، ولو كان فقهاء
المسلمين وقتها ، غير صحابته . . فمن يدرى ربما سكتوا عن معارضة
عمر . . ولو تأخر الزمان . . فربما عكفوا على الاشادة بتطور الأسرة
بعد تشريعات المهور ! !

خرج إلى خيام على بعد ٣ أميال من المدينة فرأى ناراً . . وقدرنا
 (حلة) فوق النار وصبية يبكون . . سأل . . قالت امرأة : ضربنا
 البرد والليل ، قال : فما بال الصبية يبكون . . قالت : الجوع . .
 قال : وماذا في القدر . . قالت : ماء اسكتهم به حتى يناموا . . الله
 بيننا وبين عمر . . فيقول رحمك الله وما يدري عمر بكم . . تقول
 المرأة في مواجهة رجل لا تعرفه : « سبحان الله ! يتولى أمرنا ويغفل
 عنا ؟ » ويفزع عمر مهزولاً إلى بيت المال ويعود يحمل على كتفه
 الطعام فيطبخه بيده للصبية ، والمرأة لا تكف عن الحديث « جزاك الله
 خيراً . . أنت والله أولى بالحكم من أمير المؤمنين عمر » . .

فيقول لها عمر « قولي خيراً . . إذا جئت غداً أمير المؤمنين
 ستجدني هناك إن شاء الله » ورغم هذا التحذير - غير المقصود - من
 عمر ، لا تأبه المرأة وتستمر في إبداء رأيها في عمر ، وترشح هذا
 الرجل ليحل محله . . لأنه لا يجوز أن يتولى الحكم من يغفل عن
 آلام رعاياه . .

كلاهما عظيم . . الحاكم الذي لا يغفل ويحمل الطعام للجائعين . .
 والمرأة البدوية التي تعرف مسئولية الحكم قبل ظهور نظريات الدولة
 الحارسة والمتدخلة بالف سنة ؟ !

* * *

وعاقب أبو موسى الأشعري جندياً في جيش العراق ، خلق شعره
 فجمع الجندي الشعر وسافر به من العراق إلى المدينة بالحجاز . . ودخل
 على أمير المؤمنين فقتل بالأشعر في وجهه وقال : « هكذا يعاملنا رجالك »

تهلل عمر وقال : لأن يكون الناس كلهم في مثل شجاعة هذا . . أحب
إلى من كل ما فتحنا من بلاد . . .

ما أعظمك يا عمر . عرفت أنه بمثل هذا الجندي تفتح الأمصار
وتنتصر الأمم . .

وما أعظمك أمة محمد ! يسافر الجندي من العراق للشام ليحتج أعنف
ما يكون الاحتجاج . . على شعره الحليق . .

ولما وصل إلى العاصمة بساط كسرى (سجادة عجمي فاخرة)
مساحتها ٣٦٠٠ ذراع مربع . . بعث بها الجند إلى أمير المؤمنين .
وقالوا ليسكن أمير المؤمنين وحده . . فإني عمر أن يأخذه واستشار
المسلمين . . فقام علي بن أبي طالب عليه السلام ؛ فقال له : لماذا ينقلب
علمك جهلا ، ويقينك شكاً . . لماذا تتردد ، وأيس لك من الدنيا
إلا ما أعطيت فامضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فافنيت . وإنك
أن احتفظت به اليوم ، يأتي في الغد من يستحل به ما ليس له .

أى إن كانت حجة إفساد البساط بالتقسيم تبرر اليوم احتفاظ
الحاكم به . . فسيأتي حكام يحتفظون بكل شيء بحجة أن عمر هو أيضاً
استأثر . . فليمزق البساط وتبقى حقوق الشعوب غير ممزقة ولا مهددة .

قيل وأخذ على قطعة لم تكن أفضل القطع فباعها بعشرين ألفاً .

عمر وخالد

تولى عمر الخلافة ، وخالد ، قائد عام القوات الإسلامية بالجهة الغربية (الشام) . . وكان خالد وعمر على خلاف دائم خلال خلافة أبي بكر . .

كان عمر يرى أن خالدا يقوى الدولة ويضعف الشعب ولكن كيف كان خلافهما . . كيف يختلف القادة من أمة محمد . . .
وأى قانون يحكم علاقتهم عندما يختلفون ؟

جاء خالد منتصراً مزهواً من حروب الردة ، وقد قضى على الفتنة ووحّد الجزيرة العربية ، جاء يضع ريشات في عمامته . . وفي طريقه إلى مقابلة أبي بكر مر بعمر ، فقام عمر ، فهاجمه ، وانتقده ، ثم خلع الريش فألقاه على الأرض وانتزع رمح خطمه وخالد لا يقاوم ولا يتكلم ، يظن أنه يفعل ذلك بأمر أبي بكر . . فيخضع ويطيع لأمر الدولة

ولكن لما دخل خالد على أبي بكر لم يعاتبه بل أثني عليه وعينه على الجيش المتجه إلى العراق . . فخرج خالد متحديا لعمر وقال : هيا يا ابن (حنتمه) فعرف عمر أن أبا بكر أقره ، فانكسر ولم يتعرض الله ولا رد عليه !

وعين أبو بكر خالدا قائدا على الجبهة الغربية ، مكان أبي عبيدة بن الجراح ، فكتب خالد إلى سلفه في القيادة : أثناني كتاب خليفة رسول الله يامرني بالسير إلى الشام وبالمقام على جندها ، والتولى لأمرها ، والله ما طلبت ذلك ولا أردته ، ولا كتبت إليه فيه . . وانت رحمك الله على حالك التي كنت عليها ، لا يعصى أمرك ، ولا يخالف رأيك ، ولا يقطع أمر دونك ، فأنك سيد من سادات المسلمين ، لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك . تتم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ورحمنا وإياك من عذاب النار . .

واستمر أبو عبيدة يقاتل تحت قيادة خالد ، فلما مات أبو بكر ، عزل عمر خالدا وكتب إلى أبي عبيدة يوليه القيادة العامة ؛ ووصل الخطاب أثناء حصار دمشق ، فكتب أبو عبيدة قرار تعيينه حتى تم الفتح ؛ فعاتبه خالد : يرحمك الله ما منعك أن تعلمني حين جاءك ، قال أبو عبيدة : « إنني كرهت أن أكسر عليك حربك ؛ وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمل ؛ وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ؛ وإنما نحن إخوان ، وما يضر الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه . .

في مثل هذه الامة ، كان عزل قائد الجيش ، ونقله من أعلى منصب

إلى مجرد جندى فى الجيش لا يحتاج إلى إجراءات أمن ولا إلى تدابير خاصة . . . ولا مبالغته . . .

واستمر خالد يفتح المدن ، وينتصر ، تحت قيادة أبى عبيدة ، حتى أصبح اسم خالد أسطورة . . . ولومات عمر وخالد فى الشام ، لربما تكرر ما حدث عندما مات عثمان ومعاوية على الشام . . .

وبدا خالد يتصرف تصرف قادة الجيوش المنتصرين . . .

استحم بالكولونيا (خمر تركت فعادت غسولا غير خمر . . .)

وزاره امراء العرب فأهداهم مالا أدهش عمر . . . وقرر عزله . . .
ولكن كيف ؟

أرسل « عمر » ، « بلالا » . . . العبد الأسود . . . لما أسلم كان سيده يربطه بحبل ويسلم الحبل للصبيّة يطوفون به طرقات المدينة ، ويوضع الحجر على صدره ويضربه سيده حتى يرحمه أبو بكر فيشتريه ويعتقه . . .
أرسله عمر ليحاسب وينفذ قرار العزل فى أعظم قائد عسكري عرفته البشرية منذ الاسكندر . . .

وفى المسجد وأمام المسلمين ، سأل بلال خالدا عن مصدر المال الذى منحه لزمانيه . . . ودهش خالد ولم يحجب ، عندئذ تقدم بلال خطوة أخرى فقال أن أمير المؤمنين قد أمر فى حالة رفضك الاجابة ، أن تقيد هكذا . . . وفك عمامة خالد وقيد ذراعيه خلف ظهره بشالها . . . وأعاد عليه السؤال !

ووسط سكون المسجد . . قال خالد : هو من مالى . . فيطلق
بلال يديه ثم يعممه بيده وهو يقول : « نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم
ونخدم مولينا » .

وعزل خالد وحاء إلى المدينة ، وطبق عليه عمر قانون من أين لك
هذا وصادر عشرين ألفا ظن أنها غير واضحة المصدر .

واختلى خالد بعمر فعاتبه على موقفه فقال عمر « يا خالد والله انك
على كريم ، وإنك إلى الحبيب ، وإن تعاتبني بعد اليوم على شيء أبداً . .
وكان حريصا على أن يبرىء ساحة خالد ، ويؤكد أنه لم يعزله لخيانة . .
« لاني لم أعزل خالد عن سخط ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به .
خفت أن يوكلوا إليه ، ويبتلوا به ، فأجبت أن يعلموا أن الله هو
الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » .

وعندما مات خالد ، ولم يترك إلا فرسه وسلاحه ، فقد عمر نفسه
فقال : « رحم الله أبا سليمان ، كان والله غير ما ظننا » .

ووقف مرة يعتذر عن خلع خالد ، فقاطعه ابن عم خالد : « والله
ما أعذرت يا عمر ، ولقد نزعت عاملا استعمله رسول الله ، ووضعت
لواء رفعه رسول الله ، وغمدت سيفاً سـله الله ، وقطعت الرحم ،
وحسدت ابن العم » .

كل هذا في المسجد علانية على رؤوس الأشهاد . .

فرد أمير المؤمنين :

انك قريب القرابة ، حديث السن ، مغضب في ابن عمك .

ولم يسمع بالقضاء القبض على ابن العم الطاعن في تصرفات
رئيس الدولة . .

ولم يتوقف المؤرخون طويلا عند هذا الطاعن الذي يعلن رأيه
حتى ولو كان خطأ . .

وقالت أم خالد تنعيه : « أنت خير من ألف ألف من القوم » .
فقال عمر :

« صدقت والله إن كان لكذلك . . »

وقال : « على مثل خالد فلتبك البواكي . . »



ولما انتشر الطاعون بالشام ، خاف على أبي عبيدة ، وكان على
رأس الجيش هناك . . فهو أمين الأمة ، وكان يرشحه للخلافة بعده ،
فأراد أن يستدعيه للمدينة لينقذه من الوباء ، ولكنه كان يعرف أى
نوع من الرجال ، أمة محمد ، فى تلك الأيام . . وما كان أبو عبيدة
ليقبل الهرب من الوباء ، تاركاً جنده ، فتحايل عمر ، ولعلها المرة
الوحيدة التى لم يجاهر فيها برأيه ، كتب يحتال على انقاذ أبى عبيدة
« أما بعد . . فىنى قد عرضت لى إلك حاجة أريد أن أشافئك فيها ،
فعزمت عليك ، إذا نظرت فى كتابى هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل
إلى . . حجة وأمر يخلى كل مسئول من مسؤوليته ، فيطير من أبشع
طاعون عرفه العرب حتى ذلك الوقت . . ولكن هيهات . . قرأ أبو عبيدة
الكتاب وقال يغفر الله لأمير المؤمنين . . وكتب إليه « أنى قد عرفت

حاجتك إلى وإني في جنده من المسلمين ، لا أجد بنفسى رغبة عنهم ،
فلمست أريد فراقهم فدعنى في جندى .

فلما وصل الكتاب إلى عمر بكى . .

ومات أبو عبيدة بالطاعون . . كما توقع ، وكما توقع له عمر . .
وكانت خسارة المسلمين بوفاته فادحة . . ولكن أى خسارة للقيم
والل بشرية كانت ستقع ، لو أن صحابة رسول الله ، قبلوا أن ينجو
القائد بنفسه تاركاً جنده للموت والوباء !

كانت علاقته بالرعية ، اتفاقاً غير مكتوب ، صاغت بنوده العقيدة
الإسلامية ، وأمة ربها الرسول وعلما ، وصحابة قدسوا من نور النبوة
قدر ما أتيح لكل منهم ، فهم لا يرضون من عمر انحرافاً ، ولا يكتفونه
نصيحة ، وهو لا يتردد في مشورتهم ، ولا يطالب رعيته بأكثر مما يلزم
به نفسه . .

لما خدع المصريون ابنه ! وسقوه الخمر ، وأفاق في الصباح فذهب
إلى عمرو بن العاص ، وطلب منه تنفيذ الحد عليه ، وهدده بإبلاغ أبيه
لو أعفاه من العقوبة ! . . وربما هى المرة الوحيدة التى استغل فيها ابن
لعمر نفوذ أبيه . . ولكن ليطبق عليه القانون ! . . وخاف عمرو
ابن العاص من التهديد فجاء ابن عمر ولكن فى داخل الدار . . وبلغ الأمر
عمر بن الخطاب فكتب خطابه القاسى إلى عمرو . . إلى العاصى بن العاصى
الخ . . ثم أمر بأن يرسل ابنه على أعنف الصور إلى المدينة وهناك نفذ
عليه القانون . . ثم مات ابنه . . وقيل من شدة الضرب .

مثل هذا الحاكم لا يطمع منحرف في الإفلات من عقوبته ، ولا يخشى مواطن أن يشكو إليه كائنا من كان من ولايته .. فالذى لا يضمن بآبائه ، لن يضمن بغيره في حدود الله .. ومثل هذا الوالى لا يتردد المصرى أن يذهب من مصر إلى المدينة يشكو له ضربات من عصا نالها من ابن فاتح مصر في القرن السابع الميلادى .. ولا يجرؤ عمرو على الاعتراض والمصرى يرفع عصا أمير المؤمنين ويضرب بها ابن حاكم مصر ..

كان إذا أراد سن عقوبة أو تحريم شيء ، بدأ بأهله فقال لهم : إن الناس ينظرون إليكم نظرة الطائر للحجم ، فإن سمعت أن أحدكم فعله .. ضاعفت له العقوبة

* * *

فهمه للسلطة أنها الإحساس بما تحسه الجماهير ، كيف ألى أمورهم إن لم يمسنى ما يمسهم ١٤ ،

كان أبيض اللون ، فلما جاء عام المجاعة ، ومنع نفسه من أكل اللحم والسمن واللبن ، اسود جلده ..

رأى في يد ابنه الصغير بطيخة في عام المجاعة .. فصاح فيه : « بخ ! بخ ! يا ابن أمير المؤمنين ، تأكل الفاكهة والمسلمون جائعون ! » فبكى الغلام وجرى هاربا .. وشهد الناس أنه اشتراها بحفنة من نوى .

واشترى ابنه عبد الله ماشية وتركها ترعى في الأرض المؤتممة مثل

سائر المسلمين ، ولكنه أمر ببيعها ، والاحتفاظ برأس ماله فقط ورد
الفرق إلى بيت المسلمين . : « يقول الناس لإبل ابن أمير المؤمنين . .
تنحوا لإبل أمير المؤمنين ، فترعى إبلك وتجوع إبل المسلمين . . وكان
ينصح الوالى الذى يدعى أن ثروته قد نمت من التجارة . . أن يجلس
بجوار أبيه وأمه ويتاجر . ، ليرى إن كان يربح أو لا . .

مثل هذا الوالى من حقه أن يلقي جابر بن عبد الله يحمل رطلا من
اللحم فيسأله ما هذا . . ويعتذر جابر « لحماً اشتيته فاشتريته ، فيرد أمير
الزاهدين : « أكلما اشتيته . . اشتريت ١٩ »

وويل لأمة كلما اشتى حكامها . . اشترى . .

كان يكره أن ينفصل الحاكم عن الشعب مهما كانت صورة هذا
الانفصال « بلئس الوالى أنا إن أكلت أطايبها وأطعمت الناس عظامها . .

دخل على حفصة فقدمت له طبقاً فى مرق بارد ، وصبت فى (الشوربه)
بعض الزيت . .

فقال لها : أدمان (غموسين) فى طبق واحد ؟ لا اذوقه حتى ألقى
الله عز وجل ،

ورفض أن يأكل صنفاً من الطعام لا يستطيع كل المسلمين أكله .

* * *

كان أبغض ما يبغض الحجاب بين الحاكم والمحكومين . . أو
انفصال الحاكم عن الشعب . .

سمع أن عمرو بن العاص بنى منبراً عالياً يخطب منه ، فكتب إليه :
« ألا يكفيك أن تقف والمسلمون عند قدميك .. وأمره أن يكسره .. »

وكتب له عمرو بن العاص ، يبشره بفتح مصر وبناء القسطنطينية ،
وقال أن الجند قد بنوا له داراً في مصر . ، فكتب إليه : كيف يكون
الرجل في الحجاز بيت في مصر . . ١٩٠٠ اجعله سوقاً للمسلمين ، ..

سمع أن سعد بن أبي وقاص بنى داراً ، وكانت بالسوق ، فأزاد أن
يحجب عن نفسه أصوات الناس بالسوق ، فطلب من المهندس أن يجعل
الباب مانعاً للصوت ..

وبلغ الأمر « عمر » .. فأرسل إليه محمد بن مسلمة وقال له :
لاذهب إلى القصر فأحرق بابه .. ثم عد إلى .. ،

وحمله رسالة تقول : « بلغني أنك بنيت قصراً واتخذته حصناً ،
ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً .. (١) أنه ليس
بقصرك ولكنه قصر الخيال .. أغلقه وانزل منزلاً مما يلي بيوت
الأموال ولا تجعل على قصرك باباً يمنع الناس من دخوله وتنفيهم به
عن حقوقهم . »

وتبين افتراء أهل العراق على سعد ..

كان قد نشأ جيل لم يعيش نور النبوة ، ولا أدبه رسول الله . .
وبدأت خيوط مأساة النهاية تنسج ..

قضاة

اشترى عمر فرسا من تاجر وأخذه ليجر به فأصيب الحصان . .
فأراد عمر أن يرجعه . . وبدا من أن يقبل التاجر شاكرا مؤكدا
أن الحصان مصاب منذ أن ولد . . وأن إصابته وراثية ويبدى
استعداداه لدفع التعويض عن الازعاج الذى سببه حصانه للحكومة . .
وتعريض حياة الدولة للخطر . .

بالعكس . . رفض التاجر أن يسترد الحصان

فطلب عمر أن يحتكما . . واختار التاجر « شريكا ، العراقى
ليقضى بينهما . .

وذهبا اليه واستمع للقصة ثم حكم ضد أمير المؤمنين بنصر قانونى
مازال صالحا فى أرقى القوانين المعاصرة : « خذ ما ابتعت أو رد كما
استلمت ، ويسر عمر فيقول : « وهل القضاء الا هكذا ؟ » . . .

ثم عينه قاضيا على الكوفة . .

أيهما أروع . . ١٩ . . القاضي يحكم على أمير المؤمنين أم أمير المؤمنين يرضيه أن يحكم عليه . . ويطمئن للقاضي يحكم على رئيس الدولة ، فيوليه القضاء ؟ . .

العقيدة هي الأعظم والأسمى . . لأنها علمت القاضي قول الحق . . وعلمت الحاكم قبوله . .

وعندما اشتكى اليهودي من الإمام على رضى الله عنه ، قال عمر لعلى وكان يجلس بجوراه : قم يا أبا الحسن ، فقف إلى جانب خصمك . . حتى تتحقق المساواة أمام القضاء . . فظهر الغضب في وجه على وهو ينفذ . . فسأله عمر لماذا غضبت يا على :

يقول الإمام : « ناديتني بالكسبية وهو تعظيم لم تمنحه لخصمى ا ، . وبعد ذلك بألف سنة كان النبلاء في أوروبا يحاكمون أمام قضاء خاص يشكل من طبقتهم . .

رضى الله عن صحابة رسوله . . بهم شرفت البشرية . . ولولاهم لما كان لوجود البشرية معنى . . ولا كان ثمة أمل في عدل . . سأل عمر صاحب قضية بماذا حكم عليك زيد . . قال بكذا . .

قال عمر لو كنت أنا لحكمت لك . .

قال صاحب القضية فرحا : فما الذى يمنعك أن تردده وأنت أمير المؤمنين ١٩ . . .

: قال

لو كنت أردته لكتاب الله أو سنة رسوله لرددته ، ولكنه رأى
أمرأته . . والرأى مشترك . .

* * *

وأبدى رأيا فصاح رجل : « هذا ما رأى الله ورأى عمر » .
فأنهره عمر وقال : « بئس ما قلت . . هذا ما رأى عمر فإن يكن
صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر » .
ووجم بوجه ثم قال : « السنة ما سنه الله ورسوله . . لا تجعلوا
خطأ الرأى سنة للأمة » .

* * *

دخل عليه قاتل أخيه فقال له عمر : « والله لا أحبك حتى تحب
الأرض الدم المراق عليا . . » .

وكان القاتل مسلما ثم ارتد ، وقتل أحب الناس لعمر . . ثم عاد
فأسلم ، فعادت إليه حقوقه كمواطن كاملة . . واستحال — بموجب
الدستور الإسلامى — على عمر أن يتخذ ضده أى إجراء . .

ويعرف الرجل حقوقه التى كفلها له الإسلام فيسأل أمير المؤمنين
ردا على قولته « والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المراق
عليها . . يسأله : « فهل يمنعنى ذلك حقا من حقوقى ؟ » .

ويجيب عمر : « لا والله ! » . .

فيرد القاتل : « فلا أبالى . . إنما يبكى على الحب النساء ! » .

* * *

العدل . . يموت !

وبعد أن ملاً الدنيا عدلاً . . لم يرض بالعدل الذي صنع . . فأعلن
عن برنامج خطير . . . لو عشت لأخذت فضول أموال الأغنياء
فرددتها على الفقراء . . ليس أحد أحق بهذا المال من أحد . . سألحق
أواخر الناس بأوائلها . . وليأتين المرأة في صنعاء نصيبها من هذا المال .
ولأطوفن بالامصار ، فأقيم بكل قطر شهرين . . فإني أعلم أن للناس
حوامج تقطع دوني ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلى ، وأما الناس فلا
يصلون إلى ،

وكان برنامجه أكبر مما يتيح التاريخ . . وأعظم من طاقة الأمة ،
فقد تبدل الناس غير الناس

سأل أحدهم على بن أبي طالب : لما اختلف الناس عليك ، ولم
يختلفوا على عمر ؟ . . فأجابه . . لأن عمر كان خليفة على مثلي ، وأنا خليفة
على مثلك . .

وكان حتماً أن يموت عمر . .

حاوره أولوثة غلام فارسي ملوك للمغيرة بن شعبة . . ولم يعجب

رأى عمر ، العبد الأسير . طالبه عمر أن يصنع رحي تدور بالريح كان
الغلام يزعم أنه قادر على صنعها ، فرد المملوك : لا صنع لك رحي
يتحدث بها المشرق والمغرب ، وفهم عمر التهديد فقال : توعدني
العبد . . .

ولم يقبض على العبد . . . ولا حقق معه . . . ولو حدث ، لعرف
الجواب على سؤال حائر حتى اليوم حول المؤامرة التي دبرت لقتل عمر
وكان أطرافها الفرس واليهود . . . ولربما نجح عمر من خنجر لؤلؤة . .
وكم كانت خساره البشرية فادحة بموت عمر . . . ولكن خسارتها كانت
ستكون أفدح ، لو أن الاسلام قبل أن يؤخذ الناس بالظنون ، أو أن
يعاقبوا قبل أن يذنبوا . . .

ونفذ العبد وعده . . . وقتل عمر . . .

وقبل أن يموت سأل عن قاتله فلما تاكد أنه ليس عربيا ولا مسلما
حمد الله وقال : ما كانت العرب لتقتلني . . الحمد لله ان يحاجيني
عند الله بسجدة سجدتها قط ! . . .

وقال لابنه استأذن من عائشة أن أدفن مع رسول الله . . ثم أعد
عليها الاستئذان بعد موتى ، فربما تأذن لى الآن لسلطاني . .
وبكت عائشة وقالت . والله كنت أريده لنفسى ، ولا وثرته به
اليوم على نفسى . . .

وأمر ابنه أن ينزله على الارض ويضع خده على الارض . لعل

الله ينظر إلى فيرحني .. ليت أُمِّي لم تلدني .. ليتني كنت نسيا منسيا !
ويلي إن لم يغفر الله لي ، . .

بسكاه الناس جميعاً .. وما زالوا يسكونه .. وقال ابن مسعود :
« كان حصنا للإسلام ، يدخل الناس فيه ولا يخرجون ، فلما مات
أنلّم الحصن ، فالناس يخرجون من الإسلام ، . .

وقال أبو طلحة « ما من أهل بيت إلا ودخل عليهم بقتل عمر
نقص في دينهم وفي دنياهم ، . . وبكى سعيد بن زيد قائلاً « على
الإسلام أبكى .. إن موت عمر ثلّم الإسلام ثلّة لا تسد إلى يوم
القيامة » .

وحملوا جثمانه فوقفوا به على باب عائشة وقال عبد الله بن عمر :
« يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، . . وردت عائشة :
« ادخل بسلام ، . .

ووضعوا رأسه عند كتفي أبي بكر ، كما كانوا قد وضعوا رأس
أبي بكر عند كتفي رسول الله . .

المسلمون والسياسة



من الذى يحكم المسلمين ؟

وكيف يحكم ؟

ومن الذى يختار الحاكم ؟

من هم أهل الحل والعقد .

أى من الذى يملك حق ترشيح الحاكم وانتخابه ..

وبعد أن يحكم .. من الذى يحاسبه .. وما مدى حق الشعب

فى محاكمته .. وهل يجوز عزله ؟

وهل يبيح الإسلام الثورة إذا ما استحال عزل الحاكم المنحرف

بالطرق الدستورية .. ؟

بل ومتى يفرض الإسلام الثورة فرضا ، ويعاقب المسلمين إن

سكتوا على الظلم ورضوا بانحراف المسؤولين ؟ ..

هذه القضايا كانت تبدو لدارسى العلوم السياسية ، وكأنها ولدت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولم يعرفها إلا الأوروبيون وأنها إن كانت قد وجدت على نحو ما ، ففي تاريخ الإغريق والرومان .

وساد الاعتقاد فترة أن المسلم الذى يفتش عن هذه القضايا في تاريخنا الإسلامى ، إنما يحاول أن يحمل النصوص مالا تطبق ، وأن يتعسف في تفسير الأحداث والمواقف التاريخية . . كمن يحاول أن يحدد القبلة الذرية في آية : « ومن يفعل مثقال ذرة . . . »

وقد نجح المبشرون والدجالون في تصوير الدولة الإسلامية بصورة تشبه الحكم الباباوى ، فالخليفة ظل الله على الأرض ، يحكم بموجب الحق الإلهى للملوك . . مستعينا بسيف المعز وذهبه والعصية القبلية فلا سياسة ولا قضايا سياسية . .

إلا أنه من المستحيل تصور استمرار الحضارة الإسلامية لاكثر من ألف سنة ، وهى تحكم العديد من الشعوب ، وتمثل حضارات

هذه الشعوب ، فتطورها وتثريها في تراثها الخالد ، ومن المستحيل أن تدور في داخلها كل هذه الخلافات ، وتسفك كل هذه الدماء . . دون أن ينعكس ذلك في شكل صراع سياسى . . ودون أن يفرز نظريات سياسية تبرر القتاتل وتسببه . . فهما تسكن قيمة الاسباب المادية لاختلاف الناس وتصارعهم فلا بد لهذا الخلاف من أن يعبر عن نفسه في صورة نظريات وآراء وأفكار ومبادئ . . وما دام الخلاف يدور حول السلطة ، وهدف القتال هو الوصول إلى هذه السلطة فهو خلاف سياسى ، وهى نظريات سياسية ، تفتصر دائماً النظرية الأقدر على شحذ سيوف أنصارها . .

فلما تعفف الهاشمى رضى الله عنه ، عن مباغاة جيش الخليفة ليلاً خوفاً من اراقة دماء المسلمين ، سأله قائد جنده دهشاً ، تريد الملك . . وتأتى القتل ؟! . . وكان أن قتل الهاشمى ، وبقي الملك لخصمه . .

لابد إذن أن المسلمين كانت لهم في دولتهم قضايا سياسية ، ولا بد أن حضارتهم قد طرحت فكراً سياسياً ونظريات سياسية تدور حول السلطة ، الحكومة والشعب . . والعلاقة بينهما . .

ومن هنا فقد نشط بعض الباحثين في السنين الأخيرة إلى البحث عن هذه النظريات . .

وحديثنا هنا يتناول كتابين :

نصوص الفكر السياسى الاسلامى ، وهو تجميع نصوص من

الفقه الاسلامى ، جمعها « يوسف ايبش » ، وأحدث هذه النصوص لا يقل عمره عن تسعمائة سنة ١ ، ومع ذلك فهي تعكس خصوصية الفكر الاسلامى وتفتحه بغير حد ، وإقدامه على المناقشة الحرة ؛ واحترام الدليل العقلى . .

والكتاب الثانى من تأليف الدكتور « ضياء الدين الرئيس » وهو النظريات السياسية الاسلامية ، يحلل فيه النصوص ؛ ويقدم - ربما لأول مرة - دراسة متكاملة عن النظريات السياسية فى الاسلام . . بعد أن ألح عليه سؤال ، طالما فكر فيه خلال دراسته لمادة العلوم السياسية فى أوروبا : « أين الفكر الاسلامى من هذا الانتاج الانسانى العام ، ألم يكن فى الاسلام مفكرون سياسيون ؟ ألم ينتج الاسلام تفكيراً سياسياً ؟

وعلى زماننا نحن الذين درسنا العلوم السياسية فى الجامعات المصرية ، كنا نجد فى كتب النظم السياسية فصلاً خجولاً عن الاسلام ، وهو فى الغالب منقول عن كتاب لمستشرق ، وما أكثر اجتهادات المستشرقين الخاطئة والمضللة . . ودائماً أبداً كان هذا الفصل يلغى من المقرر ولا يمتحن فيه الطلبة . . بينما تصدع الرؤوس بنظريات لوك وهوبز . . وغيرهما ممن لا يصلون إلى مرتبة تليذ فقيه من فقهاء المسلمين . .

ولقد تعودنا بتأثير الغزو الفسكرى ، أن ننظر إلى التاريخ وكأنه موظف فى بلاط الحضارة الغربية ، فالحضارة تبدأ بالاغريق . وتنتهى

بالامريكان .. أما حضارات آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية . فلا وجود لها ولا تأثير لها على التطور الحضارى للإنسان . . لأن الإنسان عندهم هو الإنسان الغربى وحده . . وبقية البشر هم مادة هذا الإنسان ووسيلته فى تشكيل الحضارة . . حتى ليصعب على الدارس الناشئ أن يتصور منشأ للعلوم إلا فى الغرب . . ويصعب أن يتصور وجود تيارات سياسية فى الفكر الإسلامى ..

ويمكن أن نقول أن الفكر السياسى ، بصفة عامة ، يلعب أحد دورين :

تبرير النظام القائم .. فلسفته وتنظيره والدفاع عنه .. أى خلق القاعدة الفكرية التى يستند إليها وجوده .. استنادا يقوم على الاقتناع الحر الواعى للجماهير ..

ولست هذه المهمة - دائما - بالمهمة المحافظة أو الرجعية . . بل هى فى مرحلة من المراحل تصبح مهمة تقدمية وثورية . . مادام النظام الذى تفلسفه وتدافع عنه ثوريا وتقدميا ..

● والمهمة الثانية للفكر السياسى ، هى الثورة على النظام القائم . . التشكيك فى شرعيته ، وإسقاط منطقته ، والدعوة للثورة عليه بتجريدته من الشرعية ، وعزله عن اقتناع الجماهير . . وأيضاً ليس هذا الدور دائما بالدور التقدمى أو الثورى . . فقد يكون رجعياً أو مخرباً . .

ويجب أن نعرف أن النظام السياسي ، لا يمكن تصوره قائما ومستقرا بغير استناد إلى قدر من الفكر السياسي يعطى انصاره مبررا ، ولو شكلي ، لدفاعهم عنه ، ويعطى الجماهير مبررا لتقبله ..

فهما تكن ديموية النظام ، فلا بد له من منطق .. ومهما تكن نوايا خصومه فلا بد لهم من منطق .. ذلك هو ما يسمى عادة بالفكر السياسي إذا ما جئنا إلى التبسيط الشديد ..

والفكر السياسي الاسلامي قد احتوى كل الآراء .. المحافظة والقدمية والفوضوية .. وتصارعت داخل إطار الحضارة الاسلامية كل هذه الآراء في فترة الازدهار ، في جو من حرية الفكر واحترام الرأي يصعب تصديقه .. حتى لم يكن القول أن الفكر الاسلامي ، لم يعرف ما يسمى بالارض الحرام أبداً ؛ بل ما كان المفكر الاسلامي يتحرج من مناقشة أى فرض ، أو تصور أى وضع ، أو طرح أية قضية للجدل والتجريح والطعن وصولاً إلى الحقيقة والافتتاح العقلي ..

ولا شك أن الفكر الإسلامى قد اكتسب خصوبة ونماء من خلال تعرفه بالفلسفات العالمية . ولكن قاعدة حرية التفكير والتشجيع عليه ، جزء من صميم العقيدة الاسلامية ، حتى أن المسلمين الأوائل يتحدثون رسول الله عن شك يجدونه في نفوسهم ، فيقول عليه الصلاة والسلام أنه محض الايمان .

وتأمل كيف أعلن الامام أبو الحسن الاشعري (٨٨٣ - ٩٤٢م) انشاقه عن المعتزلة ، ففيها صورة لما يجرى في دهايد بارك ، .. كما

تكشف القصة كيف كان المسجد ميدانا للصراع الفكرى والفلسفى ..

« كان أبو الحسن الأشعرى أول أمره معتزليا ، ولكنه سأل
أستاذه فى قضية تتعلق بمسئولية الانسان عن افعاله ، ولم يستطع أستاذه
أن يقدم له جوابا مقنعا .. وقرر الأشعرى الانشقاق .. فكيف
أعلن ذلك ؟

اعتلى مقعدا فى مسجد البصرة ونادى بأعلى صوته : « من عرفنى فقد
عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا فلان ابن فلان . كنت أقول بخلق
القرآن ، وإن الله لا تراه الأبصار ، وأن الأفعال الشر أنا أفعالها ، وأنا
قائب مقلع مقتعد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ، كاشف لمعايبهم ..
وكما هى العادة دائما كان « المراجع ، الأشعرى أو « التحريض »
كما يقال بلغة اليوم ، هو أشد خصوم المعتزلة « الحرفيين ، وأقواهم
حجة ضدهم ..

غير أن النصوص التى نعرضها تتوقف كثيرا عند هذه القضايا
الفلسفية ، البالغة فى الخطورة . والتى لو فكر عقل أوروبى بها سرا بعد
حادثة الأشعرى بخمسة قرون ، لمات ربعا من محاكم التفتيش .. ولكن
الأشعرى يعلنها بأعلى صوته فى مسجد البصرة .. ويقعد للنقاش فيها ..
ذلك أن الفكر الإسلامى ، لا يعترف بقيد عليه ، ولا يتخوف من
ارتداد المجهول مادام قد سلحنا الله بالعقل وهدانا بالوحى ..

لماذا النظريات ؟

ويرجع الدكتور الرئيس نشأة النظريات السياسية في الفكر الإسلامى إلى ثلاثة عوامل :

• أقام المسلمون نظاما سياسيا منذ أن استقر الاسلام بالمدينة ..
وهذه قضية لا نظن اننا بحاجة إلى جهد لإثباتها ، وقد مارست حكومة النبي في المدينة كافة الوظائف التى يطالب الناس بها الدولة الحديثة .. أو الدولة بصفة عامة منذ أن قامت الحكومات فى المجتمع البشرى ..

ولا شك أن القول بأن حكومة النبي كانت صفة عارضة أو ثانوية ، وأن رسالته كانت دينية بحتة بمعنى أنها تنظيم علاقة الانسان بالسماء ، قول ضعيف لا أساس له من التاريخ الإسلامى ، وهو قول غريب نبت غريبا وذوى غريبا .. فالمجتمع الإسلامى فى المدينة مارس حقوق السيادة ازاء القوى الخارجية ، فقاتلها ، وسالمها ، وعاهدها وأسفر إليها واستقبل سفاراتها ..

ومارس سلطات السيادة على أفرادها فى جميع شئونهم العقائدية والشخصية والمالية والقانونية ..

وحول هذه الدولة ، وفى اطار هذا النظام - كان لا بد من ظهور الفكر السياسى ..

• السبب الثانى لظهور الفكر السياسى أو النظريات السياسية فى الإسلام

هو حق الاجتهاد .. فقد أعترف به مصدراً من مصادر القانون الاسلامى وهو مبدأ انفراد لإسلام بتقريره لم يسبق إليه ، ولم يلحق فيه أيضاً إلا بعد مضى عهود طويلة بعد نحو الف عام .. أى فى مطلع عهد النهضة فى أوروبا حين بدأت حركة الإصلاح الدينى ونهض «لوثر» وأتباعه ينادون بحق الفرد فى فهم النصوص الماثورة ، وتكوين حكم لنفسه .

ووجه الخطورة فى هذا المبدأ الذى سنه الاسلام هو إقامة الصلة الدائمة بين تعاليم السماء وسلوك الانسان فى هذه الدنيا ، فإن مشاكل الحياة المتجددة والمتغيرة باستمرار ، ستضع الانسان أمام أحد أمرين :

- إما العجز عن استنباط حل لها ، لأنها لم ترد بحرفيتها فى النصوص ، أو لأن الحل الذى تقدمه الطائفة المتحكمة لتفسير النصوص الدينية ..
- وهى الكهنة .. تقدم حلولاً لا ترضى أهل العصر أو لا تحل مشاكلهم ..
- أو أن يقطع الانسان صلته بالنصوص ، ويقيم لنفسه منهجاً وتفكيراً منفصلاً عن الدين ، وعلى عدااء معه .. بل ويبدأ من نقض الدين .. وهو ما حدث فى الغرب .. بسبب احتسار الاكليروس لحق تفسير النصوص .. ومن طبيعة الحياة ، أن تتخطى حركتها طاقات أى فئة بعينها على التجدد ، فيتحتم أن تحل محلها باستمرار قوى جديدة ، فإن سد الطريق على هذه القوى - انفجر المجتمع أو تنفسخ ..

أما الإسلام فقد ألغى فكرة الاكليروس . وأباح حق تفسير النصوص لكل قادر عليه من أمة المسلمين ، فأتاح للفكر المتطور المتجدد ، أن يتابع ويلحق تطورات الحياة ، واحتياجات الناس . . واستحال بذلك تصور قيام تناقض لا يحل بين الدين والحياة ..

ولقد ذهب الاسلام في الحوض على التفكير ، واستنباط الرأى الذى يواجه كل ما يجد من جديد فى الحياة . . إلى حد الاثابة ولو على التفكير الخطأ . . فالحديث يقول : « للمجتهد ان أصاب أجران وأن أخطأ أجر » ،

وليس فى تاريخ الفكر مثل هذا الاغراء بالتفكير الحر .. فالخطأ ليس كفرا ولا انحرافا .. بل يثاب عليه المفكر أو المجتهد فما عذر المسلم إن قبل الغاء عقله أو اسقاط حقه فى التفكير ..

● والعامل الثالث الذى أدى إلى نشأة الفكر السياسى فى الاسلام .. هو تفويض الامة فى اختيار شكل الحكومة : فالإسلام قد رسم حدود الدين ، ونظم عبادة المسلمين وفى كثير من التفاصيل ، وأرسى القيم التى يقوم عليها سلوكهم ، ونظرهم للوجود وللانسان : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم المسلمين أدق تفاصيل السلوك . ولمكن إرادة الله شامت أن يتوفى رسوله دون أن يضع قاعدة أو نظاما ما للحكم .. وتلك هى معجزة الاسلام .. فلو حدد رسول الله شكل الخلافة لالتزم به المسلمون ، وأصبح التبديل فيه أو تغييره خروجاً على أوامر الدين ..

والاسلام صالح لكل زمان ومكان ، وتجربه التاريخ تثبت أنه لا يوجد في تاريخ البشر نظامان للحكم متطابقان تمام التطابق . فلكل مجتمع ظروفه وقوانينه ، ولكل عصر مقتضياته ومفاهيمه واحتياجاته .. فما يتنافى مع صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان ، وضع شكل جامد محدد لنظام الحكم .. ومن هنا كان اطلاق الاسلام حرية الاختيار للأمة ، لتصوغ وفق تعاليمه مقتضيات عصرها ، وما يتفق مع مصالحها وامكانياتها - الاشكال الدستورية التي تحدد نظام الحكم في مجتمعها ..

والذين عجزوا عن فهم هذه الحكمة في رد الأمر للأمة حاولوا أن يجدوا تفسيراً لها .. كيف وضع الاسلام قواعد محددة لادق تفاصيل الحياة .. ثم نراه يترك هذه القضية الهامة (كنظام الحكم) بدون تحديد ..

واجتهد المستشرقون في التفسير ، يقول الدكتور الرئيس « زعموا أن مرض الرسول الأخير قد حال بينه وبين ذلك ، ولم يسألوا أنفسهم وما الذي منع الرسول طوال السنين التي عاشها في المدينة قبل مرضه الأخير ، من أن يضع هذا النظام ويلزم الصحابة به ؟ »

ويزعم « ارنولد » أن النبي حرص على عدم مخالفة التقاليد العربية التي كانت تترك القبيلة حرة في اختيار رئيسها ! وينفى الدكتور الرئيس أن تكون هذه تقاليد عامة أو موحدة في القبائل ، كما ينفي خضوع الاسلام للتقاليد القبلية وهو الذي جاء يمجو التنظيم القبلي

والأحاديث الصحيحة عديدة عن وصف الرسول للخلافة من بعده وتنبؤه بتطورها ووصيته لمن يتولى أمور المسلمين ، ووصيته للمسلمين في سلوكهم مع الامام .. كل ذلك يؤكد أنه لا النبي ولا المسلمون كانوا غافلين عن هذه القضية ، وعن حتمية مواجهتها يوماً ما .. فهي لم تفاجئهم عند وفاة الرسول ، بل كانت معروفة ، وقد تركها رسول الله عن قصد .

ويخرج الدكتور الرئيس ، بأن الهدف كان مقصوداً ، والغاية كانت واضحة .. فترك الأمر بدون تحديد ، هو اعتراف بالرأى العام للجماعة ، أو كما نقول في تعبيرنا الحديث (إرادة الأمة) وقد تجلى ذلك واضحاً في اجتماع السقيفة ..

ولا نرى تعارضاً بين تفسير الدكتور ، بأن الأمر قد ترك تأكيدها لديموقراطية الحكم بأن رد الأمر لما تقرره الأمة ، وبين قولنا أنه قد ترك لسكى لا يوضع قيد على حركة التاريخ .. ذلك أن حركة التاريخ في مجموعها تعبر عن مصالح الأمة ، والجماعة دائماً هي خير من ينطق بأرادته التاريخ ..

ولعلنا لا نبالغ إن قلنا إن اجتماع السقيفة كان أخطر اجتماع عقد في التاريخ .. اجتماع كانت نتيجته وجود ٦٠٠ مليون مسلم .. وأكثر من أربعين دولة إسلامية في العالم ، ولا نظن أن اجتماعاً آخر قد أسفر عن مثل هذه النتيجة ..

وقد وضح في هذا الاجتماع حقيقتان أو مبدآن أساسيان في الفكر الإسلامي :

• إجماع قادة المسلمين الذين حضروه من المهاجرين والأنصار على ضرورة قيام حكم . . واختيار خليفة . . فلم يكن الأمر مفاجأة لهم ، بل كان قضية معروفة ومتفقاً عليها . . تؤكد فهمهم للمسئولية الدنيوية التي كان يضطلع بها رسول الله ، وضرورة أن يتحملها بعده مسئول من بينهم .

• أن من حقهم اكتشاف أسلوب اختيار الحاكم ، وأن نصاً بغير ذلك غير موجود . . وإلا لأعلن في الاجتماع وحسم الموقف . . والقول بغير ذلك ، إما يجعل هذا النص سرياً لا يعلمه كبار رجال الإسلام ممن حضر اجتماع السقيفة ، أو يشكك في صدق إسلامهم — أستغفر الله — فقد علموا النص وخالفوه جميعاً .

وقد دار اجتماع « السقيفة » على أعلى مستوى يمكن تخيله للديموقراطية والعمل السياسي . . مناقشة حادة ، تبودات فيها الألفاظ القاسية . . والتهديد بتحريك الشارع . . أو العصيان . . ثم مبارزة بالنصوص الدستورية ، وتقاليد الأمة . . والصالح العام . . والوحدة الوطنية . . وضرورات الأمن . . ثم اقتراح . . وتصويت . . فخنوع الاقلية للأغلبية .

وفي اجتماع السقيفة وضعت بذور الفكر السياسي الإسلامي ، وما تفرع عنه من نظريات ، فقد استقر رأى المجتمعين على أن اختيار

الخليفة أو الحاكم يكون بالبيعة .. أى بالانتخاب .

ومنذ اجتماع السقيفة حتى بيعة (يزيد) لم يطرح قط مبدأ الوراثة كوسيلة لانتقال السلطة ، ولقد ظل هذا المبدأ راسخاً في ضمير الإسلامى إلى القرن العشرين .

ورغم أن الخلافة أصبحت وراثية أو كما قال عبد الرحمن بن أبى بكر .. هرقلية .. كلما مات هرقل ، قام هرقل ..

وبالرغم من أن ممارسة الخلفاء والسلاطين والملوك المسلمين منذ معاوية إلى عبد الحميد عبر ١٢ قرناً كانت وفقاً لمبدأ وراثة العرش ..

إلا أن رسوخ رفض مبدأ الوراثة كان يجبر الخلفاء على أخذ البيعة لولى العهد .. فالحرص على شكلية الانتخاب كانت تمنع من ذلك المبدأ الذى استقر فى ضمير الأمة ولو أنها حرمت من تطبيقه بقوة الملك .. وضرورات الزمان والمكان .

وروعة الفكر الإسلامى ، تتجلى ، فى رفضه اقرار هذا المبدأ وإصراره على استنكاره ولو على الصعيد الفكرى البحت .. وفى هذا الموقف وحده ماينأى به عن مرتبة الفكر التبريرى .

يقول أبو يعلى الفراء [١٠٦٥ م] : « ولا تستحق الإمامة بالميراث لأن الإمامة تثبت بالاختيار ، وهذا يمنع أن تكون بالميراث .. ولأنها لو كانت تثبت بالإرث لوجب إذا مات الإمام وله ابن صغير أن يخلو ذلك العصر من إمام إلى أن يبلغ ذلك الصبى ، .

وهنا يقف المؤمنون بالتفسير الديني للتاريخ ليسجلوا نقطة تفوق لتفسيرهم .. فإن المذهب المادى فى تفسيره ، يقدم شواهد عديدة على تطور الفكر السياسى الغربى كانعكاس للتطور الاقتصادى فى المجتمع ، وتطور المصالح المتعارضة فيه ونموها :

فظهر نظريات حق الملوك الإلهى وتأييد سلطانهم المطلق وتأكيد شرعية مبدأ الوراثة ونظريات الولاء للملك كان مصاحبا للنمو الاقتصادى للبورجوازية (الرأسمالية) الوليدة وحاجتها إلى الدولة الموحدة ، وسلطة الملوك فى القضاء على التجزئة الإقليمية .. ويستحيل أن نجد فى هذه الفترة رأيا جادا يدعو إلى النظام الجمهورى أو يرفض مبدأ الوراثة للعرش انطلاقا من أسباب عقائدية أو افتناع عقلى .. ثم تظهر الدعوات إلى المجالس النيابية وحق من يدفع الضريبة فى أن يشرع القانون إلى جانب الملك .. مع نمو هذه الطبقة .. حتى نصل إلى الفكر الجمهورى وسقوط النظام الملكى باستكمال نمو البورجوازية وتطلعها إلى تصفية الإقطاع والملكية والامتيازات الموروثة .

ولكننا نجد الفكر الإسلامى ، أكبر من أن يكون مجرد أحلام المصالح والتطورات ، فهو منذ البداية واضح الملامح .. وهو فى جميع العصور ورغم استحالة إقرار نظام لانتقال السلطة غير الوراثة وتأكيد التجربة التاريخية لكل الحركات التى ثارت ضد المبدأ أنه هو وحده النظام الذى تنتهى إليه عندما تصل إلى السلطة ..

رغم ذلك فقد ظل الفكر الإسلامى محتفظاً بشموخه ورفضه لمبدأ

الوراثة . ولم يحاول أى مفكر إسلامى أن يجعله النظام الشرعى السليم
بل أقصى ما وصل إليه فى الواقعية هو قبوله تأمر لاسبيل إلى دفعه إلا
بجلب شر أكبر من شر قبوله .

كذلك لاندھب مذهب الحسن البصرى عندما يقول : « أفسد أمر
هذه الأمة اثنان : « عمرو بن العاص ، يوم أشار على « معاوية ، برفع
المصاحف ، و« المغيرة بن شعبه ، حين أشار على « معاوية ، بالبيعة
لليزيد . . . ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة ، .

لاندھب إلى هذا رأى . فإن قوانين الحياة كانت تحتم أن تصل الخلافة
إلى ما وصلت إليه ، فذلك النظام الذى وضعه المسلمون وأقاموه ثلاثين
عاما . . كان أكبر من طاقة البشر ، كانت فيه نفحة من نور النبوة . .
وما كان يقدر على إقامته وصيانيته إلا صحابة رسول الله ..

وربما كافى دوره فى التاريخ أن يكون حلماً للبشرية يؤكد لها دائماً
أنه من الممكن للجنس البشرى أن يقيم فوق الأرض مثل هذا النظام ..
فيدفعها إلى المحاولة .. ومن ثم التقدم .. أما أن تدركه ثانية .. فهيئات !

لما تغيرت الرعية ، أصبح من الضرورى أن يحكمهم نظام يتفق
ومستواهم .. ويشفع للمغيرة ومعاوية أن أشد خصومهما - أعنى الشيعة -
يباع عندهم الإمام لابنه .. أكثر من مرة .

الإمامة

وأول القضايا بل أهم قضية ناقشها الفكر الإسلامى هى (الإمامة) أى كيف تقام الحكومة .. كيف يعين رئيس الدولة ؟ .. أو بالتعبير الفقهى « أنص هى أم اختيار ؟ »

وبالطبع كانت الشيعة هى التى أثارت السؤال لتثبت أنها نص ، وأن الأمة ليس لها حق الاختيار ، فقد اختار لها الله ورسوله . . . ولكن رأى الآخر ، لم يقف عند حد رفض النص . . . فقد انقسم إلى عدة فرق ، وكذلك الشيعة ، انقسموا فى تحديد صيغة النص وطريقة انتقاله ، حتى وصلت الفرق إلى ٧٣ فرقة .

كان الخلاف بينهم يصل أحيانا إلى القتال ، بينما كان يتخذ فى بعض الأحيان روحا رياضية وتسامحا نادرا .

كان « الهيثم بن الرباب » من زعماء الخوارج ، وكان له أخ يدعى

على بن رباب من غلاة الشيعة ، وكانا يجتمعان في كل سنة ثلاثة أيام
يتناظران ثم يفرقان !

وكل هذه المذاهب والتيارات قد نسبت أصولها واستندت إلى
الكتاب والسنة . .

وجاء الإمام الشافعي ووضع مبدأ الإجماع .. وهو ما يمكن وصفه
بالمبدأ الدستوري الذي يتقرر من إقرار الأمة له .. استنادا للحديث
الشريف الذي يقول : « لا يجتمع أمي على باطل ،

فالحق مع الأمة أو مع الأغلبية دائماً . .

ولا عجب أن الفقيه الذي جعل هذا المبدأ مصدراً من مصادر
التشريع هو الذي اختاره المصريون لينبعضوا له بشكواهم وعرائضهم
ضد الأحكام وحتى ضد ظلمهم لأنفسهم . . فهو كما يزال ينادى في الدعاء
عند العامة المصريين : « قاضي الشريعة » .. هو الذي أعلن منذ أكثر
ألف سنة أن « الشعب لا يخطئ » ، وأن الشعب هو مصدر التشريع .

بل إنه باقرار مبدأ « الإجماع » أصبح هو وحده مصدر الشرعية
لأي حكم ، لأن القرآن والسنة لم يحددوا نظاماً معيناً للحكم وشكلاً
محدداً للحكومة .. فلم يبق إلا إجماع الأمة .. وهو ما وصل إليه
المستشرق « جب » عندما قال أن نظام الخلافة يستند كلية إلى مبدأ
الإجماع وحده .. وهكذا نرى أن أهل السنة ، بعكس ما توحيد
لفظة السنة من اتباع السلف ، والميل إلى المحافظة ، تراهم أكثر

الاتجاهات تعبيراً عن ديموقراطية الإسلام ، وإيمانه بان الأمة هي وحدها صاحبة الحق في اختيار ما تشاء من النظم ، وتنصيب من تراه أهلاً لهذا المنصب أو ذاك ، ابتداء من الحاكم العام أو الإمام أو الخليفة أمير المؤمنين .

ولا يعنى قولنا أن نظام الخلافة هو من ابتكار المسلمين أنه نظام غير إسلامي فما الذي يستحق هذه الصفة إن لم يكن النظام الذي وضعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي .. صحابة رسول الله ، من تأخذ عنهم ديننا وسنة نبينا .. غير أن المقصود هو نفي صفة القدسية عن الحاكم .

وقد استند الفكر الإسلامي (السنة والخوارج وفروعها) في نفى الوراثة كوسيلة لانتقال الإمامة أو السلطة إلى انعدام النص ، فإن وفاة الرسول دون أن يعهد بالخلافة لأحد قد أعطى الحق كاملاً للأمة في الاختيار ..

فالباقلائي (١٠١٣) يقول : « وإن سألت سائل فقال : ما الدليل على ما تذهبون إليه من أن الاختيار للأمة .. قيل له : الدليل على هذا أنه إذا اختفى النص صح الاختيار ، والذي يدل على إبطال النص ، أنه لو نص النبي على إمام بعينه وفرض طاعته على الأمة دون غيره وقال لهم : هذا خليفتي والإمام من بعدي ، فاسمعوا له وأطيعوا ، لكان لا يخلو أن يكون قال ذلك وفرضه بمحض من الصحابة أو الجمهور منهم ولوجب أن يقع لنا العلم ضرورة ،

فانتفاء النص أكد حقوق الأمة في الاختيار .. وانطلاقاً من هذا المبدأ رفض المفكرون الاسلاميون مبدأ وراثية الخلافة لأنه يلغى حق الأمة في الاختيار ..

وإن كان هذا لم يمنع من قيام تيار له قوته وشأنه يؤمن بمبدأ الوراثة ، استناداً إلى النص في اعتقاده ، غير أن هذا التيار لا يشكل المجرى الأساسى لحركة الفكر الإسلامى ، وإن كان يؤكد خصوصية وتنوع هذا الفكر واحتواءه لشتى التيارات السياسية ..

ويرى بعض المستشرقين تناقضاً ، أو قل نزعة توفيقية في اجتهادات الفقهاء في القرون المتأخرة من الحضارة الاسلامية ، إذ يرون في هذه الاجتهادات محاولة لمجاراة السلطة ، وإسباغ الشرعية على الامر الواقع ، الذى لا شك أنه كان يبتعد قليلاً أو كثيراً عن القيم والمبادئ الاسلامية في صدر الاسلام ، فيما يتعلق بصفات الحاكم وشروط توليته ، وطبيعة الحكم ..

وصحيح أن الفقهاء قد أفتوا بشرعية الطاعة للحاكم الظالم الفاجر .. ولكن ليس عن مبالاة للسلطة ولا لمجرد الافتاء بشرعيتها كسباً لرضاها ودفعاً لاذائها ، فالفقه الإسلامى لم يكن يفتقر أبداً إلى مواقف تعد ذروة في الشجاعة الأدبية ، والذود عن العقيدة ، ولا شك أن فقهاء يضرب ويسجن لأنه يرفض أن يتولى منصب القضاء مخافة أن يخطئ .. ما كان ليحجب عن الافتاء بخلع الخليفة إن رأى في ذلك صحة لإسلامه أو مصلحة المسلمين ..

كذلك من يتحمل التعذيب ، حتى لا يتقول على كلام الله إن كان مخلوقاً أولاً . . ما كان ليجب في قضية السلطة . .

غير أن الفقهاء كانوا ينطلقون من قاعدة إسلامية ، يضعون مصلحة الأمة الإسلامية نصب أعينهم عندما أفتوا بشرعية السلطة القائمة على القوة وحدها . .

روى عن الامام أحمد بن حنبل :

« ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين ، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه اماماً ، برا كان أو فاجراً . . »

وسئل في الامام يخرج عليه من يطلب الملك فيكون مع هذا قوم ومع هذا قوم ، قال : « تكون الجمة مع من غلب » ، واحتج بأن عبد الله ابن عمر « صلى بأهل المدينة في زمن الحيرة وقال : نحن مع من غلب » . ولعلنا ، بعكس ما يبدو من ظاهر النصوص ، نجد في هذا الفقه . . اقراراً بشرعية الثورة ، والوضع الذي ينشأ عنها . . غير أن الفكرة خلف هذه الفلسفة الواقعية كما يتضح من النصوص التي نستعرضها . . هي الحرص على وحدة الأمة أو الوحدة الوطنية إن صحت التسمية . . يرى عبد القادر البغدادى (١٠٢٨) أن الخلافة من « حق أفضل المرشحين » فإن عرض للأمة خوف فتنة من عقدها للأفضل جاز لهم عقدها للمفضول ..

ويجب أن ندرك أبعاد الافتاء بعدم شرعية الامام ، لنصل إلى

ادراك سليم لتحفظ الفقهاء في هذا الشأن .. لأن الافتاء بعدم شرعية الحاكم يسقط شرعية كل التصرفات القانونية في المجتمع، ويبطل عدداً من الفرائض الدينية ..

ولهذا أجاز الفقهاء قيام امامين إذا ما كان يفصل بينهما بحر مانع ، أى حاجز جغرافى يحول دون الاتصال .. وهذا يؤكد الصفة البشرية للخليفة ، فلو كان نائباً عن الله أو تتمم صفة روح ما .. لما جاز أن يمنع البحر أو الجبل امتداد ظل الله ، ولا جاز أن يتجزأ روح القدس ..

خليفة من ؟

وناقش المسلمون صفة هذا الحاكم .. أهو يحكم بموجب حق التفويض الالهى .. الذى استندت إليه الملكيات المستبدة فى الشرق القديم وأوربا الاقطاع ؟

ام يحكم بقوة التفويض الذى يمنحه له الشعب عند انتخابه ؟

هل هو خليفة الله .. أم خليفة المسلمين ، خليفة رسول الله ؟

لقد وردت فى الفكر السياسى الاسلامى فى العصور الاخيرة بعض التعبيرات التى تصف الخليفة بأنه خليفة الله ، أو حتى ظل الله على الارض ..

فالغزالى (١١١١ م) يصف الخليفة بأنه « خليفة الله على الخلق »

وقد رفض عثمان رضى الله عنه أن يخلع نفسه من الخلافة قائلاً :

« ما كنت لأخضع قيصا للبسنية الله »

ولو أن القاضي أبو يعلى الفراء : (٩٩٠ - ١٠٦٥) قد استدلل بهذه الحادثة على مفهوم عكسى فهو يقول : « فلو لم يكن من حقه أن يعتزل لما طلبوا منه ذلك »

ولكن الفكر السياسى الإسلامى فى مجموعه ، وبالذات فى عصوره الأولى ، حريص كل الحرص .. واضح كل الوضوح .. فى نفي فكرة الحق الإلهى ..

فالحكم وظيفه مدنية بحتة ، والحاكم لا تنقسمه أى صفة غير بشرية .. ولا يستند لآى سلطة إلا سلطة العقد الذى ينشأ بين الحاكمين والمحكومين عند توليه الحكم وفى حدود الدستور .. أى الشريعة .. وفى فجر الحضارة الإسلامية طرحت قضية لقب الحاكم .. أهو خليفة الله .. أم خليفة رسول الله ..

يقول أبو الحسن الماوردى (٩٧٥ / ١٠٥٨) : « ويسمى خليفة لأنه خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته ، فيجوز أن يقال يا خليفة رسول الله ، وعلى الإطلاق ، فيقال : الخليفة .. واختلفوا هل يجوز أن يقال يا خليفة الله ؟ فجوزه بعضهم لقيامه بحقوقه فى خلقه ، ولقوله تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات »

وامتنع جمهور العلماء (أى الأغلبية العظمى) عن جواز ذلك ، ونسبوا قائله إلى الفجور .. وقالوا إن « الخليفة » لمن يغيب أو يموت

والله لا يغيب ولا يموت .. وقد قيل لابي بكر الصديق : يا خليفة الله ،
فقال : لست بخليفة الله ، ولكن خليفة رسول الله ،

ومعروف أن المسلمين أرادوا تسمية عمر بن الخطاب « خليفة-
خليفة رسول الله » فاستثقل الأمر ، وفكر في المستقبل ، وكيف
سيحمل كل خليفة طابورا من خليفة خليفة .. بعدد الذين سبقوه ،
فاقترح أحدهم لقب أمير المؤمنين .. فكرمت الأمة نفسها بالايمان ..
إذكرمت الخليفة بالامارة !

وسمع عمر بن خطاب رجلا يقول له : يا خليفة الله ، فنهز قائلا :
خالف الله بك ، ..

وأهمية هذه القضية أنها تسقط عن الحاكم كل ادعاء بالعصمة
أو ارتفاع فوق مستوى البشر .. وبالتالي فكل أحكامه وقراراته
قابلة للمناقشة والتصويب والتخطئة .. لأن رسول الله وهو النبي
المعصوم يعلم المسلمين فيقول فيما لم ينزل به الوحي : « إنما أنا بشر مثلكم
أخطيء وأصيب »

فما من خليفة له يستطيع أن يدعى العصمة أو ينسب معارضة إلى
الكفر ، أو يفرض على الناس طاعته باعتباره « ظل الله على الأرض » ..
وهو الخطأ الذي يقع فيه كثير من المستشرقين عند ما يتحدثون عن
« بابا الاسلام »

وقد حرم الرسول طاعة ولي الأمر فيما خالف الدين أو ما فيه
ضرر بين ، أو لإضرار بالمسلمين ..

ومن هنا قرر المسلمون أن الحاكم غير معصوم ، ولا يشترط فيه العصمة من الخطأ ..

يقول الباقلاني (١٠١٣ م) :

« والخليفة في جميع ما يتولاه وكيل للأمة ونائب عنها ، وهي من ورائه في تسديده وتقويمه وإذكاره وتنبيهه ، وأخذ الحق منه إذا وجب عليه ، وخلعه والاستبدال به متى اقترب ما يوجب خلعه ، فليس يحتاج مع ذلك إلى أن يكون معصوما .. ويدل على هذا اعتراف الخلفاء الراشدين بأنهم غير معصومين ، وترك إنكار الأمة أو واحد منهم تولى الأمر مع اعترافهم بنفي العصمة عنهم ، هذا أبو بكر يقول : « أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم » وعمر يقول : « رحم الله أمراً أهدى إلينا عيوبنا » ، ولولا على لهلك عمر ، « ولولا معاذ لهلك عمر » ..

ويستدل الباقلاني من هذا على أن الخلفاء اعترفوا بامكانية بل ووقوعهم فعلاً في الخطأ .. وأن الأمة لم تفترض فيهم العصمة من الخطأ ولا ادعاها أحد منهم .. كما تستدل نحن على ارتباط الطاعة بالتزام الخليفة للدستور الذي يحكم بموجبه وهو تعاليم الدين ، وقبولهم مبدأ المحاسبة والتقويم بل والعزل عند الانحراف ..

وعبد الظاهر البغدادي « ١٠٣٨ » ، يقول :

« وأصحابنا مع أكثر الأمة .. إن العصمة من شروط النبوة

هو الرسالة ، وليست من شروط الامامة (الحكم) .. وإنما يشترط فيها عدالة ظاهرة ، فتى أقام في الظاهر على موافقة الشريعة كل أمره في الامامة منتظما .. ومتى زاغ عن ذلك كانت الأمة عيارا عليه في العدول به من خطئه إلى الصواب (أى رفض التشريعات والقوانين والقرارات التي يصدرها) أو في العدول عنه إلى غيره ..

إن انكار عصمة الحاكم هو قاعدة راسخة من قواعد الديمقراطية . فالنظم الملكية الاستبدادية تنطلق من نظرية الملك لا يخطئ . وبالتالي تنتفي الامكانية - ولو النظرية - لحق النقد أو النقد الذاتي ..

والحاكم في الإسلام هو مثل الأمة ينفذ إرادتها ، ويخضع لهذه الارادة .. فهي تحتاج لعبقريته بقدر ماتحتاج لديموقراطيته ، واحترامه لارادة الشعب .

وتعبير « وكيل » الأمة الذى يستخدمه فقهاء المسلمين .. تعبير دقيق لأن الوكيل ليس له ان يتصرف الا في حدود الوكالة التي يمنحها له الموكل .

والارتباط واضح بين انعدام «العصمة» وبين حق الأمة في محاسبة الحاكم وعزله .. بل ومحاكمته ..

وعمر بن الخطاب ينصح بقتل الحاكم المنحرف .. فيراجع طليحة : هلا قلت « يعزلوه » ! أى الاكتفاء بخلعه ، ولكن عمر رضى الله عنه يقول : « لا .. القتل أنكل لمن بعده »

أى فيه ردع وإرهاب للذى يتولى الحكم بعده ، فلا يكرر سيرته ..
والذى يشرع قتل الحاكم المنحرف ، هو حاكم فعلا .. وليس
بشائر أو فوضوى !

وفى هذه النصوص التى اختارها الدكتور يوسف آيبش من
اجتهادات ثمانية من علماء الإسلام . نجد الاجماع على حق الخلع ،
باستثناء الذين جعلوا الامامة وظيفة دينية .. وافترضوا العصمة فى
الامام ، ورأوا ان توليته تتم بموجب الحق الإلهى .. بحكم نسبه أو
تقمص روح فيه ..

وعلى أية حال فلأن هذا الخيار لم تنح له قط فرصة حكم جماعة
المسلمين ، فإن فلسفته لم تمارس سلطة شل ارادة الامه فى عزل الخليفة
يقدر ما كانت دعوة دائمة لرفض الظلم وخلع القائم بالامر ونقد
حكمهم والثورة عليهم ..

وقد رد الرازى ، على المتسائلين عن دور الإرادة الإلهية فى اختيار
الحاكم ، إذا ما تركنا الامر لاختيار الناس .. ألا يجوز أن يكون
اختيار الأمة شخصا معيناً ، يكشف عن كونه اختيار الله تعالى ..

وهو بذلك يردد الشعار الذى رفعته الثورات فى أوروبا بعد ألف
عام ! .. عندما قالت : إن إرادة الشعب من إرادة الله .. بل إن شيخنا
بعضى أبعد من ذلك .. فيجعل إرادة الله هى إرادة الشعب ، ويجعلنا
تعترف على إرادة الله من إرادة الشعب ..

وهذا هو الأصل في رأى رفاة رافع الطهطاوى عندما قال : فإن
كون الملك ملكا باختيار رعيته له لا ينافي كون هذا صدر من الله
تعالى على سبيل التفضل والإحسان .

واضح أن « رفاة » ينطلق من مفهوم الرازى وينطلق الجميع من
الفهم الإسلامى للقدر ، ذلك الفهم الرائع الذى عبر عنه عمر بن الخطاب
بقوله لأبي عبيدة .. أن من يطلق لبله في الأرض الخصبة يفعل ذلك
بقضاء الله ، ومن يسيء اختيار المرعى يفعل ذلك بقضاء الله .. !

ولكن الدجال يعلق على كلمة الطهطاوى بقوله : « واهل هذا أبلغ
درس يمكن أن يقدم للمصريين عن نظرية الحق الإلهى والحق الطبيعى
في الفلسفة السياسية والاجتماعية » .

وكما رأينا لا وجود لما يسمى بالحق الإلهى في الفكر الإسلامى
أو فى المجرى الأساسى لهذا الفكر .. أو فيما طبق فى نظام الحكم
الإسلامى ، وشكل تاريخه العام ..

بل إن عبارة الرازى أكثر تقدما من عبارة الطهطاوى ، وهذا
طبيعى ، فقد كنا أكثر ازدهارا فى عصر الرازى منا فى عصر
الطهطاوى ..

قانون حضارى

ويقول « الدكتور الرئيس » ، إن المسلمين كانوا حريصين على اختيار لقب للحاكم يميز بينهم وبين النظم الرجعية المحيطة بهم ، هذه النظم التي كانت مؤسسة على القوة ، وتسير بسياسة القهر والغلبة والجبروت ، وغايتها استعباد الشعوب أو استغلالها من أجل خدمة مصالح الحكام من أفراد أو طبقات ..

وكان المثлан البارزان لامثال تلك الحكومات هما دولتا « الأكايرة » فى الشرق ، و « القياصرة » فى الغرب .. ولذا فإن هذا النوع من نظم الحكم عرف عند المسلمين فى ذلك العصر بأنه « الكسروية » و « القيصرية » وكان يقال له أيضاً : « الملك العضوض » ويراد به هذا النوع من الحكم الاستبدادى القائم على الوراثة ، والمستند الى القوة وإذلال الأمة .

فكان الملك فى الصورة مبغضا الى الأمة الاسلامية الناشئة .. وكانوا يدركون أن الخلافة التى جاء بها الاسلام كانت نظاما جديدا مغايرا لكل المغايرة لنظم الامبراطورية أو الملكية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت .

وهذه الحقيقة ، هي أحد قوانين نشوء وانهيار الحضارات . .
فما من دولة ناشئة استطاعت أن تبني حضارة جديدة وتعيد تشكيل
التاريخ ، إذا ما بدأت بالاعجاب بالحضارات السابقة المنافسة لها . .

إن هذه التبعية الروحية التي تبدأ بالاعجاب ومحاولة نقل
حضارات الآخرين . . والرضا كل الرضا بالانتساب إليهم . . هذه
التبعية ، لا تخلق حافزا للتفوق ، ولا تمكن المجتمع الناشئ الذي هو
بالحتمية أقل تقدما وأكثر بدائية ، لا تمكنه من التفوق على الحضارات
القديمة ، العربية ، وهزيمتها .

لذلك فعندما ظهرت الحضارة الإسلامية ، مع الفارق الشاسع بين
التخلف المادي للمجتمع العربي وتقدم المجتمعين الروماني والفارسي . .
كان عامل النصر للعرب هو العقيدة الإسلامية ، التي — نمت ضمن
ما نمت — احساس التفوق عند العربي ، احساسه بأنه سيشتيد نظاما أفضل
وأسمى من النظم القائمة والتي يحاربها . .

ولنتخيل ما الذي كان يمكن أن يحققه العرب ، لو أن كل أمانهم
قد انحصرت في إقامة مجتمع متحضر على مثال المجتمع الرومي أو الفارسي؟
ربما كان الأمر قد انتهى إلى محمية رومية أو فارسية ! . .

فالبداية السليمة لكل حضارة تريد أن تنتزع مكانها تحت الشمس ،
هي رفض الحضارات المعاصرة ، والإيمان بأنها ستمنح الإنسان نظاما

(١) راجع كتابنا : « القومية والغزو الفكري »

أوقيا أفضل، سمي .. حتى لو اضطرتها قوانين المجتمع وأحكام الواقع،
لإقامة نظام فيه الكثير من النظم المعاصرة ..

ولقد أقام المسلمون خلال السنوات الحاسمة التي اصطدموا فيها
بالحضارات المحيطة وبنوا دولتهم، وقضوا نهائيا ولعدة قرون على
الخطر الخارجي .. أقاموا نظاما جديدا مختلفا كل الاختلاف عن
النظم التي عرفتها البشرية .. نظاما تحول في النهاية إلى ما يفوق قدرات
الامة ويتخطى إمكانيات العصر .. ولعلها المرة الأولى في التاريخ التي
أصبح فيها النظام أكبر من الناس ..

وينقل الدكتور الرئيس عن ابن خلدون تحليله لتحويل الخلافة إلى
الملك، بفعل القوانين الاجتماعية، ولكنه كان ملصقا يهدف إلى الحق
لا إلى الباطل .. وتطورت النظم إلى أن أصبح « ملصقا عضوا » كما
تنبأ الرسول . ويربط ابن خلدون بين ضياع رسم الخلافة، وذهاب
عصية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقي الأمر ملصقا بجنا
كما كان الشأن في ملوك العجم بالمشرق ..

وهذا يؤكد اعتزاز ابن خلدون بالعرب، وإدراكه أنه نظام يحمل
الطابع العربي .

وهنا لا نقر « الدكتور الرئيس » على نقده للدكتور طه حسين .
عندما وصف الخلافة بأنها نظام عربي إسلامي خالص لم يسبق العرب
إليه ولم يقلدوا بعد ذلك فيه .. فإننا نعتقد أن هذه الجملة أدق تعبير .
وأن طريقة النفي التي ذهب إليها طه حسين، ورغم اعتراض الدكتور

الرئيس ، هي الطريقة الوحيدة الممكنة لتحديد طبيعة هذا النظام الفريد
والرائع الذي أقامه الخلفاء الراشدون والذي لا مثيل له فيما سبق
ولا ما لحق ..

ولا شك أنه بقدر ما كان نظام الخلافة هو التجسيد الدقيق لفكر
الإسلام وقيمه ومثله ، فلا شك أنه قد حمل ملامح الشخصية العربية
والتراث العربي .. كما يتشكل الماء بشكل الاناء دون أن يتغير
جوهره ..

أهل الحل والعقد

وينطلق الفكر الإسلامى فيبحث فى من لهم حق الترشيح لمنصب
الخلافة .. أو الشروط الواجب توفرها فى المرشح لهذا المنصب ..
ومن الذى يرشحه ..

وهنا نرى الفكر السياسى الإسلامى يصل إلى الذروة فى الخصوبة
والتنوع .. من الذين حصروا الحكم فى قبيلة واحدة لها وحدها حق
الترشيح لهذا المنصب ..

فزعم السكعي أن القرشى أولى بها من الذى يصلح لها من غير قبيلة
قريش ..

ثم تطور البعض إلى حصرها فى عائلة واحدة .. بل ونسل
شخص بعينه ..

إلى الذين روجوا لآراء فوضوية ، نفت الحاجة إلى حكومة على
الاطلاق .. وكان هذا رأيا قويا إلى درجة أن المؤلفين فى النظريات

السياسية من فقهاء المسلمين ، كانوا يبدأون بمناقشة الذين ينكرون الحاجة إلى الحكومة . . ويخبرنا « عبد القادر البغدادى » (١٠٢٨ م) أن ابا بكر الاصم : رأى أن « الناس لو كفوا عن التظالم لاستغنوا عن الامام » .

وقد رد عليهم الفقهاء بأن الاضرار التى تترتب على انعدام الحكومة هى الفوضى ، والتقاتل ، وسفك الدماء ، وضياع الحقوق ، وعدم الدفاع عن الإسلام ، وابطال الجهاد ، وفقد أوطان الإسلام ، ووقوعها فريسة في يد الاعداء

فهو لم يرفض مناقشة هذا الرأى بحجة أن الدين يأمر بذلك ، أو أن أوائل المسلمين فعلوا ذلك فلزم الاتباع . . بل ناقشه بالحجة والمنطق محددا وظائف الدولة الحارسة كما عرفها الفكر الأوروبى بعد ذلك بأكثر من ألف سنة . . الأمن ، والقضاء ، والدفاع الخارجى . .

ونفى « هشام القوطى » شرعية الحكومة فى فترة الثورة . . وأنكر الخوارج حق قریش فى الاستئثار بحق الترشيح لمنصب رئيس الدولة فزعموا « أن الامامة صالحة فى كل صنف من الناس ، وإنما هى للصالح الذى يحسن القيام بها . . ولهذا بايعوا « نافع بن الأزرق » ثم لقطرى ابن الفجاءة ولنجدة وعطية وليس أحدهم قرشياً

ويتطرق بعضهم فى رفضه للارستوقراطية ، وتخوفه من احتكار الحكم فى قبيلة بعينها ، فيضع الضمانات ضد مرشحها :

فقال ضرار : « إذا استوى الحال فى القرشى والاعجمى . .

فالأعجمي أولى بها .. والمولى أولى بها من الصميم .. ، ويقدم تفسيراً غاية في الذكاء ، فالثاني يسهل خلعه إذا انحرف .. لأن شوكنه أو عصييته أضعف .. تماماً كالضمانات التي يطالب بها اليساريون اليوم ضد مرشحي الطبقات القوية النفوذ أو المال ..

وهذا الخلاف حول الشروط المطوبة في المرشح للإمامة ، لا يعني أن ننفي الإسلامية، عن بعضها ، ولا يعني تطبيق المسلمين لأحد الآراء تكفيراً للآراء الأخرى ، فكلها تيارات تنبع من جوهر الفكر الإسلامي ، وكما قلنا فإن تنوعها وتعددتها يعكس قابلية هذا الفكر للتجدد .. وقدرته على الملاءمة بين المثل والواقع .. أو بين آمال الناس وقدراتهم على تحقيق هذه الآمال .

ونافش الفكر الإسلامي قضية : من هم الذين يملكون حق ترشيح الخليفة .. أو بالتعبير الإسلامي الشائع : « أهل الحل والعقد » الذين لهم حق ترشيح الحاكم وليس تنصيبه .

ومن الثابت أن المسلمين قد جربوا خلال الثلاثين عاماً التي تلت وفاة الرسول كافة الأشكال الممكنة لترشيح الحاكم .. من اختيار النخبة أو الطليعة ، إلى ترشيح الحاكم القائم لخليفته .. إلى الانتخاب من بين عدد محدود .. إلى ترشيح الجماهير للخليفة وفرضها مرشحها بقوة الشارع ..

إلا أن الفكر الإسلامي في جوهره يؤكد حق الأمة في الانتخاب،

فأهل الحل والعقد، أو النخبة التي تتولى الترشيح ، هي القيادة السياسية للمجتمع.. لنقل انها الحزب الشيوعي مثلاً الذي يرشح رئيس الحكومة. أو هم أعضاء الحزب الجمهورى أو الديموقراطى الذين يختارون المرشح لرئاسة الولايات المتحدة ، أو أعضاء مجلس الأمة يرشحون رئيس الجمهورية للاستفتاء الشعبى ..

فهى القيادة السياسية للمجتمع التى تملك ترشيح الحاكم وليس تنصيبه ، فهى القيادة التى بوسعها أن تحقق الوحدة الوطنية ، ويفترض أنها القادرة على إقناع الجماهير .. وهى قيادة سياسية ، بمعنى أنها تتغير بتغير توازن القوى السياسية والاجتماعية فى المجتمع ..

يقول أبو يعلى الفراء (١٠٦٥) :

« أما أهل الاختيار فيعتبر فيهم ثلاثة شروط : أحدها العدالة ، والثانى العلم ، الذى يتوصل به إلى معرفة من لإمامة يستحق ، والثالث أن يكون من أهل رأى والتدبير المؤدين إلى اختيار من هو للإمامة أصلاح .

وليس لمن كان فى بلده ميزة على غيره من أهل البلاد يتقدم بها ، وإنما صار من يختص ببلد الامام متولياً لعقد الامامة لسبق علمه بموته ، ولأن من يصلح للإمامة فى الغالب موجودون فى بلده « (أى مقرر الحكم)

كيف نعجز عن رؤية هذا النضج فى التفكير السياسى .. ليس

لبلد ولا لعصبية مميزة .. ولكن ضرورات الأمن والسياسة تحتم أن يبادر أول من يبلغهم النبأ بإجراءات تأمين الانتقال السلمي للسلطة .. وملاحظة ذكية تلك التي تعتبر أن أصلح المرشحين يوجدون في العاصمة مركز النشاط السياسي ، فليس افتئاتا ولا استئثارا أن يكون المرشح دائما من المدينة وقت وفاة الخليفة ؛ لأن طبيعة العمل السياسي تقتضى وجود القيادات السياسية - غالباً - حيث يكون مقر الحكم .

يقول القراء :

« فإذا اجتمع أهل الحل والعقد على الاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجود فيهم شروطها فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلا ، وأكملهم شروطا ، .

والإمام الغزالي صريح في تفسير معنى أهل الحل والعقد ، وتوضيح الأهمية السياسية لترشيحاتهم باعتبارهم يمثلون الرأي العام ويعبرون عن إرادة الجماهير وبذلك يحققون الوحدة الوطنية .. فإذا فقدوا هذه الصفة فلا يؤيد ترشيحهم حتى ولو كان ترشيح عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبي بكر الصديق !

فالإمام الغزالي يقول : « يكتفى بشخص واحد يعقد البيعة للإمام إذا كان ذلك الواحد مطاعا ذا شوكة لا تقال .. وإذا كان إذا مال إلى جانب ، مال بسببه الجماهير إلى هذا الجانب .. ولم يخالفه إلا من لا يكثر بمخالفته ، .

فالشخص الواحد المتبوع المطاع الموصوف بهذه الصفة إذا بايع

كفى ، إذ في موافقته موافقة الجماهير .. فإذا لم يحصل هذا الغرض
الاشخصين أو ثلاثة فلا بد من اتفاقهم ، وليس المقصود أعيان المبايعين ..
ونحن لا نقول لما بايع عمر أبا بكر رضى الله عنهما ، انعقدت الامامة
له بمجرد بيعته .. ولو لم يبايعه غير عمر وبقي كافة الخلق مخالفين ،
أو انقسموا انقساماً متكافئاً لا يتميز فيه غالب من مغلوب لما انعقدت
الامامة . .

فاشترط تعبير « أهل الحل والعقد » ، عن ، إرادة الجماهير واضح
لا يحتمل التأويل . وكما أن هذا التعبير كان ينطبق على مجموعة من زعماء
المسلمين ، فإنه يمكن أن ينطبق اليوم على جهاز أو تنظيم أو مؤسسة
بعضها ما دامت تمثل إرادة الجماهير وتسيطر على اتجاهاتها ..

وأكد أبو بكر رضى الله عنه حق الجماهير في رفض ترشيح أهل
الحل والعقد منذ اللحظة التي تم فيها اختيار حاكم لأول مرة في تاريخ
المسلمين ..

فعندما رشحه أهل الحل والعقد في السقيفة خرج إلى المسلمين ..
فقال :

« يا أيها الناس ، قد أقبلكم ببيعتي (أى أتنازل عن الترشيح) هل
من كاره . . »

فجاءته الموافقة بالاجماع ..

فالامة لها حق الانتخاب وحق المحاسبة .. يقول أبو بكر : « لقد

وليتموني أمركم ولست بخيركم فإن استقامت فأعينوني .. وإن رأيتم
في أعوجاجا فقوموني ..

فيعده أحدهم بأن يقوم أعوجاجه بالسيف ..

هذا هو أول خطاب عرش معروف في تاريخ العالم .. يطلب
رئيس الدولة مراقبة الرعية لسلوكه ، ومعاونته في السياسة الصالحة ، ثم
تقويمه في السياسة المنحرفة أو الخاطئة ..

فتؤكد له الرعية أنها تواجه الانحراف بالسيف .. لا بالوعظ
والشكوى ..

ويوافق رئيس الدولة بل يحمد الله أن جعل في أمة محمد من يقوم
الانحراف بالسيف ..

وقد أكد عمر حتى الأمة المطلق في قرار هذا الترشيح أو رفضه
بقوله : « من بايع رجلا عن غير مشورة من المسلمين ، فإنه لا بيعه
له ، ونصح بقتله هو ومن بايعه ..

فالعصية التي تحدث عنها ابن خلدون ، هي القوة التي تستطيع فرض
الوحدة الوطنية بفرض مرشحها ، والفرض لا يكون بعصا الغلب
وحدها ، بل لا بد له من عصا الاقتناع والرضا ..

ومن هنا فإن انتقاد « الدكتور الرئيس » للنظرية العصبية عند ابن
خلدون ، غير واضح الأسباب .. ولا نذهب نحن مذهبه ..

لأن العصبية قد تكون في مرحلة معينة - القوة العسكرية ، أو النفوذ

القبلي ، أو العائلي ، وقد تكون في مرحلة أخرى القوة الاقتصادية ،
أو السياسية والاجتماعية ، التي تشكل الأغلبية والقيادة السياسية
للمجتمع ..

فابن خلدون كان عبقرى في اكتشاف قانون العصية ، وما زال
قانونه صالحا لتفسير قضية السلطة .. إنه يحتوى على نظرية ديكتاتورية الأغلبية
أو ديكتاتورية الشعب ..

وهو قد ارتفع به إلى المستوى السياسى .. فلم يعد قضية دم أزرق
أو حق مقدس لقبيلة بعينها لأن النبي منها ، بل لأن لها الزعامة السياسية
وهي تكفل وحده الأمة .. فلما فقدت هذه الصفة ، انتقلت العصية
إلى القوى الجديدة .

حق العزل

والأمة التي تملك أن تعين الخليفة ، تملك أن تعزله . وإقرار مبدأ العزل في الفكر الإسلامي ، ينفي كل صفة لا هوية عن شاغل المنصب فهو موظف عام يقوم بمهام دينية وسياسية . هو رئيس دولة . . . وحاكم زمني . . . يختار بإرادة الأمة ، ويستمر في السلطة برضاها ، ولها حق عزله فيعود فردا كما كان ، أو تحاكمه وتوقع عليه ما شئت من العقوبات . . . الأمر الذي ينفي تماما أنه « بابا الاسلام » . . . فهو يعزل ويعدم وينصب غيره وهو حي . . . بل ويمكن كما نرى أن يوجد أكثر من امام في وقت واحد :

يقول القاضي أبو بكر الباقلاني (١٠١٣) :

فإن قال قائل : « وما الذي يوجب خلع الإمام عندكم ؟ قيل له :
يوجب ذلك أمور ، منها :

● كفر بعد إيمان

● ترك إقامة الصلاة والدعاء إلى ذلك .

● ومنها عند كثير من الناس ، فسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب
البشار وتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود .

● وما يوجب خلع الإمام تطابق الجنون عليه وذهاب تمييزه

● وكذلك إذا عرض له أمر يقطع عن النظر في مصالح
المسلمين والنهوض بما نصب لأجله أو عن بعضه ، لأنه إنما أقيم لهذه
الأمور ، فإذا عطل وجب خلعها ونصب غيره .

● وكذلك إذا حصل مأسوراً في يد العدو إلى مدة يخاف معها
الضرر الداخل على الأمة ، ويئس من خلاصه . . وجب الاستبدال به ،

والباقلاني عندما يدين قتلة عثمان رضى الله عنه بعرض آراء يمكن
أن توصف بغير تخرج بأنها قحة في الديمقراطية والثورية . . بالرغم
من أنه لا يمكن وصف الباقلاني بالتطرف . . أو نسبته للمذاهب
الشاذة كالخوارج مثلاً . . فهو من أئمة السنة . .

وهو يحلل حادثة قتل عثمان رضى الله عنه فيقول :

• على أنه لو ثبت عليه أمر يستحق به خلع الطاعة ويجب به زوال
العدالة . . لم يكن ذلك مبيحاً لقتله على ذلك الوجه ، لأنه لم يحم داراً

وَيُمنَع على المسلمين . . ولا نصب حرباً بينه وبين أمن سائر إليه . فقد
كان يجب عليهم القبض عليه لما أخذوه وتمكنوا من داره وحريره
أو حبسه وإبعاده . . أو أخذه بغاية الإرهاب بخلع نفسه لو كان مستحقاً
للخلع . . فأما أن يقاتل على ذلك الوجه وهو غير ناصب للحرب فضلال
وظلم لا محالة . .

لا أظن أن قانونياً أو ثورياً يستطيع أن يضيف إلى ذلك سطرأ
أو أن يعارض منه حرفاً . .

فالخليفة إذا انحرف جاز إلقاء القبض عليه ، ومحاكمته ، وإجباره
على الاستقالة أو خلعهِ . . فإذا احتمى ورفض النزول على إرادة
القانون . . حق قتاله حتى يلقى القبض عليه . .

ولكن ما دام لم يستخدم القوة ، ولم يمتنع على المعارضة - فن حقه
أن يظفر بالمحاكمة القانونية التي تباح لأي متهم .

وفي كل دساتير العالم الحديث توضع بنود خاصة تنظم محاكمة
رئيس الدولة ، وتجعل لسلطة بعينها حق توجيه الاتهام له . .

وقد أجمع الفقهاء على أن الأمة هي مصدر السلطات ، وقيام الخليفة
لا يسلبها هذا الحق ، واستقر الرأي على جواز استقالة الخليفة
أو عزله . .

وذهب « ضرار » من المعتزلة إلى أنه إذا تساوى حبشى وقرشى في
الصفات المطلوبة للحاكم وجب اختيار الحبشى لأنه يسهل خلعهُ
إذا انحرف . .

والأمة مسئولة عن انحراف الحاكم، يقول رسول الله .. « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه ، »

وقوله : « ما أقر قوم المنكر بين أظهرهم إلا عهم الله بعذاب محتضر ، »

ويستخلص « الدكتور الرئيس ، من ذلك ضرورة قيام هيئة لها الرقابة على الحاكمين ، أي « برلمان » .

ولاشك أن أمة يعاقبها الله ، إذا ما جفت عن الثورة على انحراف المسئولين ، لاشك أنها أمة يفترض فيها الحرية والمسئولية ، وأنها هي وحدها المصدر الوحيد للشرعية .

والحاكم مطالب بأن يقيم حكمه على الشورى ، والرازي رحمه الله يقف على معنى من أجمل المعاني في نزول آية الشورى « وشاورهم في الأمر » .. فهذه الآية قد نزلت عقب غزوة أحد ، ونزولها بالذات عقب هذه الغزوة يؤكد حرص الإسلام على الديمقراطية وكرهيته للاستبداد بالرأى . ففي هذه الغزوة بالذات كان رأى المسلمين خلاف رأى الرسول ، فقد أصروا على الخروج بينما كان رأية التحصن بالمدينة .. وكانت هزيمة .. ومثل هذا الحدث قد يعطى مبررا لاي حاكم مستبد عبر التاريخ ، لكي يرفض رأى العامة لانه خاطيء .. ومنعا لذلك نزلت آية الشورى ، وفي أعقاب غزوة أحد بالذات ، لتقطع الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى أمة ، أو الافتئات على حقوقها ..

حكومة المسلمين

ويشير الدكتور الرئيس سؤالاً هاماً لعله كان محور الجدل في مطلع هذا القرن . . وهو مدى التزام المسلمين بإقامة « الحكم الإسلامي » ومهما تكن أدلة النقاش ، فلا شك أن الرأي الذي كان ينادى بضرورة قيام الحكم الإسلامي عندما كانت السلطة في يد الاحتلال الفرنسي والاطال والانجليزى والهولندى والبلجيكي في الوطن الإسلامى ، لا شك أن هذا الرأي كان هو الرأي الثورى . . والفلسفة التى تعطى ثورة التحرير دافعا قويا . . وتربطها بحركة الجماهير وإيمانها . . إنها على الأقل كانت ترفض الحكم الاستعمارى . . غير الإسلامى . . وتحرض الجماهير ضده . .

بينما كانت الآراء المعارضة تشكل لونا من قبول السلطة الأجنبية الاستعمارية .

فإذا أضفنا إلى ذلك أنه ما من شكل معين لنظام الحكم قد

فرض علينا .. الأمر الذى لو كان لحدد بشئ تطورنا ، وهو
ملا خوف منه ، لأن الصحابة - كما رأينا - أقاموا خلال ٣٠ عاما كافة
الاشكال المتصورة لقيام السلطة وانتقالها ، ومارسوا حق نقد السلطة
والثورة عليها .

فلم تكن الدعوة إلى الحكومة الإسلامية ، خلال سنوات
الاحتلال الأجنبي ، تعنى الدعوة إلى قيام شكل بعينه من نظم الحكم ..
إنما كانت تعنى أولا وقبل كل شئ إسقاط السلطة الاستعمارية ، ورفض
حكمها غير الإسلامى ..

ومن المؤكد أن المسلمين فى الهند واندونيسيا وأفريقيا كانوا على
رأس القوى المقاومة للغزو الاستعمارى الأوروبى ..

وهكذا نرى أى زيف قد فرض علينا ، عندما صور أعداء
« الحكم الإسلامى » بصورة التقدميين الثوريين ، بينما كانوا
فى الحقيقة يعطون المبرر أو الشرعية للحكم الأجنبى .. فها دام المسلمون
غير ملزمين بإقامة حكم إسلامى ، ولا يلزم أن يحكمهم مسلم - فلا
عليهم إن حكمهم كرومر أو جرازبانى

وكم فى تاريخنا من زيف .. وأكاذيب ..

محمد رسول الله

هذا كتاب أحببت أن أعرفك به ، وأن نطوف صفحاته معا ..
مؤلفه لا يحاول أن يعلمنا كما يفعل مكسيم رودنسون ، بل يحاول أن
يفهم ، ويحاول أن يفهم مواطنيه من أبناء الحضارة الغربية ..

ومؤلفه « ألفونس ايتين دينيه » هو ابن للحضارة الغربية ، أتاحت
له فرصة التأمل ودراسة الدين الإسلامى ، فاكتشف أى زيف وروجه
الاقلام الصليبية خلال قرون المواجهة بين الغرب والشرق الاسلامى ..
وعرف أن ما لقنوه له عن موضوعية النظرة الغربية ، ليس إلا
خداعا سرعان ما يتخلون عنه إذا ما كان البحث يتعلق بالاسلام ،
خصمهم الحضارى ..

و « ألفونس ايتين دينيه » ولد فى باريس ١٨٦١ فى قمة ازدهار
الحضارة الغربية ، وتألق النظام الرأسمالى وتوفى فى ١٩٢٩ ، فى العام
الذى بدأ وجه هذا النظام فيه كالحا كئيبا عام الازمة الاقتصادية الطاحنة
التي ألقت بالحضارة الغربية إلى الديكتاتورية .. ديكتاتورية اليمين
الفاشية ، وديكتاتورية اليسار الشيوعية ..

وقد عاش دينيه فترة تألق الحضاره الغربيه وسيطرتها المطلقة على
مصير الدنيا ، عندما كان يبدو خلود هذه السيطرة ، واستحالة مقاومتها
فضلا عن هزيمتها ، ومن هنا فقد بدد رحمه الله وغفر له ، الكثير من
وقته وجهده في التشفع لنا عند سادة الدنيا الغربيين ، ولإثبات حسن
نوايا الشرق واستحقاقه نظرة عطف من الوصى الجاحد القاسى
القلب ..

وهو من كبار المصورين الذين تحتفظ المتاحف الكبرى بلوحاتهم
وقد تخصص في رسم الشرق والانسان العربى . ولعله من خلال محاولته
فهم الإنسان العربى عرف الاسلام فأمن به وأسلم .. وقد وضع كتابه
هذا عن حياة الرسول .. زينه باللوحات الفنية الملونة .. ولكن -
للأسف - خلت الطبعة العربيه من هذه اللوحات مع أنها قد لا تقل
أهمية عن الكلمات ..

وقد بدأ المترجمان للكتاب فضيلة الشيخ عبد الحليم محمود وابنه
د . محمد عبد الحليم .. عرضهما له باستعراض سريع رغم استغراقه
٥٨ صفحة .. لفكرة الغرب عن الاسلام من خلال الكتابة الصليبية
المتعصبة ، ومن خلال محاولات بعض الشاخصين في الفكر الغربى أن
أن يتحرروا من أسر هذه النظرة ، ويفكروا موضوعيا فى الإسلام
وفى شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام .. وهى مقدمة كان لابد منها
لكى نفهم التراث الفكرى الذى يكون عقلية المواطن فى الغرب ،
ويغرس فى نفسه العداء والنفور والعجز عن فهم الإسلام .. ثم لندرك
صعوبة الوصول بالجهد الذاتى إلى تعرف حقيقة الاسلام ..

وأذكر أنني قرأت في كتاب « ملوك وجمال ، أن « أرامكوا »
فتحت مدرسة لتخريج أمريكيين يعملون في الجزيرة العربية، وبدأت كأى
مدرسة بالتعرف على المعلومات العامة لدى طلبتها الذين تقدموا بالذات
للعمل في البلاد العربية الإسلامية . . ويروى المؤاف أن السؤال الذى
طرح هو « ماهو الاسلام ، و « من هو النبي محمد ، . .

وكانت الاجابات !

صحيح ان الأمريكيين شعب الطرائف والغرائب، ولكنها فى اعتقادى
تعكس مستوى المعرفة المتاح للمثقفين العاديين فى أمريكا - فمثل هذه
الوظيفة لا يتقدم لها رجل الشارع . بل لإنسان على قدر معين من الثقافة
والاهتمام بالاسلام . . !

أجابوا والعهدة على المؤاف . . إجابات من هذا الطراز :

أحدهم أجاب أن الاسلام لعبة تشبه البريدج . . وآخر قال أنه
طائفة غامضة تكونت فى الجنوب كفرع لجمعية « كوكلكس كلان » . .
وآخر ظن أنه طائفة ماسونية أمريكية جديدة . .

أما « محمد ، فهو الرجل الذى كتب « ألف ليلة وليلة » .

وآخر قال أنه قسيس زنجى أمريكى يعارض الاب ديفين فى
نيويورك . . !

وآخر كان شديد الثقافة فقال : « محمد رجل له علاقة بمجبل ما . . ربما
ذهب إلى الجبل . . أو ذهب الجبل إليه ، إشارة إلى مثل سخيف فى

الفيلسوف المسيحي الغربي يقول « إذا لم يذهب الجبل إلى محمد فإن محمداً يجب أن يذهب إلى الجبل » .

وبعد أن يعلق المؤلف « جراند بتلر » على هذا الجمل المتفشى بين مواطنيه يتولى هو تعريفهم بالاسلام على وجهه الصحيح . . هكذا :
« قال الملاك : أوه محمد ! : أنت نبي الله . . وأنا جبريل . .
اكتب كلمات الله . . (اكتب وليس اقرأ) .

كيف يكتب محمد . . وهو الذى لا يعرف حتى القراءة . .
وذهب محمد إلى زوجته التى طمأنته وأكدت له أنه نبي . .
وفى المرة الثانية كتب محمد ما أمره الملاك أن يكتب
ماهى أركان الاسلام ؟ . . يعلمهم الأخ جوانت بتلر :
المسلم يجب أن يعترف يومياً أنه لا إله إلا الله ومحمد نبيه . . ويجب
أن يصلى خمس مرات يومياً فى الصباح وفى الظهر . . وفى المساء . . وفى
الليل . . وقبل النوم . .

الزكاة وهى ٢.٥٪ من دخله السنوى (١) .
وصوم رمضان أن لا يأكل ولا يشرب من شروق الشمس حتى
غروبها . .

وإذا أمكن يحج مرة إلى مكة المقدسة ، حيث يكون من حقه أن
يحمل لقب حاج ، وهو يضعه فى مرتبة أعلى قليلاً من أقرانه . .

(١) ملولا وجمال (نيويورك ١٩٦٠) ص ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠

ولا يعنى ذلك أن الغرب لا يدري شيئاً عن الإسلام .. بالعكس
لقد كان لديه دائماً أبداً متخصصون على درجة عالية من الفهم والمعرفة
للإسلام كعدو حضارى ، ولكن التعبئة الأيدلوجية المطلوبة لغزو ديار
المسلمين واستعبادهم تطلب إلى جانب الفهم الدقيق لدى القيادات ،
تجهيلاً واسع النطاق لدى الجماهير ، حتى يمكن حشدهم وتوجيههم لمقاتلة
الوثنيين المتخلفين المحمدين !! ..

من هنا كانت صعوبة وصول المواطن الغربى إلى تصور حقيقى
لطبيعة الإسلام وشخصية الرسول ، وكانت عظمة الإسلام فى استطاعة
تعاليمه أن تخترق حجب الجهل والتزييف هذه ، وعظم المجهود الذى بذلته
بعض الشخصيات النبيلة لتتفهم هذه التعاليم ..

فيعرفنا الكتاب بالكونت هنرى دى كاسترى ، المستعمر الفرنسى
الذى هزته كبرياء الجزائريين عندما يمارسون شعائر الإسلام .. وراعه
أنهم يستطيعون الوقوف بين يدى الله بمجرد نزولهم من فوق ظهر
الجواد فى أية بقعة من الصحراء يبدأون فيها الصلاة !! .. ويبدو أنه لم
يعلم أنه بوسعهم أن يصلوا ، أى أن يقفوا بين يدى الله ، حتى وهم على
ظهور خيلهم ..

ومن خلال حياته فى بلاد الإسلام استطاع الكونت أن يكتشفه
سخافات وتزييف ما كتب فى فرنسا عن الإسلام ..

يقول الكونت : « من الغريب قولهم أن محمداً الذى هو عدو
الأصنام ومبيد الأوثان كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من

ذهب ! وزعموا أن صورة « ماهوم » (يعنى النبي محمداً) كانت تصنع
من أنفاس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق إتقان . .

أليس من الطبيعي أن يظل مجمع الكرادلة متهماً للمسلمين بأنهم
عبدة أوثنان إلى عامين مضياً . . عندما عفا عنا وأعلن نقلنا من دائرة
الوثنيين إلى دائرة الذين يعبدون إلهاً . . بالرغم من أن ديننا قد وصل
إلى الذروة في التوحيد ، بل لا يمكن القول أن هناك عقيدة أخرى قد
وصلت في التوحيد إلى ما وصل إليه ، بل وديننا يكره مجرد اقتناء
صورة ، ولم يجرؤ فنان مسلم على رسم صورة لأحد الصحابة فضلاً
عن رسول الله إلى الآن . .

ولكن هذا نموذج مما زيفته الحضارة الغربية على الاسلام . .

ويفسر الكونت دى كاسترى هذا التزييف ، بأنهم ما كانوا
يقصدون الحقائق التاريخية بل حفظ روح البغضاء في نفوس الغربيين
ويؤكد أن روح البغضاء هذه لم تسد القرون الوسطى وحدها ، بل
ما زالت سائدة عند الغربيين ، وكان سلاحهم الوحيد هو إشباع
خصمهم سباً وشتماً ، وتحريف النقل عنه ما استطاعوا . .

وأتعب الكونت نفسه في الرد على العديد من الافتراءات مثل
الزعم بأن الرسول لم يكن أمياً وإلا لما اختارته خديجة للتجارة لها
في الشام ، فيؤكد الكونت أنه يوجد وكلاء للكثير من التجار أميون .
بل لعل الكونت لو عاش لعرف أن صاحب أكبر بنك في الجزيرة

العربية . . أمي . . لا يعرف من الكتابة إلا الامضاء ، وهو من أنجح
الاقتصاديين . .

ويرد ردا بارعا على الزعم بأن محمدا عليه الصلاة والسلام عرف
التوحيد من اطلاعه على التوراة والإنجيل . . فيقول الكونت : لو أنه
فعل لما اهتدى إلى التوحيد قط !

ثم ينتقل المترجمان إلى « كارلايل » صاحب كتاب الأبطال الذي
يكتب عن رسول الله فيقول : « من العار أن يصفى إنسان متمدين
من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين أن دين الاسلام كذب وأن محمدا
لم يكن على حق . . »

« لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة فالرسالة
التي دعا إليها هذا النبي ، ظلت سراجا منيرا ، أربعة عشر قرنا من
الزمان ، للملايين كثيرة من الناس . فهل من المعقول أن تكون هذه
الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين وماتت مجرد أكذوبة ؟ . . لو أن
الكذب يروج عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفا
وعيبا وكان الأجدر بها ألا توجد ،

ومنطق كارلايل : « هل رأيتم رجلا كاذبا يستطيع أن يخلق ديناً ،
ويتعهد بالنشر بهذه الصورة ؟ إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى
بيتا من الطوب ، لجهله بخصائص مواد البناء ، وإذا بناه فما ذلك الذي
يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد . فما بالك بالذي يبنى بيتا دعائمه
هذه القرون العديدة ، وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ،

وحجة كارليل قوية . . ومنطقية في الفهم الغربي للأمور . . فإن
محك صدق الشيء نجاحه . . وقد يرد عليها - ولو أننا لا نلتزم بها - بأن
بوذا وكونفوشيوس قد أسسائنا تعنتقه ملايين أكثر ولقرون أطول . .
ولكن يرد على ذلك بدراسة لظروف العزلة التي أحاطت بالبوذية
ومكنتها من الانفراد ، بينما ظهر الإسلام في قلب المركز الديني للعالم
وتعرض لحرب شعواء بمختلف الأسلحة ، ثم بقي وصمد وانتشر . .

ويختتم كارليل بحثه عن رسول الله قائلا :

هكذا تكون العظمة . . !

هكذا تكون البطولة . . !

وهكذا تكون العبقريّة !

أما « تولستوى » فإن الكتاب يقدم حقيقة لعلمها غير معروفة
لأبناء هذا الجيل ، وهي سر قرار الحرمان الذي أصدره البابا ضده ،
والغريب أنه على كثرة ما كتب عن تولستوى ، حتى שתائم زوجته ،
فانه من النادر أن نعثر على تسجيل لرأيه في الإسلام وفي رسول الله . .
بل وخطاب الشيخ محمد عبده له . .

يقول تولستوى :

« لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا
الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة . ويكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى

نور الحق ، وجعلها تفتح للسلام ، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا ..

ويكفيه فخرا : أنه فتح طريق الرقي والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلما ، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال

وقد كتب له الشيخ محمد عبده :

« أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى

لم نحظ بمعرفة شخصك ، لكننا لم نحرم التعارف مع روحك .
سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت في آفاقنا شمس من آرائك ،
ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك ، ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب
التقاليد ، وصلت بها إلى حقيقة التوحيد .

وكما كان وجودك توييخا من الله للاغنياء ، وكان مددا من عنايته
للضعفاء وللفقراء . وإن أرفع مجد بلغته ، وأكبر جزاء نلته على
متاعبك في النصيح والارشاد ، هو هذا الذى سماه الغافلون بالحرمان
والابعاد ، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين ، سوى اعتراف منهم
أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين . فاحمد الله على أن فارقوك
في أقوالهم . . كما كنت فارقتهم في عقائدهم ،

أما اللورد هيدلى ، فقد فكر وصلى . ٤٠ سنة حتى اكتشف أن
« الدين المحمدى » هو الذى يجعل الانسان يعبد الله وحده كل الوقت
وليس فى أيام مخصوصة . .

واكتشف أن الاسلام هو الدين العالمى حقا .. ولو أنه خرج من ذلك بنتيجة غريبة لا نقره عليها ، وربما طرحها بحسن نية لاغراء الانجليز باعتراف الاسلام !!

« يمكن اذن ، أن يوجد دين يمكن للعالم الإنسانى من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيقى ، الذى هو فوق الجميع ، وأمام الجميع ، بطريقة سهلة خالية من الحشو .. ففكر لحظة أنه لو أصبح كل فرد فى الامبراطورية الانجليزية محمديا حقيقيا بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الاحكام أسهل من ذلك ، لأن الناس سيعملون بدين حقيقى » .
ويضع اللورد إصبعه على سر إعجاز الإسلام ، وهو رفع الحجاب بين الارض والسماء .

« ليس هناك فى الاسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه ، إنه أمام الجميع وفوق الجميع ، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، إنه لمن المدهش حقا أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والالباب على هذا القدر من الغباوة ، فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء ، رؤية أيهم القهار المتصل دوما بكل مخلوقاته سواء كانوا عادين أم أولياء مقدسين » .

« مفتاح السماء موجود دائما فى مكانه ، ويمكن إدارته لأذل وأقل المخلوقات ، دون أية مساعدة من نبي أو كاهن أو ملك . إنه كالهواء الذى نستنشق مجانا لكل خلق الله .. »

ويدهش اللورد من أولئك الذين يبشرون باسم السماء ثم يروجون

بالاكاذيب : ١٠ ، ليس في وسع الانسان ، في الحقيقة ، إلا أن يعتقد أن مدعى وناسجي هذه الافتراءات ، لم يتعلموا حتى ولا أول مبادئ دينهم ، وإلا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم ، تقارير يعرفون أنها محض كذب واختلاق ،

وهو موقف يحتاج حقا إلى دراسة عميقة . . كيف يقبل رجل دين أن يهدى الناس إلى ما يعتقد أنه الحق والصدق ، بالاكاذيب والافتراءات ١٤ . . وهل يعقل أن رجال الدين هؤلاء على سعة معرفة بعضهم - يصدقون هذه الافتراءات ، ولا يكلفون أنفسهم مؤونة دراسة دين نصبوا أنفسهم لمحاربته . . أم أن الحقيقة نسبية ، والناس تحدد علاقتها بالحقيقة مسبقا ، من خلال الموقع الذي يقفون فيه وينظرون إلى الحقيقة من زاويته ١٤ .

ويبدو أن تاريخ الغرب الحديث حافل بالذين وصلوا إلى الاسلام بجهودهم الخاصة ، ويبدو أيضاً أن ستارا رهيبا من النسيان قد ضرب على هؤلاء ، وأن جهات عديدة في الوطن العربي تنفق أموالها في تعريفنا بأى شيء ، إلا بالذين كتبوا عن إيمان واقتناع وفهم عن الاسلام ونبي الاسلام .

فيعرفنا الكتاب بالشيخ « عبد الواحد يحيى » ، أو « رينيه جينو » قبل أن يسلم . . والذي — كما يقول الكتاب — ترجمت كتبه إلى معظم اللغات - حتى لغة « الهند الصينية » - إلا اللغة العربية ١٥ . . « رينيه

(١) الجامعة العربية اتخذت قرارا بترجمة الأعمال الكاملة لشكسبير . . ودار الكتاب عاكفة على ترجمة الأعمال الكاملة لدستوفسكي ١ .

جينو، وصل إلى الاسلام من خلال بحثه عن نص مقدس لم يشبه تحريف أو تبديل، ومن خلال دراسة تاريخية وعلمية وصل إلى أن القرآن هو وحده الوثيقة التي لم يصيبها أى تحريف أو تبديل ..

ثم نصل إلى دينه .. ولكن قبل أن نتحدث عن دينه يجب أن نقف قليلا حول مغزى إسلام هؤلاء الذين يمثلون نخبة المثقفين في الحضارة الغربية .. لأنهم يمثلون حالة نادرة من حالات الانتصار العقائدى .

فالحضارة الغربية في هذه الفترة التي أسلم فيها هؤلاء - ونعني من القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين - كانت تمارس مجدا لم تعرفه حضارة من قبلها ، قد ركعت عند قدميها كل الحضارات وكل الشعوب .. الكلمة كلمتها بغير منازع في مصير الانسان .. تفوق ساحق في جميع الميادين .. أمام تخلف مزر بكل المقاييس ..

وليس إلا في الاسلام وحده ، نجد ظاهرة اعتناق القاهر المنتصر عقيدة المقهورين .. ولاشك أن الذى يستشف عظمة الإسلام وسمو تعاليمه وصدق رسالته ، من خلال حياة المسلمين في آسيا وأفريقيا في القرن التاسع عشر .. وهو القادم من باريس أو لندن أو برلين .. لاشك أن ذلك يؤكد عظمة هذه التعاليم وتفوقها الساحق ، كما يؤكد شفافية وموضوعية ذلك الذى اراد الله له الهداية ..

وقد اكتشف « دينه » ! أن العقيدة المحدية لاتقف عقبة في سبيل

التفكير ، فقد يكون المرء صحيح الاسلام ، وفي الوقت نفسه حُر التفكير . .

« وكما أن الإسلام قد صلح — منذ نشأته — لجميع الشعوب والاجناس ، فهو صالح كذلك لكل أنواع العلميات وجميع درجات المذنيات . .

يقول دينيه « لو كان الإسلام الحقيقي معروفا في أوروبا لكان من المحتمل أن ينال — أكثر من أى دين آخر — من العطف والتأييد من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى ، فإنه — والحق يقال — يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم . .

وقد تولى « دينية » مناقشة قومه فعقد مقارنة بين مفهوم الله عندنا وصورته كما تقدمه التوراة . يقول :

« الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا أو ما إلى ذلك من الأشكال . أما فى المسيحية فإن لفظة « الله » تحييطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن فى السن قد بانث عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تجاعيد بالوجه غائرة إلى الحية يبيضاء مرسله مهملة تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء . ونسمع القوم يصيحون « ليحيى الله » فلا نرى للغرابة محلا ، ولا تعجب لصيحتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر ، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة ؟ . . . »

وقد علق مسيو « كازانوفا » أحد كبار أساتذة الكوليج دى فرانس على موقف الاسلام من العلم فقال : « يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثيل آرائنا وهضم أفسكارنا . . يعتقدون ذلك وينسون أنه نبي الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة ! فأى رئيس دينى كبير ، أو أى قس من القساوسة العظام ، كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوى الفاصل ؟ . . هذا القول الذى هو عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة . . ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت الكفاة عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار وجلمة الشنار . »

وعلى عكس ما يروجه الدجال عن تأثير الحروب الصليبية نجد الأشراف من رجال أوروبا يعترفون بفضل العرب . يقول العالم المسيحى المتدين « بارتلى سان هيلار » :

« إن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل على سادات أوروبا وفرسانها ، فى القرون الوسطى ، فى تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها ، ثم تعليمهم رقة العاطفة ، وتهذيب نفوسهم ، والرفعة بها إلى حيث الإنسانية والنبالة . وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف ينقص من فروسيتهم وشجاعتهم شيئاً . »

ثم ننتقل إلى الكتاب ذاته ، وهو سيرة عادية لرسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، جميعها المؤلف من كتب السيرة ، ولا أرى القارى العربى يستفيد كثيراً منها ، فأى مرجع عربى يرجحها ، خاصة وأن المترجمين لم يحاولوا التعليق أو الشرح أو التحقيق ، وأيضاً لأنها لم تخل من آثار المستشرقين هنا أو هناك .. بل الغريب أن المترجمين على مكانتهما العلمية يعترفان أنهما ترجما أحاديث نسبها لدينهم لرسول الله ، وأعجزهما الوصول إلى أصلها العربى .. ولا ندري كيف سمحا لنفسهما بترجمة ونشر أحاديث وهما لا يعرفان لها أصلاً . . .

إن إعجابنا بقدرة دينه ، على هداية نفسه لا يعنى أن نتعلم منه ديننا ، أو نجعل منه الصحيح السابع فى السنة . . . ومن يحقق الحديث إن لم يفعل عميد كلية من كليات الأزهر ، وإمام من أئمة التصوف ! ! ألا يحق لنا أن نخشى قارئاً من الذين يتخطفون الكلام ، يأتى بعد عدة سنين فيقول عن محمد عن عبد الحليم عن الفونس دينه أن رسول الله . . . استغفر الله العظيم . . .

ورغم ما التزم به دينه فى مقدمة دراسته عن سيرة الرسول من

رفض المعجزات . . إلا أنه سرعان ما استهوته الخوارق شأنها مع العقلية الغربية ، واضطرب منهجه بين قبول المعجزات ، وبين البحث لها عن تفسير علمي ، وهو في اعتقادي شر الحلول ، فإما أن نقبل المعجزات ، ما دمنّا قد سلمنا بوجود قوة خارج القوانين الطبيعية . . من معجزاتها هذا الاستمرار ، وهذه الحتمية في قوانين الطبيعة ، غير أن هذه الإرادة العليا لا يعجزها أن تعترض روتينية ورتابة القوانين الطبيعية فتحدث من الأفعال ما تشاء . .

ولما أن نرفض الخوارق جملة ، وننظر إلى الدين نظرة عقلانية بحثة في حدود ما وصل إلى علمنا من قوانين الوجود والحركة . . والاسلام لا يعجزه اقناعك بأى الأسلوبين اخترت . .

فلن تستوقفنا السيرة طويلا ، بقدر ما نتوقف عند بعض الملاح التي جذبت هذا العقل الغربى إلى الاسلام . .

والميزة الخاصة التي يمتاز بها حج المسلمين هي عدم وجود تلك المعابد الكثيرة ذوات القباب الضيقة التي تحبس الأرواح ، وتقفها في وثبتها إلى الخالق ، فتبقيها على الأرض رهن رحمة القسيس .

ويمتاز أيضا بانعدام جيش القديسين العرمرم ، الذى تشغل عبادته عن عبادة « الاله الخالد » الذى ينفى عادة في مثل تلك الأوقات . وأخيراً ، فالذى يمتاز به الاسلام ، انعدام القسس ، ورجال الدين على اختلاف درجاتهم الذين يتحاسدون ويتنافسون في اجتذاب الحجاج ،

والاستيلاء على أمكنة الحج لإرضاء وتمجيد طوائفهم ، أو درجات
كهنوتهم .

في مكة لا يعبد إلا الله الواحد الصمد . فإن كان الحجاج يحاولون
بعث ذكريات إبراهيم ومحمد ، فانما يكون ذلك ليقنوا شعلة إيمانهم
متبعين سنة نبيهم ، ولا يصلى المؤمنون أبداً لأولئك الأنبياء كما يصلى
المسيحيون لقديسهم ، بل لأنهم ليدعون لهم برحمة الله .

ويتحدث عن الانتصار الاسلامى الفريد فى نوعه :

« ففى أقل من مائة عام ورغم قلة عددهم ، استطاع العرب الامجاد
وقد اندفعوا ، لأول مرة فى تاريخهم ، خارج حدود جزييرتهم المحرومة
من مواهب النعم ، أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم ،
من الهند إلى الأندلس . »

« وقد شغلت ، فى قوة ، هذه القصة المجيدة تفكير أعظم عباقرة
عصرنا هذا ، أعنى نابليون ، الذى كان ينظر دائماً إلى الاسلام باهتمام
ومودة ، فيقول عن نفسه فى إحدى خطبه المشهورة بمصر : أنه مسلم
موحد . ويذكر الاسلام فى أواخر أيامه فيرى أنه ، إذا طرحنا جانباً
الظروف العرضية التى تأتى بالعجائب ، فلا بد أن يكون فى نشأة الاسلام
مر لا نعلمه ، وأن هناك علة أولى مجهولة جعلت الإسلام ينتصر بشكل
عجيب على المسيحية ، وربما كانت هذه العلة الأولى المجهولة : أن هؤلاء
القوم الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى ، قد صهرتهم ، قبل ذلك ،
حروب داخلية عنيفة طويلة ، تكونت خلالها أخلاق قوية ومواهب

عبقريّة وحماس لا يقهر ، أو ربما كانت هذه العلّة شيئاً آخر من هذا القبيل .

ولذلك كان نابليون يعلم أن وراء خمول العالم الإسلامي ، في فترة الانحطاط خزائن لا مثيل لها من القوة الفعالة الكامنة ، فحاول ، في مناسبات متعددة ، أن يستميل المسلمين إلى جانبه ببعض المعاهدات ، وكان يؤمن بأنه إذا وفق في ذلك يستطيع أن يوقظ الإسلام من سباته وأن يغير بمعونته وجه الأرض قاطبة .

« ولم يكن نابليون مخطئاً في ظنه ، فقد كانت الحروب الداخلية ، حقاً ، سبباً في إظهار سجايا البطولة عند العرب ، ولكنها ، إلى جانب ذلك كانت حجر عثرة في سبيل كل تقدم وكل نظام ، ولولا نبوة محمد لظل هؤلاء الجنود البواسل إلى آخر الزمن في صحاريهم لا يشغلهم سوى الفتن المتوارثة .

على أية حال مهما تكن نوايا نابليون الحقيقية ، فإن عبقريته قد كشفت الطاقة الهائلة التي يفجرها الإسلام في معتنقيه ، ولا شك أن هذه النصوص تثبت تهافت التفسير الذي يدعى أن نابليون جاء إلينا يحمل مبادئ الثورة الفرنسية ، وأراد أن يقيم قومية علبانية . . إن الشواهد والنصوص تؤكد أنه لم ينظر إلينا إلا كمسلمين ، وأنه عندما فكر في الاستعانة بنا فقد انطلق هذا التفكير من قوتنا كمسلمين قبل كل شيء . .

كذلك نجد « الفونس دينيه » معجباً بالحضارة العربية والفن

العربي .. قد ملأه هذا الإعجاب لإيمانه بالإسلام .. وهذا يؤكد ما نذهب إليه من أن الاسلام هو وحده الذى يحقق عزة العرب ، ويجمع القلوب حولهم ، وأن الذين يحاولون تجريد العروبة من الاسلام يضررون شرا للعروبة لا يقل عن بغضهم للإسلام ..

ويستعرض « دينيه » بعد ذلك فضل الحضارة العربية على أوروبا .. بشواهد وأدلة وحقائق علمية تخرس كل دجال ..

العرب هم الذين اكتشفوا « الكحول وحامض الكبريتيك أساس علم الكيمياء ، وأهم العمليات الأساسية في هذا العلم كالتقطير ، تطبيق الكيمياء في ميداني الصيدلة والصناعات ، وخاصة فيما يتعلق باستخراج المعادن وصناعة الفولاذ ، والصباغة وغير ذلك .. صناعة الورق من الخرق ، الاستعاضة به عن رق الغزال وورق البردى والحبر الصيني ، ومن المحتمل أنهم أول من استخدم البوصلة في الملاحة ، ومن المحقق أنهم أدخلوا هذا الاختراع الاساسى فى أوروبا — وأخيرا فهم الذين اكتشفوا الأسلحة النارية ففى عام ١٢٠٥ استخدم الأمير يعقوب المدفعية فى حصار مدينة المهديّة ، وفى عام ١٢٧٣ استخدمها السلطان أبو سيف فى حصار مدينة سجلماسة ، وقد حضر كونت دربي وكونت سالسبرى الإنجليزيان فى حصار مدينة الجزيرة التى دافع عنها العرب بالمدافع ، فشاهدوا نتائج استخدام البارود ، فنقلوا ذلك الاختراع إلى بلادهم فاستخدمه الإنجليز فى معركة كريش بعد ذلك بأربع سنوات ...

ويقول الفونس دينيه « ولعل أثر المسلمين فى ميدان الفكر أخطر

شأننا ، فقد دعا عيسى إلى المساواة والأخوة ، أما محمد فقد وفق إلى
« تحقيق » المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته .

وقد عارض « ابن رشد » وحدة الوجود القديمة ، والتجسيم
المسيحي بعقيدة الايمان بالله وحده في الاسلام ، وتحمس أحرار
الفكر في العصر الوسيط الاوربي لشروحه لأرسطو ، وإن كانت هذه
الشروح مصبوغة بصبغة إسلامية قوية . ويمكن أن نعتبر ، بحق ،
أن التيار الفكري الذي نشأ عن هذا التحمس لابن رشد كان أصل
التفكير المنطقي الحديث ، فضلا عن كونه من أصول الإصلاح الديني .
ويطرح « دينيه » سؤالاً هاماً .. لماذا ينكر الغرب كل أثر للإسلام ..
ولماذا ينكر هذا الأثر « علماء يبدو أن روحهم العلمية تخرج بهم عن
كل تعصب ديني » .

ونجيب على سؤاله : « إن الواقع يشهد بأن حرية الرأي مسألة
ظاهرية أكثر منها حقيقية ، وأن الإنسان ليس حر التفكير على
الاطلاق كما يشاء في مسائل معينة ، ثم إن التعصب الموروث لدى
المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه ، قد عاش فيهم دهوراً طويلة ، حتى
أصبح جزءاً من كياناتهم .

« فإذا أضفنا إلى هذا التعصب الديني تعصبا آخر هو أيضا موروث
توريده الأجيال المتتالية تمسكنا من النفوس بفضل مناهج الدراسات
القديمة التي تسير عليها مدارسنا ، وهو أن كل العلوم والآداب الماضية
يرجع الفضل فيها إلى الاغريق واللاتين وحدهم ، أدركنا في يسر كيف

ينكر الناس عامة ، ذلك الأثر العظيم الذى كان للعرب فى تاريخ الحضارة الأوروبية .

« وسوف يبدو دائماً لبعض العقول أنه من المهانة أن تدّين أوروبا المسيحية للمسلمين باخراجها من ظلمات البربرية والتوحش ، صدقت يا ألفونس وبررت ، وإذا كان تعصب أوروبا وحقدّها على الإسلام والمسلمين يفسران انكارها لدور العرب . . فان نفس الحقد مع العمالة يكمنان خلف محاولة البعض من غير الأوربيين أن ينسبوا أجداد العرب إلى أصول لا تينية وإغريقية . . »

ثم ينتقل بنا ألفونس إلى وضع المسلمين الحال ، ويتوقف طويلاً فى أسى عند تخلف المسلمين الراجع إلى رفضهم التعامل بالربا . . وينصحنا فى تألم صادق : « ولكن القرض أصبح اليوم من المقومات الأساسية فى كل المشاريع الضخمة ، وأصبحت البنوك ، صاحبة السلطة الحقيقية فى العالم ، ولذا وجد المسلمون أنفسهم ، مؤقتاً ، يسرون إلى الافلاس الاقتصادى والسياسى بسبب تفسيرهم المبالغ فيه لآيات الربا ،

ولاشك أننا نفتقد رأى المترجمين فى هذا رأى ، ولكنهما اكتفيا بملاحظة هامشية أعلنّا فيها أن الاسلام يحرم الفائدة مهما كانت نسبتها . ووضع الأمر على هذا النحو يوحى كأن ديننا يوقعنا فى موقف لا فكاك منه ، ألا حيلة لنا فيه . .

وكان من الضرورى مناقشة ما هو مجتمع « التعاون والاخوة

والنعاطف ، وكيف يترجم ذلك في ميدان الاقتصاد ..

ولقد ناقشنا موضوع الربا في ردنا على مكسيم رودنسون ١ .

ومن الغريب أن يجد ألفونس أن سر تخلفنا في مطلع القرن العشرين هو تحريم الربا . . . ليتة قال لنا أين وجد هؤلاء المسلمين الذين لا يتعاملون بالربا ويرفضون فتح بنك . . . ليتهم وجدوا . . . إذن المكان لنا شأن آخر . .

مع من إذن كانت كل هذه البنوك الأجنبية تتعامل إلا مع أصحاب البلاد المسلمين . . وبماذا كانت تتعامل إلا بالربا ؟ . .

ولو عاش ألفونس إلى نهاية عام ١٩٢٩ وما بعدها من سنوات الأزمة لرأى أى كارثة سببها نظام البنوك للحضارة الرأسمالية . .

على أية حال إن « ألفونس » عندما أسلم لم ينفصل عن أوروبا ولا فرنسا بالذات ، وهو أراد أن يهدى أوروبا إلى الاسلام .

فإذا دخل الاسلام في الحضارة الأوروبية بفضل اشتراكه العظيم في الحوادث فسيوضح سناه الحقيقى ، وستعرف الامم المختلفة حقيقته التى حجبته عنهم زمنا ، وسيمد الكل يده لمخالفته ، متنافسين في ذلك ، لأن قيمة قد خبروها ، وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التى لا حد لها ولا نفاذ . .

« ولو نهض أتباع محمد عليه السلام وأفاقوا من سباتهم العميق
الرجع لهم عزهم السائف وتاريخهم المجيد ، وصاروا أمة لا تعرف الجور
في معاملتها لكل رعاياها ، لا فرق بين مسلم ومسيحي ويهودي ،
وتبوءوا مكانهم الذي يليق بمجدهم إن شاء الله . . . »

أما نحن فلا نطمع في هداية الغرب - الآن على الأقل - بل نريد أن
نبعث الايمان في الشرق لينهض فيحرر نفسه ، وينفض غبار التخلف عن
قيمه ، لتهدى بنورها من يهديه الله . .



من مقدمة كتاب

للأمم عند نهضتها علامات لا يخططها الدارسون ، وللحضارات عند
مبعثها وتجدها شواهد لا يغفلها المؤرخون .. وربما كان أهمها — في
اعتقادي — الالتفات إلى التراث .. الايمان بالاسلاف ، ومن ثم
اليقين بقدرة الاحفاد على الابداع .. فما من حضارة قد ازدهرت ولا أمة
قد بعثت ، على سب قديمها ، ولعن تراثها ، وعدم احترامه .. أو حتى
توديعه بكلمات تأبين مبعثها إيمان قائلها بأن « إكرام الميت دفنه » .

ويستطيع المؤرخ أن يجد تلازما بين انتفاضاتنا السياسية والاجتماعية
وحركة بعث التراث .. بل إننا نرى أن البعث الحقيقي لم يتحقق لأننا
لم نستلهم بعد روح قوائنا ولا استطعنا أن نضعه في مكانه الحقيقي من
مكونات الفكر العربي المعاصر ..

والدعوة إلى بعث التراث تثير دائما عاصفة من النقد من جانب
أعداء العروبة ، أعداء الإسلام .. لأن كشف أجداد الماضي ، يغري
دائما ، بالاعتزاز بنسبة الحاضر إليه ، ويدعم الدعوة لبناء الشخصية
العربية بهدى الإسلام ونوره ..

وقد هاجم أعداء تراثنا ، أعداء كياناتنا العربي ، هاجموا عملية بعث التراث ، أى نقله من ورق أصفر إلى ورق أبيض ، كما يصفونها .. وهو وصف غير صادق ، لأن التراث وقتها لم يكن مطبوعا أو حتى مخطوطا على ورق أصفر كما يزعمون ، بل كان نهبا مشاعا لغير العرب . يحتكره المستشرقون ، فيخفون في متاحفهم ، ومكتباتهم وخزائن القصور والكنائس ما شاءوا ، ويحرفون ما حلا لهم ، ويطبعون ما عنّ لهم بتشويه مقصود تثيره روح التعصب والصليبية المتوارثة ، أو بتشويه مبغى سوء الفهم والعجز عن استشفاف روح حضارة مختلفة ..

يومها كان الجانب الأكبر من التراث فى أيدي أعداء الإسلام والعرب .. لأنه نهب.

فهم أولا استعاروا هذا التراث كطالبي علم ، قرأوه بالعربية ، ثم ترجموه .. ثم لما استولوا على العالم الإسلامى ، وكانت لهم الغلبة المادية منذ القرن السادس عشر ، بدأوا عملية نهب مسلح ، أو باستغلال حالة التخلف والفقر فى الوطن الإسلامى ، فنقلوا معظم المخطوطات إلى بلادهم ..

ومن هنا كان المسلمون المخلصون ، وأبناء العروبة الصادقون ، محقين . كل الحق فى ضرورة أن يعاد نشر هذا التراث ، أو بمعنى أصح أن ينشر لأنه كان أشبه بالآثار المصرية فى القرن الثامن أو التاسع عشر ، قد تعرض لعمليات تخريب وانحيار لولا روعته وشوخته لما بقي منه شيء ..

كان من الضروري أن يعاد جمع الاشتات المبعثرة ، ويعاد ترميمها
وضبطها حتى نصل إلى أقرب صورها الصحيحة .. وهى عملية لم تتم
حتى الآن رغم كل ما يقال عن الاهتمام بالتراث ..

ولأن الهجوم على التراث الآن لم يعد ممكنا ، بعد أن استقل العالم
الاسلامى ، واختفت دار المندوب السامى ، ولم يعد بوسع دولة
صليبية أن تحشد البوارج عند سواحلنا بحجة حماية التحفظات الاربعة

لذا فإن الهجوم على نشر التراث بدأ يأخذ نغمة الرغبة لافى نقله من
ورق أصفر إلى ورق أبيض .. بل لإخراج روائعه ..

وهم كاذبون ..

لأنهم لا يؤمنون أبدا بهذا التراث ، وهم يرون أن عيوبنا الفكرية
المعاصرة إنما تأصلت فينا عبر ألفى سنة من الفقر الثقافى والعزلة
الثقافية عن ثقافات الأمم الأخرى ..

ما هو تراثنا ؟

هو ثمرة الألفى عام هذه ..

أى ثمرة الفقر الثقافى والعزلة ، .. أهذا تراث يحرص عليه ؟

أو يدعى كاتب هذا القول أنه حريص عليه ؟ ..

لا .. الفقر الثقافى لا تراث له .. ولا غناء فى بعثه ، سواء على ورق
أصفر أو أحمر .. إنما لاننا بدأنا حركة البعث بإعادة ترميم ونشر
وفهم أغنى تراث خلفته أمة لأحفادها .. فان ذلك يشير جنون وفزع

اعداء العروبة والإسلام ، فيعودون يحتالون زاعمين أن المسلسلات
التليفزيونية عن عمر بن الخطاب أجدى من تحقيق سيرته ١ .

ولا نسمح لأنفسنا بأن نسقط في شرك هذه المقارنة . . فلا بد
أن تستكمل الأمة معرفتها بتراثها الثقافى ، ولا بد أن يتعلم المثقفون فيها
قراءة هذا التراث وفهمه ، وسبر غوره ، واستشفاف روحه ، ولا بد
أن تعيش قيم هذا التراث في نفوسهم . . ولا بد أن يتمثلوا هذه المعاني
ثم تأتى عملية الخلق ، لإنتاج أعمال فنية تتفق وعصرهم ، وتعيد تقديم
قيم حضارتهم في شكل يصل إلى عقول معاصريهم ، ويعكس خلود
وتفوق هذه القيم . .

هذا قانون عام فى بعث الحضارات وانهارها . . حتى الشيوعية
عندما وصلت إلى السلطة وأرادت أن تبني دولة وتبعث أمتها ، اعتزت
بالاسلاف ، وغفرت خطاياهم . ورغم كل ما كتبه البلاشفة ضد
الاستعمار ، نجدهم قد برروا استثمار آسيا السوفيتية وحده فى عصر
القيصرية ، لأنه كان السبيل إلى ما تنعم به شعوب آسيا السوفيتية الآن
من فضل النظام السوفيتى . ١

ولعل مثال الحضارة الغربية أقرب لفهم أولئك الذين يلعنون
تراثهم . . ألم تكن بداية نهضتها فى العودة إلى تراثها الإغريقى والرومانى . .
رغم بعد العهد بين أوربا الحديثة وأسلافها من الإغريق والرومان . .
ورغم انقراض هذا التراث ، حتى لقد تلبسوه عند المسلمين ، وتعلبوه
من العرب . . من ترجماتهم وشروحهم . . رغم اختلاف لغاتهم عن اللغة

التي اخرجت هذا التراث . . ورغم تغير العقيدة الدينية التي أفرزته . .

ورغم ذلك كله ، فقد كانت هذه العودة هي البداية الصحيحة للبعث .
الأوربي . . بينما كان التنكر لهذا التراث ، ومطاردته ولعنه ، بأمر
الكنيسة ، هو بداية العصور الوسطى المظلمة ، وانهايار الحضارة
الغربية . .

ويوم رجعت أوربا إلى تراثها ، دارسة متعللة ، باعثة فيه الحياة ،
لم يقل أحد أن هذه العودة تعنى السلفية ، وأن دعائها سلفيون ، يؤخرون
عجلة التاريخ والتطور ، وينبشون قبور الماضي لإخراج ما يعجب
العامه ! .

وما زال هذا التراث يلقي الاحترام والعناية من مفكرى أوروبا
رغم كل ما أبدعته الحضارة الغربية المعاصرة .

وعندما نرى اسطورة مثل « اوديب » ، تشر كل هذا الخلق الفنى
على مر العصور ، وتعدد الأدباء الذين عالجوها على تباين مذاهبهم . .
فان هذا لا يعنى عظمة الاسطورة فى حد ذاتها ، بقدر ما ينبىء عن
عظمة الفنانين والمفكرين الذين يأخذون هذه النواة فيكسونها ديباجة
براقة من علمهم وفكرهم ، ويقدمونها فى كل مرة على نحو مخالف
ومفهوم جديد .

وما أحفل تراثنا بالاساطير ! ولكنه عجز الاحفاد لافقر الأجداد .
ولذلك لم نأبه بزعم الزاعم أنه يود لو كتب عن شنود « الحسن

ابن هاني، ١ أو الحاد شيخ المعرة ، خوفاً من أن ينشق الناعقون .
ضحكنا لهذا الزعم ، وتمثلنا بالمثل المصري الدارج : « قصر ديل
يا أزعر » .. فان شنود « أبي نواس » لم نعرفه إلا بما أثبتته السلف ،
والروايات عن شك أبي العلاء .. أثبتنا هؤلاء السلف دون أن تفزعهم
مخالفتها للعقيدة ، فقد كانت أمانتهم العلية فوق كل مظنة .. وتقديسهم
للفكر أروع مافي حضارتهم .

المهم أن نقدم جديداً يثرى حاضرتنا ، ويورق من نفس جذور
دوحتنا العربية الاسلامية .. فكل تناول للتراث في إطار الاعتزاز
بالعروبة والاسلام وبهدف إثراء الفكر العربي الاسلامي ، هو تناول
مطلوب ومرغوب ومثاب .. أما أن يحول البعض هذا التناول إلى
معاول يحاول بها أن يهدم الدوحة الشائخة ، أو أن يدعونا إلى إغفال
تاريخنا وعبادة تاريخ وأسلاف الآخرين - فهو تأمر صريح ، لا ضد
تاريخنا وحده ، بل وأساساً ضد مستقبلنا ..

إن أول خطوة على طريق المجد ، هي دراسة واعية للطريق الذي
قطعناه ، ومعرفة بالطاقات التي فجرها الايمان في قلوب أجدادنا ،
وإيمان برسالتنا إلى الانسانية كلها .

* * *

(١) هذا هو نص رأينا بحروفه نشرناه في مجلة الرواد الليبية في سبتمبر ١٩٦٥
أي قبل مقال الدجال بثلاث سنوات ! .

هذا حديث أرجو ألا أكون قد أطلت فيه ، وقد اخترت أن أحدثك
عن كتاب ، لعل أضعف ما فيه هو اسمه : « صبح الأعشى فى صناعة
الإنشا ، . .

ولكن . . لا عليك من هذه السجعة التى تحمل بصمات عصر مؤلفه
لا فكره . . وهو كتاب يستحق الخلود الذى ناله . .

ولست بمحدثك عن الكتاب كله ، فهو يقع فى ٦٤٧٣ صفحة من
القطع الكبير ، بطباعة القاهرة . . فتأمل كم كان يشغل بخط الناسخين
على السكاغد ؛ لتعلم فضيلة من فضائل أمتنا . . وهى شغفها بالقراءة . .
واحترامها للثقافة . . إذ يروى « المؤلف ، أن الكتاب راج فى حياته ،
وهى على حد قوله ، ظاهرة نادرة فى زمانهم ، إذ كان « قلبا التأليف
والنسخ يتسابقان فى ميدان الطرس إلى الكتابة ، .

ولم يكن فى عصرهم مؤسسات تشتري الكتب للجمالة ، ولا دور
فشر تروج ما لا يروج . . بل كان لإقبال الناس وتسابقهم على نسخ
٦٤٧٣ صفحة بحروفنا اليوم . . دليلا على روعة المؤلف وثقافة القراء ،

فلا تروعنك أرقام توزيع الكتب الأوربية اليوم ، وتستدل منها ، إذا قارنتها بحظ الكتاب العربى ، على تفوق العقلية الافرنجية
كل ما فى الامر ، أننا فى مرحلة التخلف ، وفيها تبلدت العقول ، بل حتى الغرائز . . .

إن الافرنجى يقرأ الآن ، بعد أن جعلت الطباعة والصناعة من الكتاب تحفة أنيقة رشيقة ، ومن القراءة متعة حسية كما هى متعة عقلية . . أما نحن فقد قرأنا ونسخنا وألفنا ، يوم كانت القراءة معاناة . .
فقد أحصى صاحب دار نشر . . . « ابن النديم » مؤلفات المثقفين المسلمين بمئات الألوف عدا . . يوم كان التأليف معجزة ، يوم لم يكن فى أوربا كلها ألف نسخة من الإنجيل . . ودع عنك الكتب الأخرى . .
وما تزال قائمة المطبوعات التى أصدرتها « دار نشر » ابن النديم أحفل وأخلد قائمة من نوعها . .

وعندما نسمع عن مئات الألوف من المخطوطات العربية التى تملأ مكاتب ومتاحف وكنائس العالم كله . . فلنتذكر أنها الدليل الخالد على تعلق هذه الأمة بالثقافة ، وجهها للمعرفة واحترامها للكتاب والكتاب . .

وحسبك أن تتأمل هذا الكتاب الذى هو دائرة معارف كاملة ، يتناول اللغة ، ثم التاريخ الإسلامى ، وفلسفة الحكم ، وقيام الدول الإسلامية وزوالها ، ثم ترتيب وتبويب لجميع المعلومات الجغرافية بفروعها الحديثة ، البشرية ، والاقتصادية . . الخ وتلخيص لعدد هائل من الكتب ، مع تمحيص لرواياتها ، وتجميع لما تنثر منها فى شتى المراجع . .

تأمل هذه المراجع التي عالجها ، والتي أشار إليها ونقل عنها ، لتتقف أمام سؤال ضخم هو : كيف كان يحتفظ بالمراجع .. وكلها منسوخة .. كيف كان يرتبها في مجلسه إذا أراد الكتابة وهي بحاجة إلى ما يعادل مساحة ميدان كبير . . . أم كانت لهم عقول غير عقولنا تعنى فلا تنسى . .

واخترت هذا الكتاب ، لأنه أيضا ، جاء في أمسية حضارتنا ، لأن مؤلفه شرع في تأليفه سنة ٧٩١ هجرية أى منذ ستة قرون .. يوم بدأت شمسنا في الانحدار . . فهو يحمل طابع الغروب ، وجهد النهار كله ، وأيضا تعبهِ وميله لإغفاءة الليل . .

مؤلفه : « أبو العباس أحمد القلقشندي » . . مصرى المولد ، ولد في قرية « قلقشنده » بمحافظة القليوبية ، قبل أن تصبح محافظة طبعها . . . سليل المهاجرين من بني بدر بن فزارة ، عبر ثمانية قرون . . درس في الإسكندرية ، وعندما بلغ الحادية والعشرين من عمره ، أجاز بالفتيا والتدريس ، أجازهُ الشيخ سراج الدين أبو حفص الشهير بابن الملقن . . أجازهُ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي .

وكانت هذه الإجازة شهادة رسمية ، ولست أدري إن كان ابن الملقن يمكن وصفه بأنه عميد جامعة الاسكندرية ، في ذلك الوقت ، إلا أن رسمية الشهادة لا مجال للشك فيها ، لأنها كتبت بخط القاضي تاج الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بمدينة الاسكندرية .. ويؤكد جديتها أنها اشترطت على صاحبنا القلقشندي ، ألا يفتي إلا في حدود مؤلفات أستاذه ابن الملقن ، وما ثبتت صحته كالكتب الصحاح الستة ومسند الشافعي ، ومسند الامام أحمد بن حنبل .

لم تكن الأمور فوضى كما هي اليوم ، يفق التلاميذ ، فضلا عن
الذين أجبروا ، في أخطر القضايا . وتطالب الفتيات بأن يفتح لهن
باب الاجتهاد لتغيير نظام الزواج والطلاق ، قبل أن يعرفن
نواقض الزواج !

وفي سنة ٧٩١ هجرية التحق بديوان الانشاء ، فكتب رسالة صغيرة
في التعريف بواجبات وصفات وظيفته .. إلا أنه عاد فرأى أن
يتوسع فيها ويشرحها ، فكان هذا الكتاب الذي استغرق تأليفه ٢٣
سنة .. يعيش حتى يرث الله الأرض ومن عليها .. وليس هذا
الكتاب بمؤلفه الوحيد ، بل له عدة مؤلفات ، منها ما وجد
ومنها ما فقد ..

وأريد أن أقف ، ولو في عجلة شديدة ، على بعض اللامحات في
مقدمة الكتاب التي كتبها القلقشندي :

تأمل تواضعه واحترامه لجهد الذين سبقوه في فنه ، فهو ليس
كالطامحين في عصرنا ، الذين يحسبون أن الطريق إلى المجد لا سبيل إليه
إلا على جثث السابقين . فيكرسون جهودهم لتحطيم الجبل القديم ، فلا
يبقى على الحطام إلا الحطام ..

أما القلقشندي فيشيد بمؤلفات : « ملك الكتابة وإمامها ، وسلطان
البلاغة ومالك زمامها ، المقر الشهابي أحمد بن فضل الله العدوي العربي »

« فكتابه أنفس الكتب المصنفة في هذا الباب عقدا ، وأعد لها طريقة
وأعنيها ورداً . . . » ثم تلاه المقر التقوى ابن ناظر الجيش
« رحمه الله » فاشتهر ذكره وعز وجوده ، ووقع الضن به حتى بخل
بإعارته من عرف كرمه وجوده ، !

ثم يعتذر عن إقدامه على التأليف ، وتعلقه « بحبال هذه الصنعة . .
وإن لم أكن بمطلوبها مليا ، وانتسابي إلى أهلها . . وإن كنت في
النسبة إليها دعيا ، .

ويدعو كل من يملك معرفة أن يتقدم بنقده البناء كما نقول نحن
اليوم : « فرحم الله من وقف على سهو أو خطأ فأصلحه ، عاذرا لا عاذلا ،
ومنيلا لا نائلا . . فليس المبرأ من الخطأ إلا من وقى الله وعصم ، »

ثم يعلمنا القلقشندي أخوة الفن ، وتضامن أبناء المهنة الواحدة ،
لأنه : « إذا كنا نحفظ من ممت الينا بالانساب الجسمية التي لا تعارف
بينها ، فأولى بنا أن نحفظ من ممت الينا بالانساب النفسانية التي يصح
فيها التعارف .. ولذلك قال الحسن بن وهب : « الكتابة نفس واحدة
مجزأة في أبدان متفرقة ، »

وما أظن أن أحدا قد سبق القلقشندي أو الحسن بن وهب إلى
أجل من هذا التعريف بأخوة الفكر ، التي تتفوق على أخوة الدم . .
ووحدة الفن ، أو وحدة المعرفة التي تتكامل وتتام أجزاؤها من

خلال تعدد الكتاب وتنوعهم . .

« ومن تمام آداب الكتاب وكما لها ، أن يعرف حقوق مشايخ الصناعة وأئمتها ، الذين فتحوا أبوابها ، وذلّلوا سبلها ، وسهّلوا طرقها ، وباعملهم بالإنصاف فيما أعملوا فيه خواطرم ، وأتعبوا فيه روياتهم ، فينزلهم منازلهم ، ولا يبخسهم حقوقهم ، « وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ؛ وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل تجربته وقدم معرفته ،

« هذا ما قلنا في أول الحديث ، أن كل دعوة للبناء والثناء لا بد أن تتم بالأساس والجذور ، بالأسلاف ، فتتعلق من احترامهم ، وتقدير ما بذلوه من جهد ، وتلتزم بالنظرة الموضوعية التي يطالبنا بها القلقشندی ، النظرة التي تضع في الاعتبار ظروف عصرهم وحجم المعرفة المتاحة لهم . .

ومرة أخرى تتجلى عبقرية الفنان التي تتخطى حدود الزمان والمكان : لكان القلقشندی يطل علينا عبر القرون ليردد الشكوى الخالدة ، شكوى الأصلاء من الدخلاء ، شكوى الفنان من المرتزقة ، فيتحدث عن المتسللين إلى صناعة الكتابة الذين يعتمدون على المظاهر والصلات الخفية :

« فإذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدنى جودة ، أصلح بزمته ،

موركب برذونه أو بخلته ، وسعى في الدخول إلى ديوان الانشاء
والانضمام إلى أهله ،

وتكون النتيجة هي ما نراه في كل عصر وزمان : « ولعل الكتابة
لأنما يحصل ذمها بسبب هؤلاء وأمثالهم »

وانحطاط مستوى الكتابة يرجعه القلقشندى إلى فساد السلطة
بوجهها حتى : « صار العلم لديهم حشفا ، والاديب محارفا ، والمعرفة
منسكرة ، والفضيلة منقصة ، والصمت لكمة ، والفصاحة هجنة ،
اجتنبت الآداب اجتناب المحارم ، وهجرت العلوم هجر كبار المآثم .. »
وهكذا ترى أنه حتى منذ ستة قرون ، كان لدى الكتاب ما يشكونه
من فساد الزمان وتدهور القيم الادبية ..

وبفساد السلطة ينتشر الجهل ، وبانتشار الجهل تنهار الأمم ..
والقلقشندى كان من حظه أن يرى بداية النهاية .. ولعل هذا يفسر
ظهور النفاق : « فالعادة الجارية في أدب خدمة الرؤساء أن يصوبوا
ما يرتكبونه من خطأ ، ويحسنوا ما يواقعونه من قبح »

وقد نقول أن هذا ليس بالنفاق ، بل اكتشاف مبكر لدور أجهزة
الإعلام في العصر الحديث ، ولون من التزام الموظف العمومي برأي
الدولة لا رأي الخاص ، والتزامه بالدفاع عن سياسة حكومته وتبرير
موافقها مهما يكن رأيه في هذه السياسة .. ويعزز هذا الرأي
اشتراط القلقشندى في كاتب الإنشاء : « الاخلاص للسلطان والنصح
في خدمته ، بإطلاعه على كل التقارير ، فلا يستر عنه دقيقا ولا جليلا

من أحوال مافوضه إليه ، . ويطالبه في نفس الوقت ألا يضحي بمصلحة الشعب من أجل السلطان : « فلا يحمله فرط النصح له على الاضرار برعيته ، ولا الرغبة في إثبات حقه على تضييع حقوقها ، ولا القيام بما يجب له دون مايجب لها .. لكأنما يطالبه بان يلتزم حرفية وروح الدستور ، بما يحفظ حق الدولة ، وحق الشعب . . لماذا ؟ هنا يعلن القلقشندى مبدأ رائعا في فهم العلاقة بين الشعب والدولة ، أو الرعية والحاكم بلغة عصرهم ، يقول : « فإنها به ، وهو بها ، . . »

وهو يطالب الموظف بشكر السلطان ، لا بالخطب والمقالات والاناشيد ؛ لأن « الاكثار منه داخل في حكم الملق ، ولأنما يظهر شكر الخادم من أفعاله ،

وهو مطالب بالوفاء للسلطان عند إقبال الدنيا أو إدارها . لا أن يبيعه لأول واثب ، « ويجعل قدحه في الذهاب سبيله إلى قلب الوائب ، !

ثم يحدثنا عن شروط التعيين في هذا المنصب الخطير ، وأحسبني لا أذهب بعيدا ، لو قلت إن كاتب الإنشاء يعادل اليوم رئيس الديوان الملكي ، أو مدير مكتب رئيس الجمهورية . . لأن ديوان الإنشاء كان يقوم بالمهارة التي يختص بها صاحب هذا المنصب اليوم . .

وشروط التعيين بعضها يحتمه القانون ، وهي عشرة ، منها الجنسية والدين . . وقد أوضح « أبو العباس القلقشندى » شرط الدين توضيحا رائعا ، عندما ربطه بالصراع القومي ، فقد أشار إلى استعانة

الخلفاء بغير المسلمين . . وفسر ذلك بالوضع العالمى وقتها . . قال :
ولكن هؤلاء (أى غير المسلمين) لم يكن لهم ذكر ولا مملكة ، وليس
منهم محارب لأهل الاسلام ، ولا لهم دولة قائمة فتخشى غائلته وتخاف
عاقبته ،

فليس الأمر مبعثه تعصب عنصري أو دينى .. بل ضرورة قومية . .
لأنه عند ما ظهرت دول الفرنجة ، وأصبحت تهدد الوطن العربى ،
وبادرنا بصليبيتها ، أصبح الدين عاملاً أساسياً فى تحديد الولاء . .
وأصبح من غير المعقول أن يلى هذا المنصب الخطير غير مسلم . .

ويضيف القلقشندى إلى شروط التعيين القانونية والعرفية ، ضرورة
إلمام رئيس الديوان بالحالة العسكرية للشعب ، واتساع معرفته لتشمل
الفولكلور ، « حتى يحتاج إلى معرفة ما يقوله الناذبة بين النساء ،
والماشطة عند جلوة العروس ؟ وإلى ما يقوله المنادى فى السوق على
السلعة ، فإظنك بما فوق هذا ؟ وذلك لأنه مؤهل أن يهيم فى كل واد
فيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن . . . »

وقد كان القلقشندى ، كما اشترط على نفسه ، وأشهد أن معلوماته
الجغرافية والتاريخية عن الدول الإفريقية بالذات ، تصحح الكثير من
معلوماتنا حتى اليوم . .

ولا شك أن مثل هذا الكاتب ، لا بد أنه يعمل فى جهاز
دقيق له تقاليده ونظمه . . بل لا نذهب بعيداً فى تخرنا ، لو قلنا أنه
يحدثنا عن أسس الدولة الحديثة . .

فإذا بعثت الدولة بخطاب ، أرسل على سركى ، أو «أوراق الطريق»
- ويترك اسمه وتاريخ سفره والجهة التي توجه إليها ، والشغل الذي توجه
«بسببه ، بدفتر الديوان » .

فإذا كانت الرسالة مستعجلة ، وسترسل عن طريق البريد الجوى ،
نأى بالحمام الزاجل ، فتكتب من نسختين ، وتؤرخان بساعة كتابتها من
النهار ، ويعلق كل منهما في جناح طائر من الحمام الرسائل ويرسلان ،
ولا يكتفى بواحد ، لاحتمال أن يعرض له عارض يمنعه من الوصول إلى
مقصده ، فإذا وصل الطائر إلى البرج الذي وجه إليه ، وأمسه البراج ،
- وأخذ البطاقة من جناحه وعلقه بجناح طائر من حمام البرج ، وعلى ذلك
ينتهى إلى برج القلعة

ولا تظن أن الحمام الزاجل كان مجرد هواية أو «تقلية» . . بل
هو نظام بريدى دقيق ، له أبراج على محطات محددة المسافة ، وحمام
مدرب يديره مشرفون أكفاء أمناء وفق نظام غاية في الدقة .

وكان على كاتب الانشاء . . أو رئيس ديوان الإنشاء أن يدير
جهاز مخبرات غاية في الدقة ، حتمته الحروب الصليبية ، فكان يدير
نشاط « الفداوية » وهم كما يفهم من القلقشندى ، بقية من الاسماعلية ،
كان سلطان مصر يستخدمهم في إرهاب خصومه أو حتى في اغتيالهم .

وعليه « أن يحترز عن أن تعرف جواسيسه بعضهم بعضا ، لاسيما
عند التوجه للهمام . وإن استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة

فعل ، وعليه أن يصفى إلى ما يلقيه إليه كل من جواسيسه وعيونه ، وإن
اختلفت أخبارهم ، يأخذ بالاحوط فيما يؤديه إليه اجتهاده من ذلك ،
ولا يجعل اختلافهم ذنباً لأحد منهم ، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق
غياً يقوله .

إلا أن جواسيسهم لم يكونوا مأجورين .. بل عقائدين - إن استعرنا
هذه اللفظة البغيضة - لأن القلقشندي يوصي رئيس الديوان « بأن يوبخ
المنحرف منهم بتذكيره أمر الآخرة ، وما في عمالة العدو والخيانة من
الوبال في الآخرة » .

يألت بعض أجهزة المخابرات في بعض الدول العربية طبع « صبح
الاعشى في صناعة الإنشا ، بدلا من « الحكومة الخفية » .. ويألتهم
آمنوا بعذاب الآخرة ..

بل وصلت مخابرات أسلافنا إلى درجة عالية من الكفاءة والتنظيم ،
فحرفوا الجاسوس المزدوج ، فيحولون جاسوس العدو إلى عميل لهم
« حينئذ يلقى إليه ما يراد تبليغه إلى صاحبه الأول مما فيه المكيدة ،
فيوصله إليه ، فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره من يهتمه » .

ولابد لهذه الدولة المحسنة التدبير من أرشيفات دقيقة تضبط حركتها
وتجعل من تجاربها خبرات متوارثة ، ومن كفاءات موظفيها تقاليد
وتراثا للدولة .. فيقول القلقشندي :

« لابد في الديوان من تذكر تشتمل على مهمات الأمور التي تنهى
في ضمن الكتب ، ويظن أنه ربما سئل عنها ، أو احتيج إليها ، فيكون

استخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عنها من الأضابير . . . »

« وأن يضع في الديوان دفترا بألقاب الولاية وغيرهم ، من ذوى الخدمة ، وكتابة أسمائهم ، وترتيب مخاطبتهم ، ومتى تغير شيء منه كتبه تحته ، ومتى صرف ، كتب عليه : صرف بتاريخ كذا ، واستخدم عوضا عنه فلان بتاريخ كذا . . . »

« أن يضع في الديوان الحوادث العظيمة وما يتلوها عما يجرى في جميع المملكة ويذكر كلا منها في تاريخه . . . »

« أن يعمل فهرساً للكتب الصادرة والواردة ، ويكتب تحت اسم كل من ورد من جهته : كتاب ورد بتاريخ كذا ، ويشير إلى مضمونه إشارة تدل عليه . . . »

« أن يعمل فهرسة لترجمة ما يترجمه من الكتب الواردة على الديوان بغير اللسان العربي من الرومى والفرنجى وغيرهما مصرحا بمعنى كل كتاب ومن ترجمه . . . »

« رأيت أن كل خصائص الدولة الحديثة كانت لدينا وقبل أوروبا بعدة قرون . . . فلما تخلفنا وانهارت حضارتنا تحولت هذه الخصائص إلى بيروقراطية نهانى منها حتى الآن . . . فلم يبق من حضارة الأسلاف إلا « السركى ، و « الصادر ، و « الوارد ، !

الإسلام والحشمة



﴿ اتركوا الأحباش ما تركوكم ﴾

« حدیث شریف »



ربما كان موقف الحبشة في الأمم المتحدة ، ومن العدوان الإسرائيلي
بصفة عامة ، مفاجأة لكثير من ذوى النوايا الحسنة ؟

ولكنه لم يكن كذلك للذين يعرفون الدور الذى تلعبه المصالح
الاستعمارية في شرق أفريقيا . ولا المخطط الغربى - الصهيونى الذى يتسلل
إلى الحبشة منذ القرن الثالث عشر . . . والارتباطات التى خططت
لاستخدام هذه الدولة ضد العرب والإسلام منذ الحروب الصليبية .

إن المخطط الأمريكى المنتشى بخمرة النصر الصهيونى ، يفكر فى تعميم
هذا النموذج الإسرائيلى . . أى خلق عدد من « كلاب الحراسة » هى
دول مرتبطة به ، متعارضة مع التكوينات الطبيعية للمنطقة المحيطة بها ،
تقوم على القهر العنصرى ، وتحكم الأقلية فى الأغلبية ، ويتغلغل فيها
النفوذ الصهيونى . . ومن خلال عزلتها هذه تتحول إلى ما يشبه الحاميات
الاستعمارية التى كانت تنشأ عند الشواطئ فى القرن السابع عشر لضرب
الحركات الوطنية ومد النفوذ الاستعمارى . .

إن جنوب أفريقيا يشكل نموذجاً لإسرائيلياً ممتازاً فى جنوب

أفريقيا . . أقلية عنصرية ، غريبة عن الأرض والشعب ، تحكم بالإرهاب
وحده . .

وجمهورية « بيافرا » ، هي تجربة لما يمكن أن يدبر في غرب أفريقيا ،
وإذا كان العنصريون في جنوب أفريقيا لديهم في جلودهم وأصولهم
ما يثمنهم بانفصالهم عن الأرض التي يستغلونها ، والشعب الذي يقرضون
حكمهم عليه . . فإن المخطط الصهيوني الاستعماري يعمل على خلق شعور
بالانفصال لدى الذين لا تميزهم جلودهم ولا أصولهم . . ومن المثير حقاً
أن نسمع زعماء بيافرا يعلنون أنهم من نسل لإسرائيل ! . .

أما في شرق أفريقيا ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية قد تعهدت
المشروع منذ الخمسينيات . . وليس سرا أنه توجد قاعدة أمريكية في
أسمره تستخدمها الولايات المتحدة كقاعدة ذرية وقاعدة لإطلاق
الصواريخ الموجهة ، وهذه القاعدة موجهة أساساً لدول شرق أفريقيا
والجنوب العربي . . وهناك تأكيدات بأن الحكومة الحبشية تضع مصوع
تحت تصرف الأسطول الأمريكي . .

ومن المؤكد أن للإسرائيليين سيطرتهم النامة على اقتصاديات
أرتيريا ، وتغلغلهم واضح داخل القصر . .

وإذا كانت تغذية روح الانفصال قد احتاجت في حالة بيافرا إلى
خلق فكرة النسب الإسرائيلي . . فإن هذا النسب موجود منذ قرون ،
ولنفس الهدف ، فالأسطورة موجودة بالفعل ، اخترعها كاهن منافق
لإسمه « نكلاهيانوت » ، لملك اسمه « يكونوا ملك » .

واسم الكاهن ، والامم الذى اخترعه للملك ، يؤكدان أنه أفاق خبيث
من الملمين باللغة العربية . بعض الإلمام .. فقد تنبأ للملك بأنه سيتولى
العرش ، وسماه « يكونوا ملك » ، أى يكون ملكا . . . وواضح أنها
جملة عربية كتبها من يجهل صحة الضبط فى اللغة العربية .

وتزعم الاسطورة أن هذا الملك ينحدر من سلالة الملكة بلقيس والملك
سليمان ملك اليهود . . وأن جده هو « منليك » الذى عاد من أورشليم
ومعه نفر من بنى إسرائيل . ولتأكيد صفته الإسرائيلية ، وخصائصه
الإسرائيلية ، تنسب الاسطورة له أنه سرق من بيت المقدس « تابوت
العهد » سرقه من أبيه الملك سليمان الذى كان يعرف لغة النمل ، ويحبس الجن
فى قنقم من حديد . . ولكنه لم يعرف كيف يحمى الصندوق من ابنه
وحمل نيليك الصندوق إلى الحبشة ، وأطلق على « أكسوم »
العاصمة اسم « أرض صهيون الجديدة » . . ولعل شعار الصهيونية
من الفرات إلى النيل . . يقصد « النيل الأزرق » ، فى أقصى الجنوب
بالحبشة . .

ويرفض كتاب : « الاسلام والحبشة » هذه الاسطورة ويقول
المؤلف المهندس فتحى غيث : « أنه من العجيب فى الحبشة المسيحية
شدة تمسكهم بعلاقاتهم (المزعومة) مع اليهود وتفاخرهم بها ،
والاحتفاظ بنجمة داود رمزهم ، وهو أمر لم نعهده فى أى وسط
مسيحي آخر » .

ويقند هذه المزاعم عن النسب الاسرائيلى لملوك الحبشة بقوله :

« لا يوجد بين المراجع المعتمدة ، ما يؤيد انحدار العائلة المالكية الحبشية من نسل سليمان عليه السلام ، اللهم إلا ما تقوله العائلة المالكة عن نفسها .. بل ليس هناك أى مرجع معتمد يؤيد وجود شخصية « منليك » وعلى ذلك فإن الأرجح أن القصة موضوعة .. »

ورغم الدعاية التي تركز على هذه الاسطورة التي ظهرت مع الحروب الصليبية ، بهدف فصل الحبشة عن المحيط العربي ، وتحويلها إلى أسفين يطنن القوى الإسلامية من الخلف خدمة للمصالح الصليبية .. ثم أعيد بعثها مع الغزو الاستعماري للقارة .. ويجرى التركيز عليها بعنف في هذه الأيام خدمة للمصالح الصهيونية التي تحاول أن تمزق كل الروابط الأفريقية التي تربط الأحباش مسلمين ومسيحيين بالعرب ..

رغم كل الدعاية التي تركز على هذه الاسطورة الآن ، سواء لإضفاء صفة خاصة على العائلة المالكة ، أو لتدعيم التعاون مع إسرائيل باعتبارهم أولاد عم رغم الاختلاف الفاضح في اللون ..

رغم ذلك فإن واقع الحياة في الحبشة يكتنفها .. فاليهود في الحبشة الذين اندمجوا مع السكان بعد أن هاجروا إليها من مصر والجزيرة العربية أصبحوا يسمون « الفلاشة » ، وهم لا يزيد عددهم على ستين ألفا والفلاشة باللغة الحبشية معناها الغرباء .. ومن غير المعقول في شعب ينحدر من صلب سليمان شخصيا أن يسمى اليهود « الغرباء » ؟

ولو أنهم أحفاد سليمان حقاً لما كان اعتناقهم للمسيحية قد تم بهذه
السهولة التي انتشرت بها في الحبشة ، ولما تقبلوا بمثل هذه السرعة لعن
اليهود في صلاتهم ... الأقرب للتصديق تعصبهم لليهودية ورفض
الدين الجديد الذي يطالب بلعن اليهود وأولادهم وأحفادهم ..

الحبشة والعرب

وليستعرض المؤلف علاقة الحبشة مع العرب ، وعلى وجه التحديد علاقة العرب بحكام الحبشة ، هذه العلاقة التي تحكمها من ناحية العرب وصية الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتركوا الاحباش ما تركوكم » .

وهذا الالتزام من جانب العرب ، هو الذى يفسر كيف بقيت الهضبة الاثيوبية وحدها كالجزيرة وسط محيط عربي وإسلامي في طوال أربعة عشر قرنا ، سادت خلالها علاقات التعايش السلمي ، وأحيانا الصداقة المتينة ، يدعمها أن كنيسة الحبشة أفريقية مرتبطة بكبرى الكنائس العربية ، وأغرق كنائس العالم .. الكنيسة المصرية ..

ولكن هذه العلاقة ، لم تخل في بعض المراحل من اضطرابات والتحامات .. كانت دائما من أصابع أجنبية .. أصابع الاستعمار الغربي تحاول أن تحرك الحبشة ضد جيرانها .. فتلزم هؤلاء الجيران ألا يتركوا الاحباش ما دام الاحباش لم يتركوهم .

والمتنوع لتاريخ الصدام بين الحبشة والعرب ، يجده دائما يأتي من
الجانب غير العربي .. وتأثير المصالح الأجنبية البعيدة عن مصلحة
العرب والأفريقيين

فأول صدام مشهور ومعروف كان بناء على تعليمات من
الإمبراطورية الرومانية .. أوعزت إلى الأحباش بغزو الجزيرة العربية
وهدم الكعبة .. ولقي الأحباش هناك هزيمة خالدة .. ومعجزة الهية ..
ويشاء الله أن يكون عام الفيل ، عام الغزو الفاشل هذا ، هو عام مولد
الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومع ظهور العرب على المسرح العالمي بظهور الإسلام .. بدأت
علاقات طيبة للغاية مع الأحباش . . . وسواء أصبحت الروايات
الإسلامية والتي يؤيدها عدد من المصادر الغربية عن ملك الحبشة على
عهد الرسول .. أنه قد أسلم . . . أو أنه احتفظ بعلاقته الطيبة وأكرم
المهاجرين المسلمين ، لنشوته بين قبيلة عربية في صدر حياته . . . ولأنه
استطاع أن يفهم الترابط ووحدة الأصل بين الدينين السماويين . . .
المسيحية والإسلام ، كما يروى عنه عندما سمع قصة المسيح ومريم
في القرآن .. فأشار بإصبعيه وقال : هذا الدين والمسيحية كهذين . . .
أي متماثلان ، فاستنكر ذلك رجال البلاط . . . (طييعي) فقال لهم :
ولو كرهتم .. ؟ !

سواء أصبحت هذه الرواية أم تلك . . . فإن من الثابت أن النجاشي
كان يتمتع بمحبة خاصة لدى المسلمين ، حتى أن الرسول كرمه بما لم يحظ

به أى حاكم آخر ، فقد صلى عليه رسول الله صلالة الغائب عندما بلغه نبأ وفاته . . ووصفه بأنه « ملك لا يظلم عنده أحد »

ومن الغريب ، بل المريب ، أنه فى الوقت الذى تفسج فيه المصادر الغربية والصهيونية الاساطير حول نسب ملوك الحبشة ، بهدف ربطهم بالقوى المعادية لنا ، وعزلهم عن العرب . .

فى نفس الوقت نرى بعض الذين يحملون الجفسية العربية يؤلفون الكتب للتشكيك فى اتصال المسلمين بملك الحبشة ، بل فى وجود تلك الصلة أصلا . . بل يبلغ الفجور بأحدهم أن يدعى أن النبى اختار الحبشة لهجرة المسلمين الاوائل . . لكرهية الاحباش للعرب . . ! فكأن رسول الله كان يستعدى على العرب . . !

يقول كتاب « الإسلام والحبشة » : « قرأنا لبعض الكتاب تحليلا يشككون فيه حتى بوصول المهاجرين إلى النجاشى وعاصمة ملكه ، ويحاولون لإثبات نزول هؤلاء المهاجرين عند أحد الملوك التوابع يقال له (بحر نجش) . . ولسنا على بينة - يقول المؤلف - ماهو السبب الذى يدفع هؤلاء الكتاب إلى إبعاد هذا الفضل الكبير عن النجاشى . . »

وليسمح لنا المؤلف . . أن نقول أننا نحن على بينة من السبب . . تخريب العلاقة بين الاحباش والعرب . . وتمكين المخطط الاستعمارى من أن يلعب دوره فى تحويلها إلى كلب حراسة وكنب صييد ضد جيرانها . .

مع الغزو الصليبي

وقد سادت هذه العلاقات الطيبة طوال الفترة من القرن الرابع إلى القرن الثالث عشر الميلادي ، ومع الغزو الاستعماري الأول من الغرب للوطن العربي ، المعروف باسم الحروب الصليبية بدأ التركيز على مصر ، ومع الوقفة الصلبة لمصر دفاعا عن الإسلام والعروبة ، تفاقم الحقد الغربي ضد مصر وبدأ التخطيط لتدميرها . . . والتفت الغرب الاستعماري إلى الامكانيات التي تمثلها الحبشة إذا ما قبلت العمل ضد مصر . . . ومن الغريب أنه مع الاتصالات الصليبية المريبة التي قام بها الاستعمار الغربي ظهرت أسطورة الابن الحبشي لسليمان وبلقيس !

وينقل المؤلف عن « كوابو » . . . « ولم يفت الصليبيون كذلك أن يتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحي ليتعاون معهم في حرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة ١٢١٨ م . . . ويقول « بحث الصليبيون عن حليف يقطع البحر الاحمر من الجنوب فلم يكن هناك أفضل من دولة الحبشة ليحالفوها ويعتمدوا عليها ، لذلك حرصت الباباوية منذ أوائل القرن الرابع عشر بالذات على تقوية صلتها بالحبشة ، فقام وليم آدم - الراهب الدومينكاني - برحلة طويلة زار فيها شرق أفريقيا والحبشة ثم عاد في ١٣١٦ ، وفي تلك السنة أرسل البابا يوحنا الثاني والعشرين سفارة من الدومينكان إلى الحبشة ولكن رجالها وقعوا في قبضة المماليك في مصر . كذلك كان مصير سفارة أخرى من الدومينكان أرسلها ملك فرنسا إلى الحبشة عام ١٣٣٨ . . .

« وبالرغم من الصعوبات العملية التي تحول دون اشتراك الحبشة في الحروب الصليبية بحانب الاوروبيين ، فإن فكرة استغلال الحبشة في القيام بعمل حربي ضد الممالك ظلت ماثلة في أذهان أصحاب المشاريع الصليبية في غرب أوروبا حتى أواخر القرن الخامس عشر . »

ويقول د . سعيد عاشور « أن هذه المشروعات الصليبية الخاصة باشتراك الأحباش مع الاوروبيين جاءت مصحوبة بفكرة أخرى نادى بهادعاة الحروب الصليبية طويلا ، هي تجويع مصر والقضاء على من فيها بتحويل مجرى النيل في الحبشة . وقد أشار فيليب دي ميزير صاحب المشرع الصليبي الكبير في القرن الرابع عشر إلى امكان تنفيذ مشروع تحويل مجرى النيل للقضاء على مصر نهائيا . »

وظلت هذه الفكرة تراود المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى ، فأرسل القونسل الخامس ملك أرجونيه إلى ملك الحبشة عام ١٤٥٠ يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من الجنوب في الوقت الذي يقوم فيه القونسل نفسه بغزو بيت المقدس وفلسطين . ولما اشتد النزاع بين مصر والبرتغال عقب كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، أرسل البوكر ك قائد الاسطول البرتغالي إلى ملك البرتغال يطلب إمداده بعدد كبير من العمال المدربين على قطع الصخور وحفر الأرض للعمل فوراً على تحويل مجرى النيل ، مما يدل على اعتقاد الأوروبيين والأحباش جميعاً في امكان تنفيذ المشروع ، أو على الأقل الحقد الذي يكتبه ضد مصر كل متطلع إلى الاستيلاء على الوطن العربي ، واحتلال بيت المقدس . »

ومع النشاط الاستعماري البرتغالي في البحر الأحمر .. لم يترك الاحباش
جيرانهم ولم يتركهم هؤلاء الجيران بدورهم .. واستمرت المعارك إلى
أن طرد البرتغاليون نهائيا من شرق أفريقيا .. واستتب السلام ..

بريطانيا

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت سياسة التوسع
الاستعماري في أفريقيا . وكانت المشكلة الرئيسية التي تواجه الاستعمار
الغربي وتهدد مستقبل الامبراطوريات في أفريقيا .. هي أيضاً ودائماً
مصر .. مصر التي كانت قد وحدت السودان وارتيريا والصومال ..
وأصبحت حدودها ملاصقة للحبشة .. وبدأت حركة تعمير واسعة .
أدت إلى انتشار العروبة والإسلام ..

وبدأت الدسائس البريطانية ، شجعت بريطانيا أطماع الامبراطور
تيودور .. وأوقعوا بينه وبين مصر .. فقد روى القنصل الفرنسي في
مصر ، بنديتي ، في رسالته إلى باريس في ٥ و ٣٠ نوفمبر ١٨٥٦ أن الامبراطور
يهدد بالاغارة على السودان المصري ويريد تحويل مجرى النيل إلى
البحر الأحمر . وكتب القنصل النمساوي إلى حكومته من الاسكندرية
في ١٨ نوفمبر ١٨٥٦ ، ان سعيد باشا كثير القلق من ناحية هذه الحركات
التي يقوم بها تيودور الجريء النشط ، وخصوصا ما يذاع في القاهرة من
أن وسوسة الإنجليز في أذن تيودور تزيده تدمرا وغضباً من الإدارة
المصرية في السودان . والواقع أن تيودور قد حصل على بعض المدافع
والبنادق لعاكره من عدن ، أي من الإنجليز ، ،

وقد بدأ تيودور سياسة مشاكسة مصر باضطهاد المطران المصري في الحبشة ، فلما سافر البطريرك نفسه إلى هناك .. اعتقله ومنعه من العودة ، وتدخل سعيد باشا عن طريق خطابات عديدة لإطلاق سراح البطريرك المصري .

ولكن تيودور الامبراطور المعروف بالمجنون يبعث برسالة إلى الملكة فيكتوريا ، فتنسى أن ترد عليه فيعتبر ذلك إهانة ويلقى القبض على ممثليها .. وترسل بريطانيا حملة لتأديبه عرفت باسم حملة « نابيير » ١٨٦٧ والتي انتهت بانتحار الامبراطور .. وقد رافق الحملة واحد من عتاة الاستعماريين الانجليز ومهندس الامبراطورية هو الكولونيل « سيرويدز » المقيم البريطاني في عدن ، وقد التقى مخططه مع الشاذ الاستعماري القارح « غوردون » في اختيار زعيم قبائل « التيجري » المعروف باسم « كاسا » ليكون المرشح لتنفيذ المخطط البريطاني ضد العرب والمسلمين ، فأمدوه بجميع أسلحة الحملة على ضخماتها .. فأصبح أقوى حاكم في أفريقيا .. وسموه « يوحنا » وجعلوه امبراطورا للحبشة وقال عنه غوردون : من الغريب أن يوحنا بشبني ، فهو متعصب ديني وله رسالة لا بد أن يحققها وهي إبادة الإسلام .

ولكن ثورة المهدي رضى الله عنه ، حطمت أحلام غوردون .. فيقتل على يد الثوار في قصره .. وتوقف جيوش المهدي حملات الإبادة التي شنها الامبراطور يوحنا .

الامبراطور المسلم

وفي عشية الحرب العالمية الأولى .. في سنة ١٩١٣ فوجئت الدول

الاستعمارية الغربية بإمبراطور مسلم في عاصمة الحبشة ١ .. الامبراطور
« لييج ياسو » ، وعلى عكس عادة الابطارة الذين يبادرون فور اعتلائهم
العرش بإعلان نسبهم اليهودي ، أعلن لييج ياسو أنه لا ينتمى للعائلة
السليمانية .. بل يقول « الندروف » ، أنه بدأ يعمل على اثبات نسبه
إلى الرسول ، ..

وتحركات الدول الغربية ، وقدم له قناصل إنجلترا وفرنسا وإيطاليا
مذكرة احتجاج واتهام بالميل للألمان .. واستعدت القوات الفرنسية
في جيوتق ، والإنجليز في بربره ، والإيطاليون في مصوع للزحف على
الحبشة .. وأعلنت الحماية على مصر ، واستصدرت بريطانيا في ظل الحماية
قراراً بخلع الامبراطور .. ووصل هيلاسلاسي إلى العرش ، وقبض على
الامبراطور المخلوع الذي ظل في السجن إلى عام ١٩٣٦ وقبل فرار
الامبراطور من اديس أبابا أعلن وفاة الامبراطور المسلم في السجن ..

ويقول المؤلف « ويذهب البعض إلى أن الامبراطور هيلاسلاسي
هو الذي ذهب إلى السجن على حدود كينيا وقتل لييج ياسو .. ولكننا
نستبعد هذه الرواية لبعده المسافة بين اديس أبابا وموقع سجن لييج ياسو
وصعوبة المواصلات .. وقد يكون كل ما سمعناه من قبيل الشائعات ،
ولكن الذي لا شك فيه أن الإمبراطور لييج ياسو مات في سجنه قبيل
دخول الطليان إلى العاصمة اديس أبابا في عام ١٩٣٦ .. ، وأنه كان
يخشى عند سقوط الدولة أن يقود حرب التحرير ضد إيطاليا ويعود
لعرشه ..

أريتريا :

ومع عودة هيلاسلامى إلى عرشه فى ١٩٤١ . . نشأت مشكلة أريتريا، فقد سعت الحبشة إلى ضمها ، وكانت أريتريا قد انتقلت من الحكم المصرى إلى الحكم الإيطالى إلى وصاية بريطانيا . وكانت أريتريا نموذجاً ينبض بالحياة فى أفريقيا ، وارتفع مستوى الشعب إلى مستوى عال، وكانوا يتمتعون بأنواع من الحريات لأعهد للاجباش بها ، فكان بأريتريا صحافة وجمعيات ومدارس ، وكان اتصالها بالعالم الخارجى مستمراً وعلى الأخص ببلاد العرب واليمن ومصر وإيطاليا . . .

وكان من المستحيل أن تمنح أريتريا الاستقلال فى سنة ١٩٥٠ فلم يكن من المعقول وقتها أن تستقل دولة أفريقية . . وكان أن سلبت أريتريا بضغط أمريكوى بريطانيا إلى الحبشة ، فى شكل نظام فيدرالى . وقد سارع الامبراطور بتأكيد نسبة الصيهورى فى الدستور الصادر فى ١٩٥٥ . . كما حرصت باقى النصوص على القضاء على استقلال أريتريا . .

الحركة الوطنية فى أريتريا :

وبضم أريتريا للحبشة أصبحت غالبية الشعب المطلقة فى الحبشة كلها من المسلمين . . ولكن الحركة الوطنية فى أريتريا لا تقتصر على المسلمين ، بل تضم وطنيين مسيحيين منهم البطل « ولديب ولد مريم » الذى يعيش حالياً فى القاهرة بعد معارك دامية خاضها ضد الاستعمار الاثيوبى . .

وجهة نظر هؤلاء أن اضطهاد الاغلبية يخلق دولة عنصرية رجعية

لا يمكن أن تكون إلا في خدمة الرجعية العالمية .. أى الاستعمار
العالمى .. فإن حكومة تمارس الارهاب .. تحارب ضد شعبها ، لا بد-
أن تتحول إلى إرهاب جيرانها والاعتداء عليهم ..

وبعد ..

فإن موقف أثيوبيا فى الأمم المتحدة كان خرقاً صريحاً لميثاق
منظمة الوحدة الأفريقية الذى يعتبر العدوان على أية دولة أفريقية-
عدواناً على المنظمة وأعضائها ..

وهذا الكتاب لعله يكون بداية لإعادة النظر فى سياستنا الأفريقية ..
والاهتمام بالروابط الحقيقية التى ترسخت عبر القرون وثبتت أمام
المحن والتجارب ..



الإسلام والرأسمالية



إن شئنا القول بأن الربا قد حال بين المسلمين وبناء المجتمع
الرأسمالى فالأحرى أن ذلك قد حدث لأنهم تعاملوا بالربا ،
وليس لأنهم تخرجوا من التعامل به ..
فلولا ديون حكام المسلمين لما سقطت بلادهم فريسة للاستعمار
الرأسمالى فى القرن التاسع عشر ..



« مكسيم رودنسون » ، حاز على شهرة مفاجئة في أوساط التقدميين العرب ، لأنه وهو من أصل يهودى — يضيق هو ذرعاً بمن ينسبه إليه — قد عارض العدوان الإسرائيلى الأخير ، وإن لم يعارض وجود إسرائيل .

وكتابه هذا « الإسلام والرأسمالية » ، أثار اهتمام المعلقين من الدوائر التقدمية ، واعتبروه كشفاً فى تاريخ الدراسات الإسلامية والحق أننى لم أقع على أى نقد جدى له إلا فى مجلة جزائرية هى مجلة القبس ١ .

أما عندنا فالغريب أنهم قدموه للقارئ العربى من خلال أ كذوبة تدعى أنه الحجة التى تثبت اشتراكية الإسلام ، بل أذكر أن بعضهم كتب يقول أن مكسيم رودنسون اكتشف أن الإسلام يتعارض مع الرأسمالية ١١

ونفس الأ كذوبة يرددها مترجم الكتاب وناشروه فى تعريفهم به ، فيصفونه بأنه « فى آخر المطاف دعوة يوجهها المؤلف إلى المسلمين

١ (١) أكتوبر ١٩٦٧ .

الآخذ بالاشتراكية . يوجهها لإلهم كمسلمين ، أعنى دون أن يرى تنافياً
جذرياً بين عقيدتهم الدينية وبين الأسس الاشتراكية التى قد يقيمون
عليها بنية مجتمعهم الاقتصادية ونظام الحكم المتسق معها ،

وهذه العبارة أبعد ما تكون عن التعريف بالكتاب ، بل لعلها
تعرف بعكس ما استهدفه المؤلف ، وما حرص على أن يعلنه فى عنوان كتابه ،
فهو قد سماه « الإسلام والرأسمالية » ولم يسمه « الإسلام والاشتراكية »
وكان دقيقاً فى اختيار عنوانه ..

بل هو بالأحرى وفى آخر المطاف إن شئنا الدقة ، دعوة يوجهها
المؤلف للمسلمين للتخلي عن الإسلام إن أرادوا الاشتراكية ..

ولكنه يناقش علاقة الإسلام بالنظام الرأسمالى ، ويحاول فى مناقشته
أن يجيب على سؤال طرح بهـين المفكرين الغربيين خلال القرنين
الماضيين .. وهو : لماذا لم تظهر الرأسمالية فى العالم الإسلامى ؟ ..
لماذا قامت فى الغرب ولم تقم فى الشرق حيث كانت حضارة الإسلام ؟ ..
والمؤلف يحاول قدر جهده أن ينفى مسئولية العقيدة الإسلامية فى
منع قيام النظام الرأسمالى فى العالم الإسلامى .. ويؤكد فى كل صفحات
الكتاب أنه ما من مانع « شرعى » كان يحول بين المسلمين وبين الآخذ
بالنظام الرأسمالى ..

وأكثر من ذلك ، أنه عندما تعرض للاشتراكية وعلاقتها بالإسلام ،
نراه يأخذ جانب رأى الذى ينفى الصلة بين الإسلام والاشتراكية
والذى يرفض اجتهادات الذين يتطلعون إلى بناء وطن حر قوى للمسلمين

ومن ثم يجتهدون في اكتشاف الأساس الاسلامي للضروريات الاقتصادية
التي يفرضها تطور بلادهم ..

ولكننا نرى « مكسيم رودنسون » المتهم بالتوفيق بين الاسلام
والاشتراكية يؤيد فتاوى أعداء الاشتراكية ضد « الاشتراكية الاسلامية » ،
ويعلن أن المسلمين الذين يرون أن الاسلام يؤيد الملكية بغير تحفظهم
أصحاب الحق ! ثم يحشد كل الآيات التي يفسرها البعض بأنها تأييد
للطبقة . ويعلن أن « محمدا » لم يكن اشتراكياً كما اعتقد بعض
المؤرخين ، ١ .. بل ويشكك فيما وصل إلينا عن مواقف أبي ذر ، الذي
يصفه بأنه « حظى بشعبية ضخمة ومفاجئة في العالم الاسلامي في القرن
العشرين ، فقد وجد فيه اليسار الاشتراكي والشيوعي أستاذاً ذا سبق ،
أو هو على الأقل قد اتخذ من قصته برهانا على أن الأفكار ذات الاتجاه
الاشتراكي ليست غريبة عن التقاليد الإسلامية » .

بل يزعم أن التيار الذي كان يمثل أبو ذر « كان يتعارض مع اتجاه
محمد نفسه » ، ويؤيد المؤلف رأى علماء الأزهر في ١٩٤٨ ضد الذين
استدلوا من سيرة أبي ذر على وجود الاشتراكية في الاسلام ، ١١

وقد ناقشنا في غير هذا الموضع موقف أبي ذر ، ويمكن أن نقول
هنا في موضوع نسبة آرائه للاسلام أن أبا ذر كان يستند إلى تفسيره
للآية الكريمة « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل
الله فبشرهم بعذاب أليم » وحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو كما كان

أبو ذر يقول : « أوصاني خليلي أن أي مال ، ذهب أو فضة ، أو كى عليه فهو جمر على صاحبه حتى ينفقه في سبيل الله » .

فواقف أبو ذر ودعوته ، كلها من صميم الاسلام ، لا تتعارض مع اتجاه محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ما بلغ أبو ذر شيئاً في سلوك رسول الله وزهده . . ولقد عاش صلوات الله عليه عيشة أشد شظفاً مما عاش أبو ذر ، وتوفاه الله عن تركة أقل مما أورت أبو ذر أهله .

ويؤكد المؤلف في الفصول الأخيرة من الكتاب أن « الحديث عن تعارض جوهرى بين الاسلام والرأسمالية حديث خرافة ، بصرف النظر عما وراء القول به من قصد حسن أو سيء . فعلى الصعيد النظرى ، ليس في الدين الإسلامى أى اعتراض على صيغة الانتاج الرأسمالى » .

وينتقد محاولات : « الاستخدام الشعبى لشعار الاسلام ولحرمة الاسلام كلواء تستظل به اختيارات متفاوتة في مدى حظها من الاشتراكية » .

ويرى أنه المسلمين الرأسماليين في موقف أفضل كثيراً من موقف أولئك الذين يؤلون القرآن والسنة في الاتجاه التقدمى . . أولاً لأن النصوص في مصلحتهم (١) ، ولو قيل العكس ، إذ أنها وضعت في عصر آخر لم يكن حق الملكية فيه يلقى معارضة جدية .

ويعود فيؤكد أن « اتجاه المجتمعات الاسلامية جزئياً نحو الاشتراكية ليست له من صلة بتعاليم الاسلام إلا بمقدار ما كانت كل الأديان تعبيراً عن مطالب إنسانية أساسية » .

ويقول : « ولئن كان ممكناً أن يشهد المستقبل طريقاً مغرباً
أو جزائرياً أو مصرياً أو عربياً أو تركيا أو فارسياً نحو الاشتراكية ،
فقليل الاحتمال أن تسكون الملامح الرئيسية لهذه الطرق مدينة بالكثير
لدين الاسلامى . »

وهو يرفض إمكانية أن يقوم الاسلام بدور التعبئة الايدلوجية التي يعتبرها
شرط تحقيق التنمية الصناعية ، لأن التجربة التاريخية والتحليل النظرى
الذى أوردناه كلاهما لا يشجعان على أن نرى فى الدين الاسلامى اليوم
عاملاً من شأنه تعبئة الجماهير من أجل البناء الاقتصادى ، وبصورة
خاصة بعد أن أصبح واضحاً أن هذا البناء لا بد له أن يكون ثورياً
بالضرورة ، هداماً للبنى السائدة

ويرفض تجربة الثورة الجزائرية التى يرى بعض مفكرىها : « أن
الاسلام هو العامل الوحيد الذى يمكن باسمه الوصول إلى قلوب الفقراء » .
ويرى فى تعلق الجماهير بالاسلام « ظاهرة وطنية وطبقية » ولا يقول
لنا ما الضير فى ذلك ؟ ويتساءل فى استنكار : « كيف يمكن استخدام
الاسلام كإيدلوجية » ؟ كيف يمكن أن نعلن باسم الاسلام وجوب تأميم
هذه الممتلكات أو تلك ، وأصحاب هذه الممتلكات أئمة ونماذج
تقوى (١) وأكثريّة رجال الدين يعلنون عن حق (١١) أن الإسلام
أقر الملكية الخاصة . .

كان التأميم عقوبة تفرض على غير الاتقياء . . . أو كان التأميم
يعنى إلغاء الملكية الخاصة . .

المهم أن الكتاب.. كما ترى - بعيد كل البعد عن أن يكون محاولة للربط بين الاشتراكية والاسلام . . ولنتفق من البداية على أننا لن نفقد فيه عن فتوى بشرعية الاشتراكية ، فنحن لا نتلمسها من مستشرق ، وهذه القضية لم يثر الجدل حولها في بلادنا قط من جانب الجماهير المسلمة . .

ولا نحن نبحث فيه عن اشتراكية أو ثورية الاسلام ، فنحن نقول من أنه صالح لكل زمان ومكان . . وصفة الزمان أنه يتغير ، وصفة المكان أنه يختلف ، وشرط الصلاحية لكل زمان ومكان هو قابلية التغير ، أى أنه لا يفرض نظاماً محدداً قاطعاً في تفاصيله الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، بل يضع مبادئ وأساساً ترسم سلوك الفرد و سلوك المجتمع ، ويتحرك الناس في إطارها لبناء ما يصلح حياتهم .

وإذا كان دخول العالم الاسلامى عصر الصناعة يبدو مستحيلاً بغير التعبئة الجماعية لطاقات الأمة والدولة ، فإن الاشتراكية تبدو قضية تفصيلية وحتمية أمام الشعوب الاسلامية ، وهى لا ترى فيها ما يتعارض مع دينها ، بل تراها من صميم مبادئ الاسلام ، لا تحتاج لمن يعلمها لها ولا من يفتى لها بشرعيتها . . وترى أن الرأسمالية باستغلالها وأنانيتها وحتمية الاستعمار فيها ، تتنافى مع روح الاسلام وتعاليمه . . وما تراه الأمة الاسلامية حقاً فهو الحق . .

يقول رسول الله : لا تجتمع أمتى على باطل . . فإن أرادت الجماهير نظاماً اقتصادياً معيناً وأجمعت على ذلك ، أصبحت تشريعات هذا النظام من صميم الشريعة . .

فالإسلام قائم قبل الاشتراكية ، قائم في مرحلة الاشتراكية . .
قائم بأذن الله بعد ما تتخطى حركة التاريخ هذه المرحلة إلى
مرحلة غيرها .

فنحن لا نتعرف على الإسلام ولا على الاشتراكية التي تعيننا في
الوطن الإسلامي ، في كتاب الإسلام والرأسمالية لمكسيم رودنسون .
ولكن سنتعرف فيه على بعض مایروجة مفكرو الغرب عن الإسلام .
هذه النظرة التي بدأت عنصرية متعصبة ، ورغم تطورها اليوم ،
ومحاولتها الاتصاف بالموضوعية ، وبذل جهد أكبر في محاولة الفهم
كما يفعل مكسيم رودنسون - لأنها مازالت بعيدة عن فهم روح الإسلام
وحقيقة تعاليمه .

ويبدل المؤلف جهدا مخلصا في تفنيد الادعاءات التي سادت الفكر
الغربي حول تفسير أسباب ظهور الرأسمالية في الجانب غير الإسلامي
من العالم . .

وإذا كانت أساطيل الغرب ومدافعه قد حالت بيننا وبين دخول عصر
الصناعة ، فكما يقول المؤلف أن المعاهدات التي فرضت على الدولة
العثمانية : « كانت في واقعها تقطع الطريق مسبقا على أية محاولة محتملة لبناء
صناعة عثمانية . . » هذه المعاهدات التي فرضها بالمرستون والاسطول
البريطاني على مصر ، واضطر محمد علي أن يعلن أمام معبد حرية التجارة
ندامته وتوبته النصوح عن محاولة التصنيع . ويقول : « ومن الواضح
أن مثل هذه الظروف كانت تجعل أي جهد للتصنيع المستقل أمرا

مستجيلا ، إذ كانت قوة « الإمبرياليات » الغربية اقتصاديا وعسكريا تجعل من العسير جدا عليهم - إذا لم نقل من المستحيل - أن يحققوا التصنيع .

ولكن أساطيل الامبرياليات الغربية ، لم تكن وحدها هي التي تعمل . . بل مدفعية أخرى لا تقل عنها خطورة ، وهي كتاب الغرب وفلاسفته ومستشرقوه ، الذين عكفوا على التفتيش عن أسباب تخلفنا ! وبالطبع لم يكتشفوا الاستعمار ، بل اكتشفوا الاسلام !

فالاسلام هو سر تخلف العالم الاسلامي ، لأن الاسلام يعادى التصنيع . . . وعقدة العقد التي حالت دون قيام الرأسمالية في بلادنا هي تحريم الربا !

« ج . أوستري » يرى أنه « لما كانت عقلية الاسلام السلفية لم تساعد على نمو الرأسمالية ، فان الاساليب الرأسمالية لم تدخل الاقليلا في صناعة البلدان الاسلامية وقجارتها ، لذا كانت أكثر المشروعات الهامة من صنع الأجانب » .

بل ويدهش من وجود تكنولوجيين مسلمين !

وبموجب هذا المنطق الذي روجه مستشرقو الاستعمار ، لم يكن الاستعمار هو السبب ، بل الاسلام ! الذي منع المسلمين من بناء المصانع ، مما اضطر الأجانب مشكورين إلى تولي هذه الأعمال !

وليت الأمر اقتصر على تحريم الربا . . بل إن حالة المسلمين

ميتوس منها ، فهناك أيضا السحر . . « إيمان الإسلام بالسحر »
منع توفر العقلانية الضرورية لقيام الصناعة الرأس مالية . . كما يرى
وير . . وكذلك « القدر المحمدي » يحول دون المغامرة المطلوبة في
النظام الرأسمالي . .

« والقدر المحمدي » كالغول والغنقاء والحل الوفي ، ولكنه من
اختراعات الفكر الصليبي في عنفوان كراهيته وتعصبه ضد الإسلام ،
ومحمد بالذات من بين الأنبياء هو الذي شرع له القتال دفاعا عن دينه وعن
حرية المسلمين في تصريف شئونهم . . وكان يخرج للقتال لابسا خوذة
على رأسه ، ودرعا على بدنه ، حاملا ترسا وسيفا ، وغطاه المسلمون بأجسادهم
يوم أحد ليحموه من السهام . . وحفر الخندق حول المدينة ليمنع
وصول جيش العدو له . . وكلها تصرفات تؤكد أن الإسلام ما بشر ،
ولا المسلمون آمنوا لحظة واحدة بهذا الاستسلام البليد للقدر كما
يصوره كتاب الغرب من الدرجة الرابعة . .

بالعكس إننا نستطيع ان نقول أن الإيمان بالقدر كما هو في الإسلام
يل كما هو في كل دين ، يدفع المرء الى المخاطرة ، فما دام ان يصيبنا
إلا ما كتب الله لنا . . فلماذا نخاف . . وما الذي يمنعنا من أن
نطلب الأفضل ونسعى إلى النجاح . . أو هو كما يلته عمر بوضوح
وعبقرية إسلامية خالصة . . فعندما أراد الرجوع من الشام لوجود
الطاعون به ، وسئل أتفر من قضاء الله ؟ . . « رد نعم إلى قضاء
الله . . » ثم ضرب مثلا بالرجل إن أحسن اختيار المرعى لإبله فبقضاء
الله ، وإن أساء فبقضاء الله . . لذا فالراعى مطالب بأن يجتهد ما وسعه

في اختيار المرعى لأنه لا يعرف ما قضاء الله . . وهو مسئول عن أن ينشد الأحسن ، وعاد عمر إلى المدينة ، هاربا من قضاء الله في الشام إلى قضاء الله في المدينة . .

ولكن طريق المسلمين حافل بالاشواك ١١ فهناك أيضاً « الصدقة والإحسان » ، يبعدان الكثيرين عن العمل المنتج ، ورأى ارنست رينان ورينيه شارل أن الاسلام يمنع تابعيه من أية مبادرة اقتصادية تقدمية ويحكم عليهم بالجمود . . ،

ولا أظن أنه يوجد في تاريخ المبادرة الاقتصادية مثل عبد الرحمن ابن عوف في عفته وامانته وشرفه ونجاحه الاقتصادي الخرافي . . ودلوني على السوق ، شعار يصلح أن يكتب بالذهب فوق أعظم مؤسسة اقتصادية في العالم . . لولا أن السوق الآن والتعامل فيها مجرد من القيم والشرف ١ .

ويرى « ويبر » ، أن العقلانية لا تتوفر إلا في العقلية الغربية . .

(١) هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة لايملك شيئا ، فلما وصل إلى هناك أخى رسول الله بينه وبين سعد بن الربيع . . فقال له سعد الانصارى : هذا مالى خذ نصفه ، ولى زوجتان أطلق لك واحدة فتزوجها . . فقال عبد الرحمن ابن عوف « بارك الله لك يا أخى فى اهلك ومالك . . لاحتاجة لى بهما . . دلوني على السوق . . » وذهب عبد الرحمن بن عوف إلى السوق فباع واشترى (بغير رأسمال) وتصدق بماله كله أو نصفه أو ثلثه عدة مرات) وكان يتصدق بالقافلة كاملة : الجمال وما تحمله ! . . ثم مات عن حوالى ٣٢ مليون دينار ، وكانوا يسكسون الذهب الذى خلفه بالنفوس . . أبعد ذلك مبادرة اقتصادية ! . .

وقد تصدى مكسيم رودنسون في جهد ملحوظ لتفنيد هذه الآراء قدر ماوسع عليه ، فأثبت عقلانية الإسلام ، وتفوقه في هذه الناحية على كل الايدولوجيات والديانات السابقة عليه .. ثم ركز جهده في معظم فصول الكتاب لإثبات أن الإسلام لم يكن ليعوق قيام المجتمع الرأسمالي لا من الناحية الايدولوجية ولا من ناحية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع ..

وقد بذل جهداً ، لانظنه أنه كان بحاجة إليه ، لإثبات أن تحريم الربا لم يكن يلتزم بصفة جدية في المجتمعات الإسلامية ، وأن الملكية الخاصة موجودة ومعترف بها ، وأن استغلال العمل المأجور مشروع وقائم في المجتمع الإسلامي .. وبالتالي فكل مقومات النظام الرأسمالي كانت متوفرة ، لو أتيح لها المناخ اللازم لنموها .. ولو أنه يعترض على رأى المستشرقين السوفيت الذين يزعمون أن المجتمعات الإسلامية كانت حبلية بالرأسمالية لولا أن أجهضها الغزو الاستعماري ، فهو يرى أنها كانت عاقراً بفعل أسباب خارجة عن الدين الاسلامى .

ولنبداً بمناقشة أفكار الكتاب على ضوء هذه المعرفة بنوايا مؤلفه واجتهاداته ..

لماذا الإسلام ؟

وإذا كان المؤلف يسلم بضرورة التعبئة الايدولوجية للدول النامية إذا ما أرادت أن تحقق ثورتها الصناعية اليوم ، فإنه يرفض أن تتم هذه

التعبئة باسم الاسلام ، لانه يخشى أن تفوز قوى التخلف في لعبة تفسير النصوص والشعارات ..

ولكن من قال أن وجود قوى متخلفة تنسب نفسها للاسلام لمصلحتها الطبقية ، يعنى أن تترك لها الميدان .. بزعم أن حجتها أقوى وأنهم يقفون تاريخيا قبلنا على هذه الأرض ؟ .. فمن الأفضل أن تتركها لهم ونتحرك نحن إلى أرض جديدة ؟ ١٩ .

صحيح أنه في الحرب يفضل دائما أن تختار أنت أرض المعركة وأسلحتها .. ولكن ، كم من معارك التاريخ دارت وفقا لمزاج المتحاربين ؟ وكم في التاريخ من أمم وحركات وقواد ، هزموا وبادوا ، لأنهم ظنوا أنهم يجب ألا يقاتلوا إلا وفق شروطهم ، فلم ينتظرهم خصومهم ولا رحومهم ١ .

والأرض الوحيدة التي يمكن أن يقوم عليها بعث حضارى للعرب هي تلك التي يشكلها التراث الاسلامي .. وخبرة العمل العربي تؤكد أن الجماهير تعيش هذا التراث وتستجيب له وحده .

وجود تفسيرات متخلفة للاسلام لايعنى أن يدير المخلصون المتطلعون لعزة أمتهم ظهرهم للاسلام ، فالنظرة العلمية للاسلام تؤكد أنه دائما أبدأ إلى جانب القوى النامية الراغبة في بناء المجتمع الأفضل والقادر على مواجهة تحديات العصر ..

وأنه ما من دعوة صالحة تستند إلى العلم وحاجة العصر وإرادة

التغيير عند الجماهير وجدت حائلا حقيقيا من نصوص الدين الاسلامي
وتفاسيره ..

على أية حال ليست القضية قضية من هو الاقدر على نسبة مصالحه
للاسلام بقدر ماهي محاولة لفهم الأساس الوحيد والسليم لأي حركة
تستهدف حقيقة إطلاق طاقات هذه الأمة ، مستندة إلى تراثها الخالد
البناء مستقبل زاهر ..

والذين ينصحوننا الآن بالتخلي عن الاسلام لكي تتمكن من بناء
الاشتراكية ، يقفون نفس موقف الذين كانوا ينصحوننا خلال القرن
التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بالتخلي عن الاسلام لكي تنجح في
بناء الرأسمالية ، وهم الذين يحاول رودنسون الرد عليهم في كتابه هذا
فاذا به يسقط في نفس موقفهم !

انها محاولة الغرب المصرة على اختلاف الشعارات — لدفع المسلمين
إلى التناقض مع الاسلام والتخلي عنه ، فليس الهدف أبدا إقناعنا بالرأسمالية
ولا كسبنا للاشراكية ، بل تجريدنا من الاسلام .

وكما لم تنجح الحركات ولا الحكومات الاسلامية التي صدقت هذه
النصيحة المسمومة ، فتخلت عن إسلامها سعيا وراء سراب المجتمع
الرأسمالي ، فعادت بخفي حنين قد خسرت الإسلام والاستقلال ..
هنا نفس الحفنين في انتظار من يحاول اليوم أن يرتكب نفس الخطأ ..

الربا

فلتناقش إذن القضايا التي يثيرها الكتاب .. ولنبدأ بقضية الربا ..

والمؤلف هنا يرد على عدد من مؤا في الكتب الشعبية والدراسات الاقتصادية العامة والحقوقيين ، الذين يحسبون أنهم باستخدام بعض الكلمات العربية الرنانة يستطيعون أن يبرهنوا على أن تحريم الربا قد عاق المسلمين عن ممارسة أى نشاط اقتصادى من النمط الحديث ، إذ أن آراءهم تلقى اذنا صاغية لدى أولئك الذين ينهرون بعلمهم أو الذين لديهم الاستعداد للقبول بنظرية ترضى عنصريتهم وعداءهم ، وإن زيفوها أحيانا بستار من الإعجاب الكاذب بحضارة تقليدية يسبغون عليها المثالية بزعمهم أنها سمت عما انساق إليه العالم الحديث من لهاث وراء المال .

وإذا كان الذين يروجون هذه الآراء عنصريين ، بحكم نسبتهم القصور إلى أخلاقيات الأمم غير الغربية ، فإن الموقف الذى يتخذه رودنسون لا يخلو من عنصرية ، عندما يرفض وجود اختلافات بين مفاهيم الحضارات وقيمها ، فالنرجسية المصابة بها الحضارة الغربية تجعلها تتأمل نفسها فى إعجاب ، بل وأكثر من ذلك ترى ملاحظها فى كل ما تتأمل . . فما دامت الحضارة الغربية حضارة مادية قامت على الربا ، فلا بد أن كل الحضارات قد سلكت نفس السلوك ، وكل ادعاء غير ذلك هو من باب خداع النفس . ١

ويرد أيضا على أولئك الذين قالوا : أن تحريم الربا قد جعل تجارة المال فى العالم الاسلامى حكرة فى ايدى المسيحيين اولائهم فى ايدى اليهود من بعدهم .

ولو أن رشيد رضا قد رد على هذه المزاعم قبل مكسيم رودنسون بنصف قرن عندما قال : « يقول كثير من الناس الذين تعلموا وتربوا

تربية عصرية . . أن المسلمين منوا بالفقر وذهبت أموالهم إلى أيدي
الاجانب وفقدوا الثروة والقوة بسبب تحريم الربا ، فإنهم لاحتياجهم
إلى الأموال يأخذونها بالربا من الاجانب ، ومن كان غنيا منهم لا يعطى
بالربا ، فقال الفقير يذهب ، ومال الغنى لا ينمو . . يعنون أنه ما جرى
على المسلمين إلا دينهم . وهذه أوهام لم تقل عن اختبار ، فإن المسلمين
في هذه الايام لا يحكون الدين في شيء من اعمالهم ومكاسبهم .

ولنا اعتراضات على المنطق الذى استند إليه مكسيم رودنسون في
مناقشته لقضية الربا . . فهو يرى :

أن المسلمين لم يلتزموا إلا فترة نادرة ، يجوز إسقاطها من تاريخهم ،
بتحريم الربا ، فهم إما تعاملوا به صراحة . أو احتالوا على النص بسذاجة
بعض الألاعيب الفقهية .

وهو يبنى كتابه كله على هذه الفرضية التى تبدو من شدة تحجرها
كأنها حقيقة لا تحتمل الجدل . .

وهى القول بأن النظام الرأسمالى هو المناخ الوحيد الذى كان من
الممكن أن تنبت فيه الثورة الصناعية وتنمو ، والنظام الرأسمالى لا يمكن
تصوره بغير الربا «العائدة» ، فنتيجة البدء هى الربا فالرأسمالية فالصناعة .
من هنا يبذل مكسيم رودنسون جهودا جبارة لتبرئة ساحة الإسلام من
تهمة سد الطريق على الصناعة ، بإثبات أكل المسلمين للربا !

غير أننا نرفض هذه الفرضية ، ونرفض كل ما يبنى عليها من
نتائج . . لأننا لا نجد دليلا مقنعا — غير أنه — هكذا جرت حركة

التاريخ — على أن شعوب العالم الثالث كانت عاجزة عن أن تحقق التصنيع
بغير الشكل الذى قدمته الحضارة الغربية . .

لأننا نعيش اليوم تجربة تقدم الدليل المضاد لهذه الفرضية ، فشعوب
العالم الثالث يتأكد لها كل يوم أنها لا تستطيع تحقيق الثورة الصناعية
في بلادها ، إذا اصررت على أن تسلك نفس الطريق الذى سلكته الرأسمالية
في الغرب . . فلماذا نصادر حركة التاريخ ونزعم أن هذا الوضع الذى
نعيشه الآن لم يكن ممكناً منذ ستة أو حتى عشرة قرون !

الم يكن من الممكن أن تكتشف شعوب العالم الثالث طريقاً غير
الرأسمالية يحقق لها الثورة الصناعية ، لولا أنها سقطت تحت احتلال
الغرب الاستعماري ، الذى فرض أسلوبه في التطور ، ثم حال بيننا وبين
تجربة هذا الأسلوب ؟!

الم تدخل الشعوب الاسلامية في الاتحاد السوفيتي والصين عصر
الصناعة بغير المرور على مرحلة الرأسمالية ، فمن الذى حتم أن تمر الشعوب
الاسلامية بمرحلة الرأسمالية وتعاطى الربا لكي تصل إلى الثورة الصناعية !
ألا يرى المؤلف نفسه أن مسألة « معدل الفائدة » (الربا) قد فقدت
كثيراً من أهميتها بانتقال الدول الاسلامية إلى أنماط اقتصادية اشتراكية
أو حكومية على الأقل . .

أليس ذلك حجة لدينا . . ألم يكن من الممكن أن يحدث نفس الشيء
وأن تتم نفس الخطوة منذ عشرة قرون ؟ لولا الأحداث التي نزلت بالعالم
الاسلامي ، وهي الحروب الصليبية ثم الاعصار المغولي ، بمادمر امكانيات

النمو الحضارى ، وحول منحى التقدم الاسلامى إلى الثبات ثم الهبوط ..
 إننا نعتقد أنه فى ظل الفلسفة الاسلامية ، وما تحققه من اطلاق
 لا حد له لطاقت الانسان المبدعة ، وما تفرضه فى نفس الوقت من
 تكافل اجتماعى ، ومسئولية الدولة مسئولية كاملة عن الحياة فى مجتمعها ..
 نرى أن الحضارة الاسلامية كانت قادرة على ضوء ما وصلت إليه
 من معرفة علمية فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وما تجمع فيها من
 ثروات ، كانت قادرة ، على تحقيق الانقلاب الصناعى ، لولا العوامل التى
 كانت نتيجة عوامل خارجة عن ارادة المجتمع الاسلامى بصفة أساسية ،
 وإن كنا لانعنى ذلك المجتمع من مسئوليته فى العجز عن مواجهتها
 خارج حدوده ١ .

من هنا فنحن نرى أنه لو لاهذه الأحداث التى نزلت بالعالم الاسلامى
 لسكان من المؤكد أن يصل إلى صيغة إنتاجية أكثر سموا من الصيغة الرأسمالية
 وقادرة على تحقيق الانقلاب الصناعى ..

(١) على اية حال هذه قضية لا يمكن أن تبحث كل جوانبها فى هذا الحيز ..
 وفشل الحضارة الفريية رغم تفوقها التكنيكى وتمرسها فى وسائل القمع فى منع قيام
 حضارات معادية خارجها ، بل وتنبؤ المؤرخين بانتهاء الحضارة الفريية عن عمر
 أقصر مما عاشته الحضارة الإسلامية فى تألقها .. كل هذا يقدم عذرا لأسلافنا فى
 عجزهم عن مواجهة المصير المحتوم لسكل الحضارات .. وهم قد واجهوا اعصارا
 نادرا فى شكل غزو جماعى انقض على العالم الاسلامى من جانبيه ، فصدوه ، واستمروا
 فى الحياة بعده عدة قرون واسكن أنحتهم الجراح ، واصابتهم حمى القتال بتغييرات
 فى صميم تكوين المجتمع أدت إلى وقف النمو الحضارى (ارجع فى هذا لتحليلنا لأسباب
 قيام الدولة العثمانية فى كتاب القومية والغزو الفكرى) .

قال رأسمالية لم تكن قدرا محتوما على الشعوب ، والرأسمالية هو كلفة
السر التي يبدأ بها طريق الصناعة . .

أما القول بأن الرأسمالية قد حال بين المسلمين وتحقيق الثورة الصناعية . .
فذلك صحيح . . ولكن . . بعكس ما يقال تماما . .

فإن التعامل بالرأسمالية هو الذي منع قيام الصناعة في البلاد الإسلامية
وليس التأثم من التعامل به . . فلولا ديون إسماعيل ذات الرأسمالية الفاحش
لما انهار اقتصاد مصر ، ولما سقطت فريسة للمرابين الذين احتلوا البلاد
ومنعوا قيام الثورة الصناعية بها .

فليت حكام العالم الثالث التزموا بتعاليم الإسلام وتأثموا من الاقتراض
بإلحاح . . إذن لمكانت فرصتهم أكبر في دخول عالم الصناعة ولو حتى
في الشكل الرأسمالي . .

لقد كانت قضية الرأسمالية من القضايا المحرجة للمسلمين قبل ظهور
الاشتراكية ، عندما كان المصرف ، هو اله الصناعة ، وهو وحده الذي
يملك أن ينقل المجتمعات من التخلف إلى التقدم . .

وكم بذل علماء المسلمين من جهد لتبرير أو تفسير أو حتى تحليل
الفائدة !

ولكن هذه القضية لم تعد تثير الآن إلا الاعتزاز بالإسلام ، الذي
تحمي تعاليمه شعوب العالم الثالث من استنزاف ثرواتها باسم القروض . .
ولا شك أن تحريم الفائدة في مصلحة شعوب ثبت أنها تدفع سنويا
فوائد وأقساطا ضعف ما تناله من قروض . . وأنها عاجزة في ظل هذا

الوضع أن تحقيق معدل تنمية من هذه القروض يغطي حتى فوائدها . ١
ولا شك أن تحريم الربا يعنى قطع خيوط التبعية التي تربط الاقتصاد
الاسلامى بنظام المصارف العالمى الصهيونى فى حقيقته ١ ، والذي
لا يمكن أن يسمح ببناء اقتصاد مستقل مزدهر غير خاضع لسيطرته ،
ولا يمكن أن يسمح لشعوب العالم الثالث باستثمار ثرواتها وبناء حضارتها
والدفاع عن نفسها ضد عدوان الرأسمالية الغربية . ومهما كان حجم
الاستقلال السياسى الذى تناله شعوب العالم الثالث ، فإن هذا الاستقلال
يقدر خرافة باستمرار خضوعها لسيطرة البنوك الغربية ، وما من سبيل
إلى تحررها إلا خروجها من دائرته ، ولا شك أن تحريم الربا يخرجها
تماما من قبضته . .

غير أن النقاش اليوم حول الربا ، يعد نموذجا للتفكير الجزئى العقيم ..
وما أسخف أن يعيش المرء فى مجتمع لا علاقة له بالاسلام إلا أسماء
أفراد .. ثم يجهد نفسه فى البحث هل يجوز له الحصول على فوائد أمواله
فى البنك ، ولا يسأل نفسه أين تودع أموال هذا البنك ، وأين تنفق ،
وما علاقة ذلك كله بالاسلام ؟

إن الاسلام نظام شامل جاء لتنظيم مجتمع إنسانى .. وقضية الربا
قضية جزئية فى إطار هذا النظام الشامل ، فإذا تخلينا عن النظام كله ،
بدت لنا الجزئية غريبة وشاذة وغير ممكنة التحقيق ..

(١) كان تحريم الربا بعد غزوة أحد ، وانضاح عداوة اليهود ، وتحتم مواجهتهم
فى معركة حاسمة ، ولا شك أن الحكمة الالهية استهدفت ضمن العديد مما استهدفته
تحرير اقتصاد المجتمع الاسلامى فى المدينة من سيطره اليهود المالية بتحريم الربا ..

أما لو عشنا في نظام إسلامي عالمي ، فإن تحريم الربا سيدفع الدول الإسلامية إلى التفكير في شكل جديد من أشكال التعاون الاقتصادي فيما بينها بعيداً عن روح المصرفية اليهودية وأساليبها . .

أما في الفترات التي تخلت فيها المجتمعات الإسلامية عن تعاليم الدين ، فلم يكن المسلمون فقراء بسبب تحريمهم الاقتراض بفائدة ، بل بسبب سيطرة البنوك الرأسمالية الأجنبية ، تلك التي سمحت للمسلمين بالاقتراض بالربا وحرمت عليهم الاقتراض .

الملكية

وفي محاولة لإثبات عدم تعارض الإسلام مع الرأسمالية جمع مكسيم رودنسون كل الآيات والأحاديث التي تثبت شرعية التملك والملكية ، بل ويستدل من تشريع الإسلام بشأن الموارث أنه يفترض بالضرورة استقرار الثروات المكتسبة ويدعى أن أحكام الميراث من شأنها أن تمنع انتقال الثروات أكثر مما تمنع تكوينها . .

والميراث في الإسلام ينفي القدسية عن حق الملكية ، أما تحريم الملكية الخاصة فلا نظن أنه قد طرح بصفة جدية في أي حوار جاد يتعلق بتنظيم المجتمع . . ولم يرق حتى الآن مجتمع يلغى الملكية الخاصة إلغاء مبرماً ، بحيث يتحول الإنسان إلى عضو في مؤسسة تملك كل شيء إلا ما ولد به فإذا غادر هذه المؤسسة وانتهى عمله بها بالوفاة أو بغيرها ، تسلمت المؤسسة كل ما يخصه . . لم يرق مثل هذا المجتمع ، ولا يبدو أنه من

الممكن تصور قيامه . . ومادنا قد سلمنا بحد ما من الملكية الخاصة لا بد من وجوده ، مهما يكن محدودا ، فلا بد من انتقال هذه الملكية بعد وفاة المالك . .

وهنا ينطلق الاسلام من نظره إلى الملكية باعتبارها وظيفة اجتماعية وليست حقاً مقدساً للمالك ، ففي التشريعات الأخرى نجد المالك يملك أن ينقل ملكيته إلى القبط والكلاب أو إلى غريب عنه أو إلى زوجته مع قبود تشل حريتها كإنسان . . أى أن إرادته وإدارته لثروته تمتد إلى ما بعد وفاته وبعد أن يكف عن أن يكون له أى دور فى إدارتها أو تنميتها ، ورغم ذلك تظل هذه الإرادة تتحكم فى المجتمع . .

أما الاسلام فهو يحدد انتقال هذه الثروة وطريقة توزيعها بين الورثة بصرف النظر عن عواطف المالك وأهوائه . . فالميراث فى الاسلام يعترف بالملكية الخاصة ، وينفى بنفس القوة قدسيته ، يعترف بالحق الجماعى فى توزيع الملكية ، وبسيادة إرادة التشريع على إرادة الفرد المالك . . أما أن نظام الميراث الإسلامى يؤدى إلى تفتيت الملكية ف قضية تثبتها التجربة والمنطق ولا تحتاج لنقاش .

فالملكية فى الاسلام وظيفة اجتماعية ، ومصلحة المجتمع فيها مقدمة على مصلحة الفرد ، والتملك مرتبط بالقدرة على افادة المجموع ، وحق المجتمع مطلق فى تقييد وإباحة ونزع ونقل ملكية الفرد فى حدود ما أمر به الاسلام . .

أما قضية إمكانية قيام النظام الرأسمالي في مجتمع إسلامي فقد رأينا خطأ الربط الحتمي بين رأسمالية المجتمع وقيام الصناعة فيه ، ورأينا أنه لم يكن من المحتوم على الشعوب الإسلامية أن تسلك الطريق الرأسمالي لتحقيق ثورتها الصناعية . . كذلك رأينا أن تحريم الربا لم يكن عائقاً عن قيام الصناعة ، بل إن التعامل بالربا كان عاملاً من عوامل تدهور اقتصاديات العالم الثالث . .

وإذا كان صحيحاً أن المجتمعات الإسلامية في العصور المتأخرة لم تكن تمنع قيام المؤسسات الرأسمالية فإن قضية اتفاق التعاليم الإسلامية مع الروح الإسلامية تبقى بحاجة إلى نقاش . .

يرى مكسيم رودنسون أن عوامل ظهور الرأسمالية كانت متوفرة في العالم الإسلامي ، وهي :

* أن العالم الإسلامي الوسيط قد عرف ثروات ضخمة من النقد والمعادن الثمينة .

* الانتاج للسوق كان معروفًا وقائمًا ومزدهرًا .. ففي مدينة واحدة من مدن مصر كان يوجد ٥٠٠٠ نول ..

* أن بورجوازية يغلب عليها الطابع التجارى كانت قد نشأت في العالم الاسلامى بدءا من القرن الثانى للهجرة^١

* أن قيام الرأسمالية يتطلب وجود رأس المال البضاعى وبلوغه مستوى معيناً من النمو ، لأن ذلك شرط لتركيز الثروة النقدية ، ولأن الصيغة الرأسمالية للانتاج تفترض وجود انتاج موجه للتجارة يباع بالجملة لالأفراد المستهلكين . فالشرط الأدنى للتجارة ، الرأسمالية ، هو أن تكون تجارة جملة ، وأن تستخدم النقد بحيث تؤدي إلى تنمية الانتاج للسوق ..

وهو يرى أن هذه العوامل كانت موجودة في المجتمع الاسلامى المزدهر .. ثم يبقى السؤال .. لماذا إذن لم تتحول إلى رأسمالية كاملة ؟

لماذا ظهرت الرأسمالية على الجانب الآخر من البحر الأبيض . ؟ .
وفي الاجابة على هذا السؤال قد يبدو أننا نلتقى مع خصوم الاسلام ، وهو غير صحيح ، فنحن نرى أن الفلسفة الاسلامية كانت حائلا دون ظهور النظام الرأسمالى الغربى في بلادنا .. لا لتخلفها .. بل بالعكس لسمو هذه الفلسفة وإنسانيتها وترفعها عن الاستغلال الوحشى الذى قامت عليه الرأسمالية الغربية وتغذت به ، وأصبح جزءا من مكوناتها .

(١) بل من قبل الاسلام !

فالإسلام حال دون قيام النظام الرأسمالي في بلادنا عندما كانت الكلمة للمسلمين وحدهم ، لأن :

• الارتباط وثيق بين الرأسمالية والاستعمار .. فهما توأمان لا ينفصلان ، بل فصلهما يؤدي إلى موتها معا .. والرأسمالية الغربية لم تحقق نموها وتنجز الثورة الصناعية إلا باستعمار العالم الثالث .. فلا يتصور إمكانية توفر رأس المال وتركزه في الوطن الرأسمالي لتلبية احتياجات الثورة الصناعية بغير اعتصار شعوب المستعمرات .

والاستعمار كما يحتاج لواقع جغرافي وبشري ، يحتاج أيضا إلى عقيدة تبرره وتدفع إليه .. ويصعب أن تجد طرف الحلقة فتحدد أيهما يبدأ أولا .. العقيدة أم العوامل المادية .. ولكن لا جدال في أنه يستحيل على عامل منها أن يحقق الاستعمار بمفرده ..

فهل كان الإسلام قادرا على أن يخلق التبرير النظري للاستعمار؟ هل كان يمكن أن تقوم دولة إسلامية باعتصار موارد دولة أخرى ، وتحريم الصناعة عليها من أجل بناء الصناعة في الدولة الإسلامية الاستعمارية ؟ .. والإسلام يدعو إلى أن يكون لهم مالنا وعليهم ما علينا .. وقد أصبح فقهاء المسلمين في القرن الثاني من غير العرب .. وأئمة حديثهم من غير العرب ! .. بل لا تستطيع أن تقول أن الجنس العربي قد تصدر الدولة أكثر من مائة سنة في حضارة عاشت ثلاثة عشر قرنا !

وحتى لو رفضنا التفسير الأخلاقي .. فهل كان أمام الدول الإسلامية مجال استعماري تمتد فيه ؟ أى تستعمر أوروبا ؟

الذي حدث تاريخيا أنه عندما بدأ الصدام الثانى بين أوروبا والعالم

الإسلامي (الحروب الصليبية) .. فإن عوامل عديدة جعلت غزو المسلمين لأوروبا مستحيلا ، فتحول الإسلام إلى موقف المدافع ، وعندما جاءت الموجة العثمانية فإن مسارها وتكوينها حال دون تحولها إلى إمبراطورية استعمارية ، وأساسا لالتزامها بنظرة الإسلام إلى الذميين وفكرته عن دار السلام ..

المهم أن الإسلام كان عاجزا عن أن يكون استعماريًا ، وبالتالي كان طريق النمو الرأسمالي مسدودا ..

« والعامل الثاني هو العلاقة الداخلية في المجتمع الرأسمالي .. إن «مكسيم رودنسون» يشير إلى حق انتزاع القوت للجائع .. وهو الحق الذي أقره جميع الفقهاء .. ويشير إلى الحديث : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع ، واسكن رودنسون لا يرى في ذلك مانعا خطيرا لقيام الرأسمالية ..

والغريب أنه لا يرى ذلك ، رغم أنه ماركسي ، يؤمن أن شرط قيام الرأسمالية هو : « أن يبيت جارك جائعا ، ليضطر أن يذهب في الصباح فيبيع قوة عمله للحصول على القوت ..

إن وجود أولئك الذين «لا يملكون إلا حرية الموت جوعا» كان شرطا أساسيا لقيام النظام الرأسمالي .. وهؤلاء لا وجود لهم في مجتمع إسلامي يستحق هذا الاسم ..

إن حرية الموت جوعا ممنوعة في الإسلام ، بل يباح انتزاع القوت بالقوة لحماية الحياة ... وعلى بن أبي طالب يعجب للذي يبيت جائعا ثم

لا يخرج على الناس بسيفه ، وعمر أيد موقف الانصار الذين انتزعوا قوتهم بالقوة من الذين منعوهم حق الضيافة . فكيف كان يمكن أن تتوفر طبقة الاجراء « البروليتاريا » الذين يضطرون للعمل لكي لا يموتوا جوعا . . ؟

إن هناك خلافا أساسيا في نظرة الإسلام للكون ، ونظرة الحضارة الغربية . . الإنسان الغربي ، فردى ، متوجس من الكون ، يعتبر نفسه في حرب حياة أو موت ضد الآخرين ، وهو في نفس الوقت وبسبب حالة الرعب هذه أسير المؤسسات التي يخترعها : الطبقة ، الكنيسة ، الحزب . .

أما الإنسان المسلم فهو في ألفة مع الكون ، يؤمن أن الله قد سخر له كل هذا الكون لمتعته ، وأن التقدم يهدف لا إلى اذلال الطبيعة ، بل حتى تأخذ الأرض زينتها . وهو مستول عن الكون ، ابتداء من نفسه فعائلته فمجتمعه فالإنسانية . . لأن الله خلقه ليكون خليفته في الأرض . من هنا فان الفلسفة الإسلامية ترفض وحشية النظام الرأسمالي . ولا نحتاجنا أن نعلن بكل قوة ان المجتمع الاسلامى حقا يستحيل عليه أن يكون رأسماليا استثماريا . .

وقد رأينا أننا كنا قادرين على أن نمنح البشرية طريقا أفضل للتقدم العلى والتكنولوجيا . . غير طريق الرأسمالية الدموى . .

على أية حال كل هذه القضايا يمكن النقاش والخلاف حولها ، أما ما لا يحتمل الجدل فهو الحقيقة الراسخة بأن الاستعمار الغربى كان العامل الاساسى ، إن

لم يكن الوحيد ، الذي حال بين الدول الإسلامية وبناء الصناعة .

التعبئة الأيدلوجية

والمؤلف يرى أن الطريق الرأسمالي لا يحتاج عادة إلى أيدلوجية تعبئة ، إلى عقيدة تطرح أمام شعب بكامله برنامجا للتنفيذ . . ولكن ليس هناك من ينكر الحاجة إلى أيدلوجية في بناء الاشتراكية ، ولكنه يرفض أن يكون الإسلام هو هذه الأيدلوجية .

ولاشك أن هناك أكثر من تحفظ على رأيه بانعدام الحاجة إلى أيدلوجية التعبئة في مرحلة الرأسمالية ، فقد وجد دائما هذا اللون من الأيدلوجية خلف بناء الامبراطوريات الرأسمالية ، بل وأصبحت الحاجة إليه ماسة في الدول التي بدأت متأخرة عملية البناء الرأسمالي ، وبالذات في حالة اليابان . . غير أنه لا جدال في ضرورة أيدلوجية التعبئة في مرحلة الاشتراكية ، ويرى عدد من الاشتراكيين المخلصين أن الإسلام يشكل إمكانية جبارة لتحقيق هذه التعبئة . .

بل إن بعض الاشتراكيين غير المسلمين قد اقترحوا من الإسلام من هذه الزاوية ، فهم يرون أن مثله قادرة لا على تحقيق التعاون الداخلي في المجتمع الذي يبنى الاشتراكية وحسب . . بل وتحقيق التعاون العالمي بين الدول غير الرأسمالية وهي القضية التي تتعرض فيها الاشتراكية لامتحان عصيب .

مخالفات المستشرقين

تبقى بعض القضايا التي لم يتوقف رودنسون لتحخيص مزاعم المستشرقين المتوارثة حولها ، بل ورثها هو بدوره . . كحكاية الحديث ، وقد شرحنا هذه القضية في بداية هذا الكتاب . . ووضحنا أنه العلم الذي أكد حرية الفكر الاسلامي وعلمانيته . . فقد وضعه المسلمون موضع التدقيق القائم على الشك حتى تثبت صحته ، ثم اكتشفوا وسائل التحقيق العلمي ، إلى حد ضبط الكلمة الواحدة ، والترتيب التاريخي والجغرافي لخمس أو ستة أجيال من الأمة الاسلامية .

والغريب أن « مكسيم رودنسون » الماركسي يعجز عن أن يرى الجدلية في غير الماركسية ، فيقف حائراً أمام ما يظنه تناقضاً في الاحاديث ، ويتخلص من هذا الموقف بحل ساذج هو الطعن في صحتها . . فهو يرى تناقضاً في احاديث رسول الله التي تشيد بالنجارة : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » وقوله : « إن التجار يبعثون يوم

القيامة فجاءوا إلا من اتقى الله وبر وصدق، بينما لا نرى أى تناقض . .
في التجارة كأي مهنة فيها البر والفاجر وكل يلقي جزاءه . . والتجارة
أكثر عمليات الانتاج قابلية للتحرر من الاستغلال ، وأسوأها استغلالا
في نفس الوقت .

فالتاجر الأمين يحقق خدمة حقيقية للمنتج والمستهلك والانتاج ذاته،
ولكن التاجر المنحرف يضر كل هذه الاطراف . . فيال تاجر الاول
يشير الحديث ، وعن التجار المنحرفين يتحدث الحديث الثاني . .

ومن العجيب أن « مكسيم رودنسون » يقبل الروايات المتواترة
عن الاحداث التاريخية أو الشخصيات الاسلامية ويرفض الاحاديث
التي وصلت إلينا بنفس الاسلوب . . والمنطق يدعو للشك في وجود
شخصيات مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلى مادمننا سننكر كل ما لم يثبت
في غير القرآن ، لأن معلوماتنا عن هذه الشخصيات جاءت إلينا عن طريق
الرواية والتسلسل ، أى نفس الطريق الذى انتقلت إلينا به الاحاديث . .
ومن ثم فإن الشك المطلق في الاحاديث أو السنة لمجرد أنها لم تدون
كما دون القرآن ، يعنى الشك في التاريخ الاسلامى كله .

والمستشرقون ليسوا أول من تشكك في الحديث ، فهذه القضية
كانت مطروحة في الفكر الإسلامى منذ وفاة الرسول ، وكان كبار
الصحابة يتخرجون أشد التحرج من الحديث عن رسول الله ، وكان كل
المتحدثين يعرفون ويؤمنون بحديث : « من كذب على متعمدا فليتبوأ
مقعده من النار » . ومن ثم فقد طرحت كل الاحاديث للامتحان والتحقيق

بكل الوسائل العلمية - ولا أقول المتاحة وقتها - بل والممكنة حتى اليوم -
ويبقى بعد ذلك ما عرفه رودنسون من أن هذا الشك المنظم ، قد منح
الفكر الاسلامى حرية استعصت على أية لاهوت قبله .. كما سمحت
للتيارات أن توجد ، وأن تختلف وتثرى الفكر الإسلامى من اختلافها ..
أما ما يبدو من تناقضات ، فهو دليل حيوية هذا الدين ، ومطابقته
لاحتياجات الإنسان المتعددة والمتغيرة بتغير الزمان والمكان .

أما قفل باب الاجتهاد ، فخير تفسير يقدمه مستشرق لهذه النقطة هو
قول « وليام بولك » : « إن المسلمين فى عصور الانحدار الاجتماعى
والسياسى والاقتصادى ، كانوا يواجهون خطر الإبادة كمسلمين ، ولم
يكن هناك ثمة أمل فى نشر الدين .. فأصبح جلهم المسلمين ، إبقاء جذوة
الدين مشتعلة ، وهذا لا يتأتى إلا بمنع كل التيارات ، وإغلاق كل
الابواب .. فأغلاق باب الاجتهاد لم يكن لتوهم اكتمال المعرفة .. بل
لنقص العارفين .. أما لو توفروا ، وأمن المسلمون خطر ضياع الدين -
فليفتح على مصراعيه ، فما من دين يحرض على التفكير مثل دين
للمجتهد فيه « إن أصاب أجران وإن أخطأ أجر ، .

الصدقة

والصدقة في الاسلام لاتحمل هذا المعنى الذى اكتسبته في عصور الانهيار ، وكان الوالى للرسول والخلفاء في عصور التالى ، كما يصفه المحكومون : " يأخذ الصدقة من أغنيائنا فيردها على فقرائنا ، . فهمى ضريبة تؤخذ وتوزع من قبل السلطة ، وليس فيها الإحسان الفردى أو المذلة الفردية ، لأنها لا تتم بين فردين ، بل عبر جهاز الدولة . . والآية تقول : " خذ من أموالهم صدقة ، . . والإحسان التسولى " لا يؤخذ . .

أما عندما انهيار المجتمع الإسلامى ، وكفت الدولة عن أخذ حق الفقراء ، المعلوم ، في أموال الأغنياء ، فقد تحول الفقراء إلى متسولين ، والأغنياء إلى متصدقين محسنين . . وفقدت الكلمة مضمونها الاجتماعى ، وتلقفها المستشرقون من عصور الانهيار ليمتحدثوا عن مجتمع المتسولين في دين يصف فيه رسول الله الصدقة في أرقى صورها بأنها : أوساخ

للناس ، ويقرر أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن العمل خير من أن يسأل الرجل الناس ، أعطوه أو منعوه .

• أما السحر . .

فإن الاسلام ينكر أى تأثير مادى له ، وكذب المنجمون ولو صدقوا . . . ولا يفلح الساحرون . . وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله . . ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون . . ولا يفلح الساحر حيث أتى . .

فالسحر موجود ، وما زال يمارس حتى الآن ، وموقف الاسلام منه يعلمنا أن لا تأثير له علينا ، ولا يستطيع ساحر أن يضرنا إلا بإذن الله . . وهذا جانب رائع للايمان بالقدر ، فإن إيماننا أن الضرر والنفع من قدرات الله وحده ، يجعلنا لا نخشى أى تهديد من جانب ساحر أو مشعوذ ، وعندما يؤمن الانسان فى المجتمعات التى تؤمن بالسحر يقدر الله هذا تسقط سيطرة السحرة عليه . .

أهذا قدر بليد يدعو للاستسلام ١٩

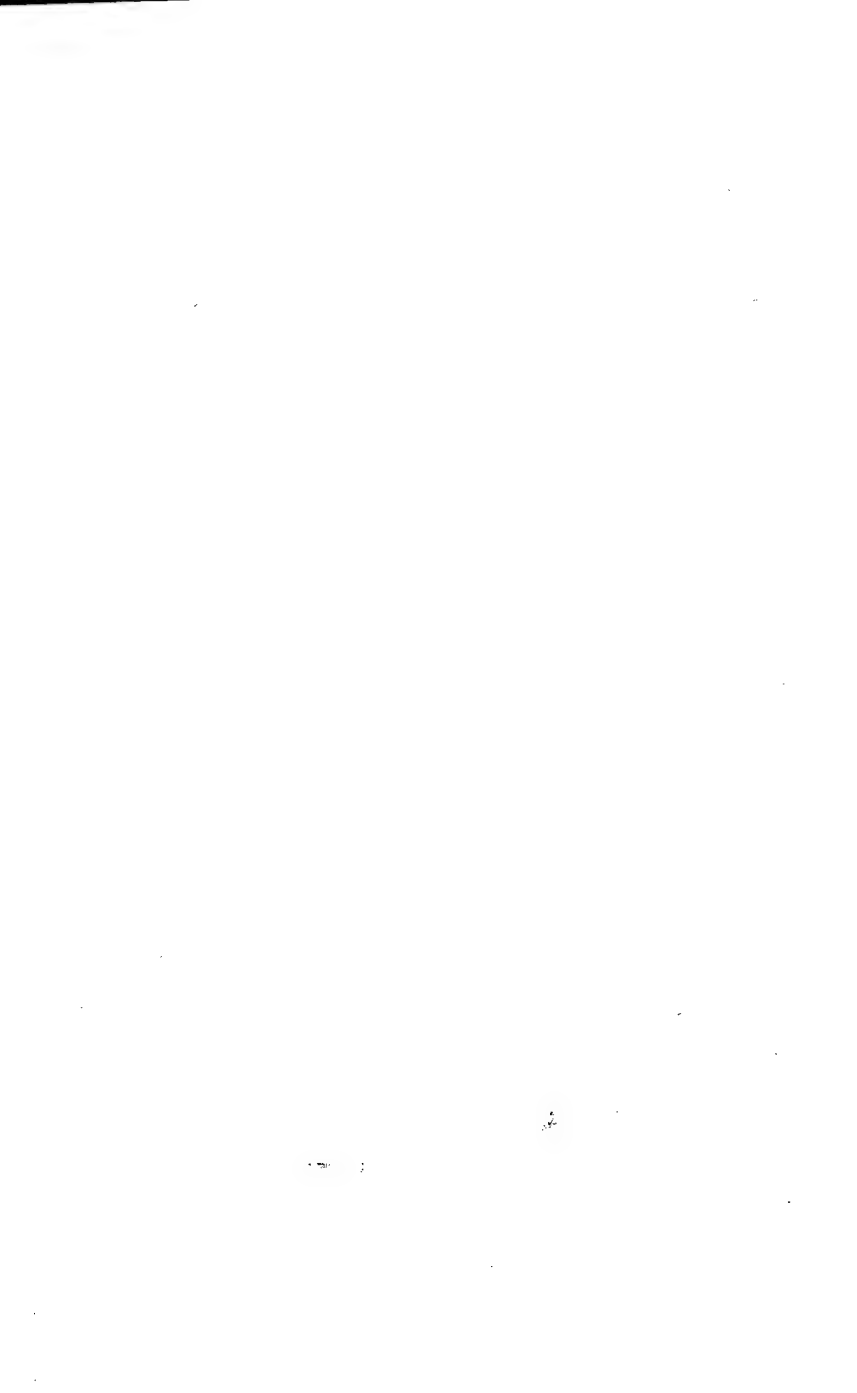
فالقول بأن الاسلام يؤمن بالسحر ، وأن هذا الايمان سد الطريق على العقلانية اللازمة لقيام الحضارة الحديثة ، هو قول ينضح جهلا . . فلا الاسلام يؤمن بقدرة السحر على شل إرادة الانسان أو تغيير قوانين

الوجود . . ولا في التاريخ الاسلامي مظهر يعزز هذه الشبهة ، وأكثر من ذلك ما من عاقل يقول بإمكانية وجود حضارات عقلانية وأخرى لا عقلانية . . لأن شرط قيام الحضارة ، بل شرط وجود مجتمع بشري هو سيادة العقلانية ، ولو دون أن تسمى باسمها . . فلا يمكن أن يبني الناس جسوراً ويشقوا طرقاً وينسجوا ثياباً ، إلا بمنطق عقلائي ، وبتسليم بفعالية القوانين المادية للوجود . .

وإذا قورن الإسلام بأى حضارة سبقتة كان حظه هو الأقل من حجم الخرافات والمعجزات . . بل تستطيع أن تكون مسلماً صادقاً إذا أنكرت كل المعجزات إلا القرآن والوحى . ولا شك أولئك الذين عرفوا كروية الأرض وقاسوا قطرها ومحيطها واكتشفوا أن الضوء يصل إلى العين فتراه وليس العكس . . ثم وضعوا قوانين التطور الاجتماعى . . لا شك أنهم كانوا زهراء حضارة عقلانية من الدرجة الأولى . . وما من كتاب مقدس ترددت فيه كلمة العقل ومشتقاته مثلاً جاء في القرآن . .

وبعد . .

فانجد في هذا الكتاب حجة اشتراكية ، ولا كشفاً جديداً في الإسلام . . ولكنه يقدم صورة حديثة لآخر محاولات تقديم الإسلام للعقل الغربى . . وحتى لو فرضنا حسن النية في كاتبه . . فإننا نقول إنه ما زال بعيداً كل البعد عن فهم روعة الإسلام وسر عظمته وخلوده . .



أبوذر.. والحق المر



حسبك عناء من دراسة أن تبدأها وأنت موقن أنك لن تحيط
علما بكل دقائقها . . وتسلم قبل الدرس أن بها من الاسرار ما شاء
الله له ألا يعرف ، ومن الايماءات ما يستحيل على عقلنا البشرى
في هذه المرحلة أن يصل إلى ما تومىء إليه . .

وحسبك من شخصية توقن أنها أكبر من أن تحتذى ، ويستحيل
على المؤمن بها أن يسلك سبيلا سلكته هي ، وعاشته حقا ، ووعاه
التاريخ بكل دقائقه . .

شخصية نادى بأخطر المبادئ ، عاشت هي ما نادى به . . في ظل
قدر صارم لا مرد له ، يرسم خطاها ، ويوجهها في طريق : « تمشى فيه
وحدها ، وتموت وحدها ، وتبعث يوم القيامة وحدها . . »

حسبك من داعية إلى أنبل ما تمنى الانسان ، يعرف أنه لن يتبعه
أحد ، وأنه سيأتى يوم القيامة أمة وحده . . على طهره وطهارته ، على
صدقه وإخلاصه . . على ما تمنى للناس من خير . . لن يتعبه أحد ،
وسيأتى يوم القيامة أمة وحده . .

عاهد خليله على أن يقول الحق مهما يكن . . . والحق دائما
مر . . . ولكنه كان يتخير أمر الحق ، ويختار له أمر الالفاظ والصيغ . .
برا بمهده لخليله ، حتى انتهى به الأمر إلى أن يقول في تفجع : « قول
الحق لم يبق لي صديقا . . »

ولكن قول الحق ، جعله حبيب كل الناس ، حتى الذين ضاقوا
به ، وبدعوته . . احتفظوا له بمكانة عالية من الاحترام والتقدير . .
فكلنا نحترم المثل ونتطلع مشدوهين إلى السكال . . وغالبيتنا تحب
المثل والسكال . . ولكن ليس من طبيعة البشر أن يصادقوا السكال
وأن يعايشوه ويرتبطوا به . . فالسكال دائما كالعُقاب يعيش وحيدا
في أعالي القمم ، ولكن الزواحف تتعلم الطيران من تطلعها إلى
ذلك الوحيد المنفرد في أعالي القمم . . فلسنا مطالبين بالوصول إلى
القمة . . ولكن بالتطلع إليها تنبت لنا أجنحة ، وتخفق قلوبنا وكأننا نظير
أما هو : فيمشي وحده . . ويموت وحده . . ويبعث يوم القيامة
أمة وحده . .

عرفنا أبو ذر بنفسه فقال :

« خرجنا من قومنا غفار . . . وكانوا يحلون الشهر الحرام . . . »
وهي قبيلة كانت تقطع الطريق على القوافل على طريق البحر الأحمر ،
وكان أبو ذر نفسه يقطع الطريق ، على فرس له أو على قدميه كأنه
السبع ، وبعد ما أسلم استمر في قطع الطريق ، ولكن على قوافل
المشركين وقریش .

فقبيلته خارجة على القانون بأوسع معانيه ، لا تعترف بما تواضع
عليه كل العرب ، بل تستحل الشهر الحرام ، أى تستحل القتال والقتل
في ذلك الشهر الذى اتفق العرب على وقف القتال فيه ، حتى أن المرء
يجد قاتل أبيه ، في هذا الشهر ، فيكف يده عنه . . . مادام قد اعتصم
منه بالشهر الحرام . . .

وهي قبيلة تقطع الطريق ، وأبو ذر نفسه قاطع طريق . . . وقطع
الطريق عند العرب في هذه الفترة بالذات ، له معنى يختلف عما يمكن

أن نفهمه نحن الآن . . بل إن قطع الطريق عادة يقترن بنوع من الثورة ، أو إن شئنا الدقة : « الرفض الاجتماعي » . . الاحساس بحق ما فيها يمتلكه الآخرون . . وتفضيل أن يؤخذ هذا الحق بالقوة لا بالسؤال .

والصعاليك الذين كان يمثلهم « عروة بن الورد » كانوا يقطعون الطريق ليأخذوا من أموال الأغنياء ما يسكنهم ويكفي الفقراء . .

وحق انتزاع القوت مبدأ عريق في البادية ، ومنذقرون لاحصر لها ، فرض الأعراب ، حق الضيافة . . وأصبح الكرم فضيلة إجبارية ، فأصلت حتى أصبحت غريزة عربية . . فللضييف ثلاثة أيام ، فرضا ، على من نزل عليه . .

والفضائل والردائل هي في النهاية قوانين يسنها المجتمع من أجل الحفاظ على وجوده ، وليس بالضرورة أن تكون الفضائل والردائل أو اقبال الناس على الفضيلة أو الرذيلة متجاوبا ومنطبقا على احتياجات المجتمع . . ولكن المجتمع الذي يعيش ويقوى على مصارعة قوى الفناء ، هو المجتمع الذي ينحت من احتياجاته قوانين الاخلاق . .

والبدوى فى الصحراء ، الذى تتعلق حياته بموقف أول واحة تستقبله بعد رحلة مضنية ، يشرف خلالها على الموت ألف مرة . . فإن كانت اخلاقيات المجتمع هي الشح والبخل وكرهية الضيف ، فسيموت هذا المسافر . . وسيموت أهل الواحة بدورهم . . فى أول رحلة لهم

يضلون فيها الطريق ، أو يخطئون الموازنة بين استعداداتهم
واحياجاتهم . .

أما لو كانت الاخلاقيات تعتبر اكرام الضيف شرفا يعتز به ،
حتى ليحرر الرجل عبده إذا ما جاءه بضيف في الليلة العاصفة
الباردة .

ويوقدون النار في أعالي الجبال يسترشد بها البدو في الصحراء ،
وتهدى إليها ، وبها ، القوافل الضالة . . فيجدون الدفء والماء والقوت ،
حتى ليتهاجون بضالة نيرانهم ^٢ . . ويتفاحرون بكثرة غشيان
الضيوف ^٢ . . حتى تصبح بيوتهم كالفنادق !

وإذا كان اكرام الضيف يصبح خطفا نفيلا من جانب المضيف
يحرص عليه كواجب مقدس ، فانه يتحول أيضا عند الضيف إلى حق
مقدس . . العار كل العار في أن يحرم منه . . بل له الحق كل الحق
في أن يطالب به ، بل وأن ينزعه بالقوة . . وكثيراً ما كان البدوى

(١) والريح يا غلام ربح صر

ان جلبت ضيفا فأنت حر

(٢) قوم اذا استنبح الأضياف كلهم

قالوا لأهمهم : بولى على النار !

(٣) يفتنون حتى ما تهر كلابهم

لا يسألون عن السواد المقبل

يغير في الجاهلية مطالباً بحق الضيافة ، منتزعا حق القرى ..

وفي الاسلام ، شرع الفقهاء ، حق الضيافة ثلاثة أيام إجباراً . .
قال الإمام ابن حزم « الضيافة فرض على البدوى والحضرى ، والفقير
والجاهل ، يوم وليلة ، ميرة واتحاف ، ثم ثلاثة أيام ضيافة . . فإن
مُنِع الضيافة الواجبة ، فله اخذها مغالبة ، وكيف أمكنه ، ويقضى
له بذلك . . . »

« ومر جماعة من الانصار بحجى من العرب ، فطلبوا منهم
الضيافة . . . »

لاحظ انهم هم الذين يطلبون ، ولكي نتفهمها جيداً تخيل انك
تطرق بيتاى الزمالك أو الروشة أو أبو رمانة أو السالمية أو الاعظمية .
الح . . . وتعلن لاهله أنك ضيف . . . وتطلب حقوق الضيافة !

من المؤكد أن الحديث سينتهى فى مركز الشرطة ، وستجد أن
كل القوى والقيم ضدك . . .

« ورفض الأعراب أن يستضيفوا الانصار ، فأخذ الانصار حقهم
بالقوة ، وتركوا فى مضيفهم إصابات ، تستطيع أن تصفها بانها قطع
طريق صريح . . . وفى قانون العقوبات اسمها سرقة بالاكراه . . .
« وجاء القوم إلى سيدنا عمر يشكون ما فعله بهم الضيوف ،

ولكن عمر يقول : « تمنعون ابن السيل ، ما يخلق الله تعالى

فى ضروع الابل بالليل والنهار ؟ . . ابن السبيل أحق بالماء من
الثاوى عليه . .

وأقر عمر سلوك الأنصار ، فى انتزاعهم حقهم عما يخلقه الله ،
بالقوة الدائمة !

تستطيع أن تقف طويلا عند هذا المبدأ الصارم يعلنه عمر .

إن الله يخلق الرزق فى ضروع الابل . .

إذن ليس لأحد أن يمنع ابن السبيل من ملكية الله . .

بل إن ابن السبيل أحق بها من صاحبها ، أو كما عبر « عمر » بدقته
نادرة : « الثاوى ، أى المقيم عند الماء ، فكأنه أنكر ملكيته تماما . .

ونستطيع أن نستخرج من هذه الواقعة ماسئنا من اشتراكية أو
شيوعية أو ملكية عامة ، ولكنه استخراج يقوم على التعسف ، مهما
بدا لفترة من الوقت أنه يخدم سياسة أو يدعم مبدأ . . غير أنه لا يستقيم
مع وجهة النظر الإسلامية . . بينما ينطلق منطق عمر ، من نظرة الإسلام . .
نظرة العربى لحق الوجود . . حق الحياة . .

عمر لو سمع أن أحدا انتزع بالقوة درهما من أحد أسواق المدينة ،
لقطع يده ، أو صلبه ، باعتباره ممن يسعون فى الأرض فسادا . .

ولكن عمر الذى أعفى العبد من الحد ، وأوشك أن ينزل العقوبة
بسيده الذى حرمه . . ورأى أن ظروف المجاعة تدرك إقامة الحد . .
يبيح للأنصار أخذ حقهم بالقوة . .

إن النظرة الإسلامية ترد الأمور إلى عاملين . .

• الأول : هو ملكية الله المطلقة للكون .

• الثاني : هو حق الانسان في الحياة ، والاستمتاع بهذه الملكية . . كل الناس على السواء . . فكلنا على درجة واحدة من القرابة لله تعالى . . فليس لأحد أن يختص بإرث خاص ، ويحرم الناس مما خلق الله . . إن ارتباط الملكية بالانسان المالك ، لا وجود له في التفكير الاسلامي بهذه الحدة ، وهذه الفردية التي نجدتها في العقلية الغربية حتى عندما وصلت إلى الاشتراكية ، فهي قد وصلت لها عبر تقديس الملكية ! . . ماركس أجهد نفسه في إثبات أن الطبقات ينتجها العمال ، ليبرر حق العمال في امتلاكها ! . .

بينما يطرح الاسلام القضية في بساطة ويسر ، وبمنطق يتخطى كل طبقية . .

فالله يخلق ما في الضروع ليلا ونهارا . . فليس لأحد أن يدعى حق ملكيته . . فالكل عبيد الله . . والله هو المالك .

والاولوية هنا للمحتاج . . ولأن ابن السبيل هو الأكثر احتياجا فهو الاولى واللاحق بما في ضروع الابل . . من الآخر الذي يربها ويحفظ بها . .

هذه هي الخلفية التاريخية عند العرب الذين خاطبهم القرآن :
« والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » .

حق معلوم :

إنه شيء يختلف كل الاختلاف عن الصدقة والبر والاحسان
والكرم والارحية ..

حق معلوم :

والحق إن لم تعطه ، فللناس حق أخذه وإجبارك على أداء الحقوق
لأهلها .

لهؤلاء يقول القرآن : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم
وتزكهم بها ، .. »

خذ ..

بكل ما بها من قوة وإجبار مشروع ، ليس سؤالا ولا منية ..

خذ ..

وبهذا الفهم أحل أبو بكر دماء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله
وأن محمدا رسول الله ، ويقيمون الصلاة ، ويمنعون الزكاة ..

وربما كانت بداية انهيار الوحدة الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية
هي تصور الزكاة سلوكا اختياريا ، أو مجرد ضريبة تغني عنها ضريبة
الدخول التي تتجاوزها الآن بكثير ..

إن الزكاة غير ذلك .. وفرضها على رأس المال لا على الدخل أو الأرباح ليس اعتباطا .. إنه تناول لذات حق الملكية .. تأكيد لاشتراك المسلمين جميعا في ملكية ما يخلقه الله ليلا ونهارا ..
فعلوا حق الحياة على حق الملكية مبدأ من مبادئ الحياة العربية .. وهذا المبدأ يمكننا أن نضع يدها على الخيط الأول منه في نسج تفكير أبى ذر ..

ولنعد إلى قصة إسلامه :

قال :

« خرجت أنا وأخى أنيس وأما ، فنزلنا على خال لنا فأكرمنا خالنا وأحسن إلينا ، فحسدنا قومه . فقالوا له إنك إذا خرجت عن أهلك خالف إليهم أنيس » .
أى اتهموا أنيسا بعلاقة مامع زوجة خاله ..

« فجاء خالنا .. فتلا علينا الذى قيل له .. فقلت له .. أما مامضى من معروفك فقد كدرته ، ولاجماع لك فيما بعد ، فقربنا صرمتنا (أى الناقة) فاحتملنا عليها ، وتغطى خالنا بشوبه فجعل يبكى .. فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة ، فنافر أنيس عن صرمتنا وعن مثلها ، فأتيا السكاهن فحكم لأنيس .. فأتانا بصرمتنا ومثلها معها » .

فهذه الرحلة خرج فيها مع أخيه وأمه ، ونزلوا بخالهم الذى أكرمهم ولكن أبادر ما كان ليغفر له حتى مجرد الشك باخلاقهم ، ولا أن يتعلم

بأن الناس يقولون .. فان مجرد الاستماع إليهم ، ونقل حديثهم ..
مرفوض في صراحة أبي ذر .. فرد عليه كرمه ، وقطع علاقته به بكل
وضوح وجلال .. وتركوه وقد غطى رأسه بثوبه وانخرط في البكاء ،
مدركا بشاعة ما فعل بضيقه إذ أساء الظن بهم ، ودفعهم إلى ردضيافته
ثم القطيعة ..

وما أن وصلا إلى مكة ، حتى يستغفل أنيس رضى الله عنه حضريا ،
بمعكس ما جرت به العادة من استغفال الحضري لابن البادية . ! فيراهنه
على ناقتة ، ويذهب به إلى الكاهن ، وفي رواية أن أنيسا ظل يمدح
الكاهن حتى حكم له ، وعاد لابي ذر و أمه الزير بدل الناقة الواحدة
التي ذهب بها . !

ويحكى أبو ذر قصة إسلامه :

« صليت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بثلاث سنين .. قلت لمن ؟ (ابن أخيه يسأل .. لمن تصلى وأنت لم تقابل
رسول الله ليرشدك إلى الله) قال أبو ذر : الله .. قال فأين توجه .. قال
أتوجه حيث يوجهني ربي ، أصلي عشاء حتى إذا كان من آخر الليل القيت
كأني خفاء (الثوب) .. حتى تعلوني الشمس . فقال أنيس : إن لي حاجة
بمكة فاكفني ، ثم ذهب فأبطأ ، فلما عاد ، قلت له ما صنعت ؟ قال لقيت
رجلا بمكة على دينك .. »

تأمل تعبير شقيق أبي ذر : « رجلا بمكة على دينك ، وليس أن
أبا ذر على دين الرجل الذي بمكة .. يقول أبو ذر : « يزعم أن الله

أرسله .. قلت فما يقول الناس ، قال يقولون شاعر .. كاهن ..
ساحر .. وكان أنيس أحد الشعراء .. قال أنيس لقد سمعت قول الكهنة
فما هو بقولهم .. ولقد وضعت قوله على طرق الشعراء فما وجدته
شعرا .. والله إنه لصادق وإني لسكاذبون .. قال قلت فاكفني حتى
أذهب فأنظر ... ،

وتأمل علاقته بأخيه .. ا كفني حتى أذهب ، .. وا كفني هنا تعني
في ظني تولى أموره أثناء غيابه لأنه في رحلاته لا يتزود إلا بالماء !

فأتيت مكة فاستضعفت رجلا منهم ، فسألته أين هذا الذي تدعونه
الصابي . فأشار إلى وقال الصابي .. فقال على أهل الوادي بكل مدرة
وعظم (أى انها لو اعليه ضربا بكل ما وجدوه في متناول يدهم) فخررت
مغشيا على ، قال فارفعت حين ارتفعت كأنى نصب أحمر (أى كأنه للنصب
الذى يذبجون عليه من كثرة ما به من دماء !) قال فأتيت زمزم فغسلت
عنى الدماء ، وشربت من ماءها ، فلبثت بها يا ابن أخى ثلاثين ما بين
ليلة ويوم مالى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني
وما وجدت على كبدي سخفة الجوع (أى لم يحس بأى أثر للجوع) .

فهذا هو طعام البدوى قاطع الطريق .. فكيف به إذا أسلم ؟

الزهد فيه كان طبعاً ، صفاه وزكاه الإسلام ، أو قل إن الرضا بالكفاف
في البادية الفقيرة أصبح بالإسلام زهداً ، والرخاء يتدفق متحدياً كل قناعة ،
ممتحناً كل زهد .

والمواقف الاجتماعية ، والفلسفية ، والطبقية ، والاقتصادية ، لا تتخذ

بمجرد الارادة فى اتخاذها ، بل هى ثمرة استعداد فطرى فى الإنسان ،
وأفواها ما صادف هذه الفطرة واتفق معها ، وأضعفها هو ذلك الذى
يفتعل ، ويتكلف على غير استعداد من اخلاقيات معتنقه .

ويكمل أبو ذر :

فبينما أهل مكة فى ليلة قراء ، لا يطوف بالبيت إلا امرأتان . .
تدعوان أسافا ونائلة (وهى صنمان من آلهة العرب فى الوثنية ، قيل أنهما
كانا لرجل وامرأة ارتكبا الفاحشة فى الكعبة فسخا حجرين فعبدهما العرب)
والمرأتان مستغرتان فى العبادة ، ومناجاة الاله والالهة . . بكل
جلال المناجاة ، يفتحمهما أبو ذر ، فيفزعهما بأشع ما يمكن أن تفرع به
امرأة . . والمرأة العابدة بالذات . . وفى مكان تعبدها ، وخلال مناجاتها
وفى صميم عقيدتها ، وبين يدي إلهها شخصا . .

يقول أبو ذر . . فأتنا على طوافهما . . فقلت : أنسكما احداهما
الآخرى ! ،

ويبدو أن المرأتين تظاهرتا بعدم السماع لهول ما سمعتا ، فهو أكبر
من أن يصدق . . فعادت مرة أخرى تطوفان حتى وصلتا إليه وهما
تناديان أسافا ونائلة . . فقال أبو ذر قولاً أشد غلظة ، لا يمكن
لكتاب معاصر أن يذكر ألفاظه ، ولا يترك لسامعه أو سامعته مخرجاً
للتأويل أو ادعاء شبهة فى الفهم أو مجالا للاعتذار عن قصد قائله . .

« فانطلقنا تولولان وتقولان : لو كان ههنا أحد من أنفارنا . .
فاستقبلهما رسول الله وأبو بكر وهما هابطتان ، قال ما لكما ؟ .. قالتا

الصانيء بين الكعبة وأستارها . قال : ما قال لك ؟ .. قالنا إنه قال لنا كلمة
تملاً الفم ..

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استلم الحجر وطاف بالبيت
هو وصاحبه ، ثم صلى ، فلما قضى صلاته ، قال أبو ذر فكنت أول من
حياه بفتحية الإسلام ، قال فقلت : السلام عليك يا رسول الله .. فقال
وعليك ورحمة الله .. ثم قال من أنت : قال قلت من غفار

وهنا واقعة لا أظنها قد فسرت حتى الآن — في حدود علمي —
واست بالذى يزعم أنى سأتى بما لم تعرفه الاوائل ! .. ولا أدري هل
استوقفت أحدا بغير ما أوحى به عبارة أبي ذر وهو يحاول أن يفسر
رد فعل « غفار » من جانب الرسول ..

يقول أبو ذر أنه لما عرف الرسول بنفسه : « أهوى الرسول بيده
فوضع إصبعه على جبهته » أو « فاهوى بيده إلى جبهته هكذا .. »

وهى حركة يأتيا الإنسان عندما يتذكر أمرا ، أو بمعنى أصح عندما
يتذكر بأمر ، أو يدesh بأمر كان عنده منه خبر .. وربما يعجب كيف
خاته هذا الأمر وكان الأخرى به أن يذكره ، دهشا من وقوع ما كان
يعرف أنه سيقع ..

أبو ذر يقول « فقلت فى نفسى : كره أن التمتيت إلى غفار ،
فذهبت آخذ بيده ، فقد عنى صاحبه (أى رذنى أبو بكر) وكان أعلم به
منى ، ثم رفع رأسه ، ثم قال من كنت ههنا ؟ قلت قد كنت ههنا منذ

خمس عشرة ، قال فمن كان يطعمك ؟ قال قلت ما كان لي طعام إلا ماء زمزم
فسمنت حتى تكسرت عكن بطني ما أجد على كبدي سخفة جوع . قال
لأنها مباركة ، لأنها طعام طعم .

ما الذي أدهش رسول الله ؟

أهو إيمان رجل من غفار ؟

لا . . رسول الله يعلم أنه جاء للناس كافة . . وبعد أن تحدث معه
أرسله إلى قومه يدعوهم للإسلام ، وما كان قوم أسرع من إسلام
غفار ، أسلم نصفهم ، وأجل نصفهم الآخر إعلان إسلامه حتى يصل
النبي إلى يثرب (المدينة) . .

فإسلام غفار كان يسرا لا غرابة فيه ولا عجب . . ورسول الله كان
الأحرى به أن يدهش — إن كانت دهشة — من هذا الذي آمن قبل
أن يرى النبي . . بل من الذي يحياه بقوله السلام عليك يا رسول الله ،
حتى قبل أن يدعو النبي للإسلام . . ولعله الصحابي الوحيد الذي سعى
إلى الإسلام وما سعى مسلم إليه به في ذلك الحين . . وهو كان خامس
سورجل ، كما تقول الروايات .

شيء آخر غير غفار وأخلاقها هو الذي جعل النبي يضرب جبهته
بيده ثم يستمر في هذا الوضع فترة من الوقت استغرقت محاولة أبي ذر
التدخل ، بأن يرفع يد النبي ويشرح له الأمر ، ونهى أبي بكر له . . ثم
لاحظ قول أبي ذر : « وكان أعلم به مني ، أي أن أبا بكر فهم شيئاً غير

الذى فهمته أنا (أبو ذر) وعرف أن هذه الاستغفارة لغير ما توهم أبو ذر .. وأنه ما من شرح يقدمه يبددها أو يزيل مسيئاتها .

ولو كان الأمر ما ظنه أبو ذر لكان ثمة تعليق من رسول الله على غفار .. ولكان كما عرفنا من خلق رسول الله وهدية صلوات الله عليه ثمة حمد وشكر لله تعالى أن هدى غفارا .

ولكن الحديث اتجه بعيداً عن غفار .. ولم يعد إليها إلا في نهاية اللقاء عندما بعثه رسول الله إلى غفار داعياً للإسلام ، وأمره بالبقاء هناك وعدم الحضور حتى يفتشر الإسلام ويهاجر النبي .. بل إن أبا ذر لم يعد للبني بعدها إلا بعد أن اجتاز الإسلام مرحلته الحرجة (بعد غزوة الخندق) .

ونلاحظ في الحديث أن رسول الله لم يعلق بشيء ولا قدم تفسيراً لحركته هذه ، ولا سأله أبو ذر .. ولا ندرى أفهم من استغراق الرسول ، ونهى أبي بكر له عن التدخل ، أنه موقف ليس له أن يسأل عنه ، أم صرف عن بإرادة من يصرف القلوب كيف شاء ؟ وإرادته نتساءل نحن اليوم .. ما الذى أثار عجب رسول الله ؟

سؤال لست أزعم أن أحداً يملك أن يجيب عليه .. ولكن تفاصيل

(١) لاحظ أيضاً الأسلوب الذى لجأ إليه أبو ذر في توضيح موقفه ، فهو لا يحاول نرح موقفه بلسانه بل « ذهبت لأخذي يده » !!

الحديث توحى أن نبأ من السماء كان عند رسول الله عن ذلك القادم من غفار . .

ما هو ؟

الله ورسوله أعلم . .

وتفسير أستاذنا « الهى الخولى » لحركة النبي صلى الله عليه وسلم :
« مستعظما أن يأتي من تلك القبيلة من يرغب فى الإسلام وهو ما يزال يدعو إليه سرّاً . . . »

وذلك استنتاجا من ظن أبى ذر : « فقلت فى نفسى كره أن انتميت إلى غفار » .

ولكنه استنتاج غير مقنع ، بنى على ظن حدث به أبا ذر نفسه ، ولم يقيم الدليل على صحته . .

فالنبي لم يكره أن ينتمى أبو ذر لغفار ، بل أرسله إليها ، وسرعان ما أسلمت غفار ودعا النبي لغفار (غفار غفر الله لها) . . ثم إنه لاصلة واضحة بين التفسير وما دار بخلد أبى ذر ، فهو لم يقل : دهش النبي لأننى سمعت بالإسلام . والدهشة هنا يفترض فيها أن تمتزج بالسرور والرضا . . فهذا اللون من الدهشة لم يرد فى ظن أبى ذر ولا استشفه . . وإلا لابتهج بسرور رسول الله . . ولما حاول أن يأخذ بيده لينهى سروره !

والرسول لو دهش ، واستعظم إسلام غفار على بعدها ، وبداية

العهد بالإسلام ، لـكان أول قوله : والحمد لله ، أو سبحانه الله ، أو ما شاء الله له أن يبدى من علامات الرضا . . وما فى سلوك النفس أن يضرب الإنسان جبهته بيده ، ثم يطرق برهة إذا لمس صدق ما وعده الله ، وأتاه دليل انتشار الدعوة ومسارة القاصى إليها . . فهو موقف تهليل لا استغراق وتأمل !

قد يقال أن رسول الله أشفق أن يذيع أمر الإسلام قبل أن تتهيأ ظروف المجاهرة وما يحيط بها من مكاره وصعاب . . ويعزز هذا التفسير أمره لأبى ذر بأن يذهب ولا يعود حتى ينتشر الإسلام . . ولـمـكن يعترض على هذا التفسير بأن رسول الله كلفه أن يدعو غفاراً للإسلام ، ولو كان هذا التفسير صحيحاً ، لـكان الأخرى أن يأمره بكتـمان إسلامه حتى يأذن له . . لأن معنى تسكينه بدعوة غفار للإسلام أن تسلم قبيلة بأكملها على طريق القوافل فتشيع الأمر أضعاف ما يستطيع أبو ذر أن يفعل وحده ، فرسول الله دعاه إلى المجاهرة بالإسلام والدعوة له . . ولم يعلق رسول الله ولا سأله كيف علمت بالإسلام ، فاللقاء كان فى مكة ، ومكة كلها كانت تتحدث عن الإسلام حتى أن أخا أبى ذر عاد بنبأ الرجل الذى هو على دين أبى ذر . ! وحتى أن المرأتين لما سمعتا قدحه فى الأوثان عرفتا فوراً أنه الصابىء . . وحتى أن المستضعف ما إن سأله أبو ذر عن رسول الله فى المدينة حتى صاح هذا هو الصابىء ، وسارع الناس الذين كانوا على علم سابق بمن هو الصابىء وما يدعو إليه ، وكانوا قد اتخذوا موقفاً بالفعل منه ،

هو من دعوته ، ومن ينتمى إليه ، عبروا عنه في شكل الأحجار
والعظام وكل ما تناولته أيديهم . .

فالإسلام ليس سرا . . وإسلام أبي ذر في مكة لا يعنى بالخطمية أنه
عرف في غفار . . ومعرفة غفار به ليست مستحيلة ولا مدهشة إلى حد
أن يضرب الرسول جبهته بيده ، ويتوجس أبو ذر ، ويفهم أبو بكر ،
ويقدر رهبة اللحظة ومعنى استغراق الرسول ، ويوشك أبو ذر أن
يحتج وأن يفسر بطريقته ، فيكفه أبو بكر ، ويدرك أبو ذر أن الأمر
غير ما يظن . . وأن أبا بكر يعرفه ، لأنه كان أعلم بصاحبه . .

كل ذلك يجعلنا نقول — طامعين في أجر المجتهد المخطئ — أن
ذلك اللقاء ما كان أول علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر القادم
من غفار . . أو أن اللحظة لم يستغرقها ذلك اللقاء بل لها تفتحت عن
برؤى تخطت الزمان والمكان ، . . .

الله ورسوله أعلم . .

ثم ذهب مع رسول الله إلى منزل أبي بكر حيث أكل من زبيب
الطائف .

قال : « وكان ذلك أول طعام أكلته بها » (بعد ١٥ يوما من
وصوله !) ثم غبرت ما غبرت ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال : « أنه قد وجهت لى أرض ذات نخل ، ولا أراها إلا يثرب ، فهل
أنت مبلغ عني قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيها . . . »

ويقول ابن الأثير : أنه بايع رسول الله في هذا اللقاء على ألا يخشى في الله لومة لائم ، وأن يقول الحق مهما كان مرا .. .

وسرى أن أباذر قد وفي لهذه البيعة أشد ما يكون الوفاء ، فإنا كان يخشى في الله لومة لائم .. . وكان يقول الحق مرا ، بل كأمر ما يكون الحق ويكون قوله ..

يقول : « فأيت أنيسا (إخاه) فقال ما صنعت ؟ قلت : صنعت أنى قد أسلمت وصدقت .. قال : ما بي رغبة عن دينك . فإني قد أسلمت وصدقت ، فأيتنا أمنا فقالت : ما بي رغبة عن دينكما ، فإني قد أسلمت وصدقت ، فנסافرنا حتى أيتنا قومنا غفارا فأسلم نصفهم وكان يؤمهم ابن رخصة الغفاري وكان سيدهم .. . »

لاحظ أن أباذر هو الذي حمل الإسلام إلى قومه ، ودخلوا الإسلام بدعوته .. ثم هو لا يؤمهم في صلاتهم .. وتذكر كيف أن رسول الله رفض أن يوليه إمارة .. فالرجل ما كان قد هيء لقيادة .. والامافاته أن يؤم مسلمين دخلوا الإسلام على يديه ..

تنتهى قصة اللقاء الأول بين رسول الله وأباذر .. وهو لقاء يكشف لنا عن خطوط ما يمكن أن نسميه الخلفية الخلقية والنفسية لشخصية أبي ذر ..

- فهو قاطع طريق من قبيلة تستحل الشهر الحرام .
- وهو يصلى لله قبل أن يسمع بالإسلام .
- فان سمع به شد الرجال إليه مؤمنا .

• وهو عفيف في رفضه للأوثان .. غليظ في نقده لها .

• ثم هو لا يعيش إلا على الماء ١٥ يوما .

• ثم ذلك اللقاء العجيب .. وإطراقة رسول الله .

• فاذا أسلم بعثه رسول الله إلى قومة ودعاه ألا يعود حتى ينتشر الإسلام .

ثم لانسمع عنه شيئا ، والإسلام يمضى من مكة إلى المدينة ..
ويحارب الرسول وينتصر في بدر ، ثم يهزم في أحد وينال منه المشركون ،
ثم ما بين أحد والخندق من غزوات وأزمات وانتصارات .. فغزوة
الخندق حيث يوثق المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم ، ومن فوقهم
ومن تحتهم .. ثم ينصرهم من هزم الأحزاب وحده ..

ويعلن الرسول تحول الإسلام من الدفاع إلى الهجوم : « لا تغزوكم
هريس بعدها .. بل أنتم تغزونها » .

ويعود أبو ذر لينظر من جديد في مجتمع المدينة .. ويكون اللقاء
الثاني ، ولا يخلو من نادرة .. فانه لما جاء إلى رسول الله .. تأمله
الرسول وقال « أنت أبو نمل » .. والنمل والنذر مترادفان في العربية ،
قال: أبو ذر يا رسول الله ! ..

كيف كانت صحبة أبي ذر برسول الله في مجتمع المدينة ، حيث كان
يجرى إعداد المسلمين لبناء دولة الإسلام .. وحيث كان رسول الله
خير من يعرف معادن الرجال ، وأقدر خلق الله على أن يكلف الرجل
ما يطيق ..

كان لأبي ذر مكانة خاصة عند رسول الله ، عبر عنها أبو ذر بعد
بذلك اللقب الذي كان يتحدث به عن الرسول لا يختار غيره .

« خليلي » . . .

وكان رسول الله يبتدىء أبا ذر إذا حضر ، ويفتقده إذا غاب . . .
وقد زوى هذا أبو الدرداء الذي اصطدم به أبو ذر كأعنف
ما يكون الصدام كما سنرى . .

ويوم غزوة مؤتة عندما ظن المسلمون أن أبا ذر قد تخلف . . ثم
جاء يمشى وحده قال له رسول الله أجمل قول يسمعه جندي من قائده .
ومسلم من نبيه : إن كنت لمن أعز أهلى على تخلفا . . فصلوات الله عليه .
يعتبره من أهله . . بل وأعز أهله عليه تخلفا . .

« وقال رسول الله من يلقاني على الحال التي أفارقه عليها . . قال .
أبو ذر : أنا يا رسول الله . . فقال عليه الصلاة والسلام . . « صدقت » .
ثم التفت إلى أصحابه فقال : ما أظلمت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء من ذى
لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر . . من سره أن ينظر إلى زهد عيسى
ابن مريم فليتنظر إلى أبي ذر ، واختيار رسول الله التشبيه بعيسى بن مريم
له دلالة . . فإن زهد عيسى بن مريم ، كان زهدا فى الدنيا وما فيها ،
زهد من لم يترك تشريعا ولا نصا واحدا يمكن أن ينسب لشئون الحكم
والاقتصاد والمال .

فزهدي أبي ذر ، هو زهد الصادق عن الدنيا ، لا المتصدى لها .
المتحمل لمسئولياتها ، القادر على أن يخوض عباها ، بما فيه من حق ،

ومافيه من باطل، ثم ينجو لاله ولا عليه .. كما كان يتمنى عمر بن الخطاب ..
إمام الزاهدين العاملين ..

وأبو ذر قد تعاهد مع رسول الله على أن يلقاه على الحالة التي يفارقه عليها .. وكان شديد الاصرار على تنفيذ عهده هذا ، شديد الرضا عن نفسه إذا وفى بعهده هذا .. « أنا أقربكم مجلسا من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .. وذلك أنى سمعته يقول : « إن أقربكم منى مجلسا من خرج من الدنيا كهيئته يوم تركته فيها .. وإنه والله ما منكم من أحد الا وقد تشبث بشيء منها غيرى »

فهو قد اختط لنفسه خطة تمكنه من تنفيذ ما ارتبط به ، وتحقيق له ما وعد به : أن يكون أقرب الناس إلى السكال .

ورسول الله قد اختاره لهذا الدور وأعد له .. دور « المثال » الذى يذبه ويوقظ آمال المحرومين .. ويروع جبروت المالكين .. صوت يقول الحق .. حتى ولو كان الحق غير ممكن .. فإن الدنيا تستحيل إلى ظلمات خانقة ، وتنحدر إلى الهاوية ، وتفقد صبغتها الإنسانية ، إذا ما اختفى حتى صوت الحق ..

طلب أبو ذر من رسول الله أن يوصيه فقال : « حب المساكين وجالسهم »

قال أوصنى قال : « لاتخف فى الله لومة لائم ، وقل الحق ولو كان مرأا » وقال : « إن خليلي عهد إلى أن أى مال : ذهب أو فضة ، أو كى عليه (ادخر أو احتجز) فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله »

قال : « إن خليلي عهد إلى أن دون جسر جهنم طريقا ذا دهب »
(له مزالق تزل عليها القدم) ومزلة ، وأنا أن نأتى عليه وفي أحوالنا اقتدار
أحرى أن ننجو من أن نأتى عليه ونحن موافق ،

وقد التزم أبو ذر حرفيا بما عهد إليه خليله . . كان يرفض أن يبق
في بيته درهما من فضة أو ذهب ، بل كان يلجأ في ما يحتفظ به من مال
لقوت عياله إلى أسلوب غريب ، إذ يستبدل له بفلوس من نحاس
ورصاص ! وهى كثيرة العدد ، ثقيلة الوزن ، بل لعلها أثقل على حاملها
في مزالق جسر جهنم يوم القيامة من الذهب والفضة . . بل وأدعى للريبة
فقد استغلها بعض خصومه في الشام عند بعث عثمان في طلبه بناء على شكوى
معاوية وإلى الشام ، فخرج يحمل كيسا من النقود يشقل على الرجل حمله . .

فقال الخصوم : أنظروا إلى الذى يدعونا للزهد وهو يحمل اكدا سا
من المال ، فقالت زوجته : إن هى الا فلوس من نحاس .

ولكنه لم يكن بالشكلى الذى يقف عند حد استرضاء النص
بدورانه حوله . . لا ، فالحكمة التى آمن بها وخلدها بسلوكه واضحة . .
لأن اكتناز الاموال أو تجمع رأس المال وتكدس الثروات ، لا يمكن
أن يتحقق بهذا النوع من العملة ، فابنته كانت تذهب لتشتري الطعام وهى
تحمل الثمن في « قفة » ولعل الذين يذكرون الخردة القديمة ، وكبر حجمها
يذكرون كم كانت تحمل ابنته إذا ذهبت للسوق . . بل وكان الباعة يردونها

(١) بعضهم الآن يلبس دبة من الماس ليجتنب تحريم الذهب ! كأن ابا ذر كان
يوسعة أن يستبدل الذهب والفضة باللؤلؤ مثلا ! .

ويرفضون أخذ هذه (الفلوس) منها زاعمين أنها بهرجة . . وأظن أنه
رغبة عن ثقلها ومشوثة حفظها . . وصعوبة عدها . .

فتجميع الثروات لا يكون إلا بالذهب والفضة . . واكتناز الثروة
في شكل نحاس أو رصاص يفضح صاحبه ويشير الشبهة حوله . . ولعل
الذين يدرسون الدور الذي لعبه المعدنان (الذهب والفضة) في تكوين
الرأسمالية الحديثة ، يتمنون لو أن دعوة أبي ذر سادت الدنيا . . بل إن
دولا كثيرة قد نحت منحى أبي ذر فألغت أوراق النقد ذات الفئة
الكبيرة حتى لايسهل الاكتناز وتهريب الثروات . .

وكما التزم بأن يلتقي الرسول كما تركه ، التزم بأن يقول الحق مهما
يكن مرا . .

والأصل في الحق أنه مر . . ولكن أبا ذر كان يتخير أمره . . وهو
الذي اقترح على امرأتين عابدين أن تزوجا إلهما إلهتهما ، فما كان
يتخير الألفاظ .

تأمل لقاءه القاسى لأبي موسى الأشعري . . وأبو موسى صحابي
جليل ، يقبل على أبي ذر فيعانقه في محبة الرواد وتشوق بعضهم لبعض
قائلا : (أهلا بأخي) فيدفعه أبو ذر في عنف وغلظة قائلا : (ابعد
عن ! لست بأخي منذ توليت) .

فهو يرى أن تولى السلطة يقطع الأخوة ، وأن تولى السلطة فساد . .
وهي نظرية قالها بعده بأكثر من ألف سنة ستيوارت مل . (كل سلطة
فساد ، والسلطة المطلقة فساد مطلق) .

فهل كان أبو ذر يدين كل من « تولى » .. وكل كبار الصحابة
تولوا .. ١٤ .. إن سلوكه يكشف عن صدوف ونفور من السلطة ..
فهو قد هاجر من المدينة منذ وفاة أبي بكر وأقام بالشام ، ولانعلم له
مواقف مع عمر .. ثم لا يعود إلى مسرح الأحداث إلا مع تغير الدنيا
وشوق المحرومين إلى كلمة الحق المر ..

وتأمل موقفه من « أبي الدرداء » فقد مر عليه أبو ذر فوجده بيتي
بيتاً له ، فقرعه قائلاً : « حملت الآجر » على أعناق الرجال ١٤ ، .

وكل من بنى بيتاً أو حتى كوخاً .. لابد أن بعض الرجال قد حملوا
الآجر له .. ولكن الطريقة التي يعرض بها أبو ذر القضية تثير أبعاداً
لاحد لها .. وتدين كل من استخدم الرجال منذ أن حمل « خوفو »
الآجر على أعناق الرجال لبناء الهرم ، إلى بيت أبي الدرداء
المتواضع ..

يقول أبو الدرداء : « إنما هو بيت أبنيه » .. فيعود أبو ذر فيكرر
سؤاله التقريعي ، وكأنه يخاطب الجففس البشري كله : « حملت الآجر
على أعناق الرجال » ١٤ .

ويحتد أبو الدرداء ويقول : « لعلك وجدت في نفسك على من
ذلك ؟ .. وكأنما استفز حاسة الحق المر في أبي ذر .. فإنه به يرد عليه
رداً جافياً عارياً لا يتخير له ألفاظاً فيقول له : « لو أننى وجدتك في
عذرة أهلِكَ ، كان أحب إلى مما رأيتك فيه » .

و «عذرة» كلمة معناها أوساخ وأقذار القوم . وأبو الدرداء صحابي جليل شهد من المواقع ما لم يشهد أبو ذر ، بل ومشهود له بالزهد ، قد قيل فيه أنه كان يدفع الدنيا عنه بالراحتين والصدر ، وله في الجنة قصر لم ترعين مثله ، ولم تسمع به أذن . . ولم يخطر على قلب بشر . . ولكن . . لأنه يبنى بيتاً له ، يستحق من أبي ذر هذا التعنيف القاسي الموجه . .

ولا ينبغي أن نتوهم موقفاً طبقياً في هذا الحوار ، أو نتصور «أبا الدرداء» يمثل الأغنياء أو المالكين ، «وأباذر» يمثل المحرومين أو العمل المأجور . .

لا . . «أبو الدرداء» بدوره لا يتورع عن الثورة والغضب والتقريع إن رأى بذخاً أو ترفاً في غير موضعه . . فتمد ذهب إلى عرس «سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب» فلما دخل وجدهم قد غطوا الجدران بقماش أخضر (فرش القرح أو ما يشبه الصيوان) فغضب أبو الدرداء ، وقال لعبد الله بن عمر : ما هذا يا ابن عمر . . أتسترون الجدار ؟ فاستحيا عبد الله بن عمر وقال في خجل ، « غلبنا عليه النساء . . » وتلك كانت نقطة الضعف في ابن عمر ، رفته وضعفه مع النساء ، حتى لقد كانت هي حجة عمر في عدم جدارة عبد الله بالخلافة . .

ورد أبو الدرداء : « لم أكن أخشى عليك أن تغلبك النساء . . والله لا أكلت لك طعاماً ، وخرج . .

وأبو الدرداء هنا يتبع وصية رسول الله عندما رأى عائشة زينب .

بيتها بقماش وضعته على الجدران ، فلما رآه عليه الصلاة والسلام جذبه
حتى هتسكه وقال : « يا عائشة ، إن الله تعالى لم يأمرنا فيما رزقنا أن
تكسر الحجارة والطين » .

من أسهل التفاسير أن نصف الصحابة ، كما يصف الجنود ، فنزعم
أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه يقف فى أقصى اليمين .. فهو يرى
تغطية الجدران ، وعلى يساره يقف أبو الدرداء يرفض أن تكسى
الجدران ، وعلى يسار اليسار يرفض أبوذر أن تقوم الجدران أصلا ..

ولكن لنؤجل حديث اليمين واليسار هذا حتى تستكمل بعض ملاح
أسلوب أبى ذر .. وحدته وجفائه حتى فى مجاملاته ..

لما نزل « أبو ذر » الربذة ، أقيمت الصلاة ، وعليها رجل يلى
الصدقة ، فقال تقدم يا أبا ذر فصل بنا ، فقال أبو ذر : لا ، تقدم
أنت ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : « اسمع وأطلع ،
ولأن كان عليك عبد مجدع ، فأنت عبد ولست بأجدع ! » .

وكان الرجل عبداً أسود اسمه مجاشع من رقيق الصدقة .

تخيل رجلاً فاضلاً تقول له . تفضل سيادتك .. فيقول لك :
لا ، تفضل أنت .. والله لو أحقر منك لتركته يتقدمنى ! .

لاشك أن صاحبنا قد ساءه هذا التكريم أكثر مما شرفه !

وحتى يسقط فى يد اليسار . فإن أبا ذر عندما احتضنه أبو هريرة
وقال له : مرحباً بأخى . سأله أبو ذر : هل تناولت فى البنيان ؟ قال

أبو هريرة .. لا .. قال أبو ذر : أنت أخى .. أنت أخى ..
وأبو هريرة غير أثير عند اليسار . !

وكان رأى أبى ذر فى الجنس البشرى : د هل ترى الناس ما أكثرهم !
ما فيهم خير إلا تقى أو تائب

عاهد خليله على أن يقول الحق مهما يكن مرأ .. وأن لا يخشى فى
الله لومة لائم : وشهد له على بن أبى طالب ، خير من شهد : د لم يبق
اليوم أحد لا يبالى فى الله لومة لائم غير أبى ذر .. ولا نفسى .. وأشار
إلى صدره . . .

ومن ذا الذى يضع أبا ذر على يسار على ؟ .. قد كان أبو ذر يقبض
راتبه ويحوله إلى فلوس من نحاس ورصاص .. حتى لا يكتز الذهب
والفضة .. أما على رضوان الله عليه ، فمكان يلجأ إلى أسلوب أحسم ،
كان يفرق كل مافى بيت المال من أموال ، ثم يأمر به أن يكفس ويرش !
يحب ذلك ويكرره دائماً .. أو كما نقول اليوم — يجعل بيت المال
انظف من الصينى بعد غسله .. فلا شبهة اكتناز بعد أن تكفس الخزانة
العامة وترش !

ولكن عليا رضى الله عنه عند سأل : من قتل عثمان ، فارفع مائة
ألف سيفت تقول كلنا قتلناه .. رأى أن يؤجل التحقيق ، حتى يستقيم
أمر المسلمين وتجتمع كلمتهم ..

وعلى لم ير تحريرهم تولى الوظائف العامة ، بل قبل الخلافة وقاتل
عليها وقتل وهو يتولاها .. بينما لما أدركت الوفاة أبا ذر ، وهو فى

الربذة ، وحيداً . . مصداقاً لقول رسول الله . . بكت امرأته ، فقال ما يبكيك ؟ قالت لا بد من تكفينك وليس عندي ثوب يسع لك كفنا . . فقال لا تبكي فإني سمعت رسول الله يقول ذات يوم وأنا عنده في نفر . . ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصاة من المؤمنين ، فكل من كان معي في ذلك المجلس مات في جماعة وقربة ، ولم يبق غيري . وقد أصبحت بالفلاة أموت ، فراقبي الطريق فإنك سوف ترين ما أقول لك . . قالت : وأنا ذلك وقد انقطع الحج اقال : راقبي الطريق فإني والله ما كذبت ولا كذبت ، فيبينا هي كذلك . إذا هي بقوم تحب بهم رواحلهم كأنهم الرخم ، فأقبل القوم حتى وقفوا عليها . . فقالوا : مالك ؟ فقالت : امرؤ من المسلمين تكفنونونه وتؤجرون فيه . . قالوا من هو ؟ قالت أبو ذر . قالت ففدوه بأبائهم وأمهاتهم (أى قال كل منهم فداه أبى وأمى) هم وضعوا سياطهم في نحورهم يبتدرونه . . فقال ابشروا فأنتم النفر الذين قال فيكم رسول الله . . ثم قال أصبحت اليوم حيث ترون ، ولو أن لى ثوباً من ثيابي يسعني لم أكفن إلا فيه ، فأنشدكم بالله لا يكفني رجل كان أميراً أو عربياً أو بريداً فكل القوم نال من ذلك شيئاً إلا فتى من الانصار . . كان مع القوم ، قال أنا صاحبه . . الثوبان في عيبي (الخرج أو الحقيبة) من غزل أمى . . وأحد ثوبي هذين اللذين على . . قال : فأنت صاحبي فكفني

وهكذا صدقت نبوءة رسول الله ، ومات وحده في الفلاة . . وصدقت نبوءة رسول الله وكفنته عصبة من المؤمنين ، ولو أن أبا ذر

قد صدمهم وروعهم ، إذ اتهمهم جميعاً في ذمتهم المالية ، ورفض أن يكفر في ثوب اشتراه رجل من إمارة تولاهما ، أو عرافة ، أو يريد كان يتولى نقله . . لأن هؤلاء جميعاً تحوطهم شبه الاختلاس ! ويدخل ما لهم الشك والظن . . وهم الذين فدوه بأبائهم وأمهاتهم . . ولكنه لم يكن بالذى يغادر الدنيا إلا وآخر كلماته « الحق المر » .

ومات وقد أعلن رأيه في السلطة .. كل السلطة .. كل المناصب مفسدة .. كل الأموال تغرى بالباطل ، وكل من تولى وتحكم في الأموال متهم .. ألا يقوم قانون من أين لك هذا على نفس الفلسفة ! بل ألم تكن هذه - إلى حد ما - فكرة عمر .. عندما كان يرسل مندوب الخزانة العامة يقاسم الولاة ثروتهم .

إن «عمر» رجل الدولة المسئول ، كان يعين الولاة ويعلم أنه يستعين ببشر عرضة لاغراء والانحراف ، ويجعل من نفسه مثلاً خالداً للحاكم الذى تتطلع إليه البشرية في تشوقها للعدل والنزاهة .. ثم يفرض رقابته الصارمة على الولاة ليصل بالحكم إلى أقصى ما يمكن من مطابقة الواقع للمثل .. ولكن تبقى صيحة أبى ذر ضرورية لفضح السلطة وتنبيه المحكومين . . وإدانة استغلال النفوذ . . لأنه أصبح اتهم موجه بصفة دائمة لكل من يتولى وظيفة عامة ..

ويغير سلطة الاتهام .. لا يسود القانون ، ولا يقوم العدل .. ولا يرتدع الذين في قلوبهم مرض . . فإن شئت فقل إن أباً ذر كان

المدعى العام ضد الأغنياء .. والسلطة ..

وقصة حديث « يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة أمة وحده » :

أن أبا ذر تخلف في غزوة مؤتة ، لأن ناقته كانت عاجزة ، فنزل عنها وحمل متاعه على ظهره ، وما كان يحمل الكثير ، فقد عرفناه لا يتزود في رحلاته إلا بالماء ، ورأينا كيف ظل في مكة ١٥ يوما و ١٥ ليلة لا يتزود إلا بماء زمزم فإذا به يسمن حتى تتكسر عكبن بطنه .. وإذا به لا يجد سخفة الجوع على كبده ..

ورأى معسكر المسلمين شبح رجل يسعى عن بعد .. فقالوا : رجل يمشى وحده يارسول الله ..

فتمنى رسول الله أن يكون ذلك القادم هو أبا ذر لحب رسول الله ، ووجهه ألا يتخلف أبو ذر عن شرف الجهاد .. قال رسول الله : « كن أنا ذر ، !

فلما اقترب بشر المسلمون النبي .. « هو والله أبو ذر » فقال النبي قولته الصادقة :

« يمشى وحده .. ويموت وحده .. ويبعث يوم القيامة أمة وحده » .

وقد رأينا أبا ذر يمشى وحده ساعيا إلى الجيش في ظروف قاسية . رأينا كيف صدقت نبوءة رسول الله .. ومات أبو ذر وحده في فلاة .. وكفنته العصابة المؤمنة ..

ولاريب في صدق نبوة رسول الله : « وسيعث يوم القيامة أمة وحده » .

كيف .. ولماذا ؟

أمة المرء في قاموسنا الديني . هم الذين يتبعون دعوته .. ومعنى الحديث أن أبا ذر سيكون وحده يوم القيامة ، فلن يتبع دعوته أحد .. فما هي الأدلة التي ي طرحها التاريخ ، والتي تعيننا على فهم هذه النبوة الصادقة ؟ هل كان أبو ذر يمثل حركة أو تيارا أو يعكس مطالب اجتماعية مطروحة للتطبيق ؟ أو هل يصح أن نقول أنه اليسار الإسلامي ، إلى غير ذلك من التشبيهات والتعبيرات التي أطلقت في السنوات الأخيرة ؟ قبل أن نناقش هذه القضية يحسن بنا أن نستكمل صورة أبي ذر مع الرسول ..

فقد كان رسول الله يعلم مستقبل أبي ذر كأن يراه أمامه مرسوما .. أراد مرة أن يخرج في رحلة مخوفة غير مأمونة العواقب فنصحه رسول الله ألا يخرج .. ويلح أبو ذر في طلب الاذن بالخروج فيحذره رسول الله قائلا : لكأنى بك قد قتل ابنك ، وأخذت امرأتك . وجنت تتوكأ على عصاك ! .

ورغم ذلك يخرج بزوجه وولده ، ويعود متوكئا على عصاه قد قتل ابنه وأسرت زوجته !

والمتتبع لصحبته مع الرسول يحدد كأنه عليه الصلاة والسلام يحرض على أن يبقيه في الاطار الذي يسر له (كل شيء لما خلق له) .. دور

الأنذير الصادع بقول الحق المر .. ولكن رسول الله يبعده عن مرا كز السلطة ، بل ويبعده عن المجتمع الجديد في المدينة ، ويعرف تناقضه معه حتى قبل أن يقوم هذا المجتمع بصورته الجديدة بعد أن تدفق الثراء وامتحن المسلمون بالسراء بعد أن صبروا على امتحان الضراء .. طلب أبو ذر من رسول الله أن يوليه الإمارة على إحدى الجهات ، فرفض الرسول قائلاً : « يا أباذر إنك ضعيف .. وإنها أمانة .. وإنها يوم القيامة خزي وندامة .. إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها .. إني أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمرون على اثنين ، ولا تولين مال اليتيم »

ماذا تعنى وضعيف، هنا .. وقد رأينا شدته وجرأته ، بل هو وحده الذى بايع على أن يقول الحق مهما يكن مرا .. ولما أسلم خرج إلى أندية قریش يضربونه ثم يقوم ليضربوه .. وقد عرفنا كيف كان يستخدم عصاه فى مجلس أمير المؤمنين عثمان يضرب بها كعب الاحبار .. ورأينا شدته فى النقد ..

فكيف يكون أبو ذر ضعيفاً ؟

إلا لأن القيادة والإمارة أو مسئولية الحكم ، قضية فنية معقدة ، وفعل الخير فيها لا يتم بمجرد الرغبة فيه . بل بالقدرة عليه . وثورية قاطع الطريق العربى .. تقف عند حد أخذ حق الحياة أو انتزاع حق الحياة عن يمنعه . أما تنظيم وضع اجتماعى يكفل حق الحياة للجميع .. فقضية لا يقوى عليها الرفض ولا المنتزع حقه بالقوة .

ورسول الله يحب لأبي ذر ما يحب لنفسه ، أى أن يأتي يوم القيامة
تقيا من انحرافات السلطة والمال ، لذا ينصح أباذر ألا يلي الإمارة على
اثنين ، ولا يتولى مال اليتيم ، ولكن رسول الله تولى أمر المسلمين
جميعا .. وتحمل مسئولية ما لهم .. والفرق هو فى قوله صلى الله
عليه وسلم : « إنك لضعيف » .

ورسول الله لا يخشى على مال اليتيم من أمانة أبي ذر .. ولكن أى
يتيم يخشى على ماله من وصى يحول ثروته إلا رصاص ونحاس ..
من وصى يؤمن أن كل كيس صر على دينار أو درهم (ذهب أو فضة)
فهو « مكواة » تكوى بها الجنوب فى النار .

الوصاية على مال اليتيم تعنى إدارته .. حفظه وصيانته واستثماره ،
وأبوذر آخر من يصلح لهذه المهمة .. فهو العدو الألد لفسكرة الاستثمار :
« لا ينبغي للأغنياء أن يفتنوا مالا .. » ، وهو شعار لم يتحقق
نقط حتى ولا فى الصين !

« عهد إلى خليلي أن أى مال : ذهب أو فضة أو كى عليه فهو جمر على
صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله » .

« المال هو درهم تنفقه على عيالك من حله ، ودرهم تقدمه لآخرتك
والثالث يضررك ولا ينفعك .. يا أيها الناس قد علمكم حرص لا تدركونه أبداً .
هذه هى صورة المجتمع النموذجى ، شرط أن يكون سلوكاً عاماً ،
وإلا تحول الاختيار فيه إلى متسولين .. وانهارت الدولة ، إذا آمن
حكامها بفلسفة على بن أ ، طالب ، فانفقت كل ما فى الخزينة العامة على
الشعب .. وكفسته ورشته ، ثم واجهها طارىء يحتاج إلى المال ، فخذلتها

الرعية ، واكتنزوا المال وحجبوه عن الدولة .

أما وهذا المجتمع المثالي غير ممكن ، في حدود ما مر على البشرية من نظم ، فإن أبا ذر يجب أن يبقى بعيدا عن السلطة ، حتى لا يعرض القيم النبيلة لامتحان عسير . .

وبوصية رسول الله امتنع على أبي ذر أن يتولى السلطة ، ولم نسمع أن أحد عرضها عليه ، لافي زمن أبي بكر ، ولا في عهد عمر وعثمان بعده . وهو قد التزم بوصية خليله فما سعى إليها ولا قبلها ، ورفض رفضا قاطعا . أن ينصب له راية ، كما دعاه بعضهم . . أى يدعو إلى نفسه . .

فالنبي صلوات الله عليه وسلامه ، قد عرف أبعاد دور أبي ذر . . وعاهده عهد الخليل لخليله ، وأن يقول الحق مهما يكن مرا . . وأن لا يخشى في الله لومه لائم . . وأن لا يتولى القيادة على اثنين فلا يقترب من السلطة ولا يحمل مسؤولية الحكم . . ولا يبقى في المجتمع إذا مداخل مرحلة الافتناء والعمران والتطاول في البنيان .

فكانه خارج مؤسسات المجتمع الرسمية ، خارج فئاته المالكة . . وهو أيضاً ممنوع من قيادة حركة أو شق عصا الطاعة أو الثورة . . يسأله النبي : « كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يستأثرون بالنبي ؟ » . .

تأمل السؤال ١ .

وتأمل أنه يوجه لأبي ذر بالذات ١ .

ويورد «أبو ذر» : «إذن والذي بعثك بالحق ، أضرب بسيفي حتى
ألحق بك»

إجابة إسلامية كاملة . . وموقف لا يتردد أبو بكر وعمر وعثمان
وعلى في اتخاذه . .

ولكن أبو ذر !

ماذا يقول رسول الله ؟ . .

«أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك ؟ . . اصبر حتى تلقاني !» . .
ويتنبأ الرسول مرة أخرى بأنه سيختلف مع أمرائه فيطلب «أبو ذر»
«الاذن من رسول الله بقتالهم . . ولكن الرسول يقول له . . «سمع
وأطع . . ولو لعبد حبشي» . .

لذلك لم يستجب للذين دعوه للثورة . . بل كان أكثر الصحابة
قانونية في جهاده . . والنزاهة بالعمل في إطار النظام . .

ولعله من المثير والجدير بالتأمل أن هذا الصحابي الجليل المتهم
بالبسارية ، والراية التي يتجمع تحتها كل المفسرين اليساريين الآن . .
هو وحده ، أو قل إنه أحد المصادر الرئيسية لكل أحاديث طاعة
الحكام . .

هو الذي قال : « لا تذلو السلطان فإن من أذل السلطان فلانوبة له . .
وهو نص لو أخذ بحرفيته لشل كل ثورة ، وأدان كل معارضة
أو مقاومة للسلطان !

بينما يقترح عمر أن تقتل الأمة الحاكم المنحرف ! .

ويقول أبو ذر : « والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبه
لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ، ورأيت أن ذلك خير لي » .

ورفض حتى أن يقاوم الرجل الحكام الذين يسلبونه ماله ! فهو
مع الشرعية إلى النهاية ..

كان يلتزم حدود الدور الذي اختاره لنفسه ، واختارته له إرادة
الله .. أن يكون صوت الحق المر .. لا تقترب من السلطة ، لاحكام ..
ولا تائرا ..

كذلك نصحه رسول الله : « إذا بلغ البناء سلعا فاخرج » وأشار
بيده إلى جهة الشام ..

أى إذا امتد عمران « المدينة » إلى مسافة ثلاثة أميال فارحل عنها .

وقد رأينا مبلغ الحدة التي اتسمت بها مناقشته مع أبي الدرداء
لمجرد أنه رآه يبنى بيتا . فأي اضطراب كان سيثيره أبو ذر وهو يرى
البناء يمتد والعمران ينتشر حتى يتخطى المدينة ؟ .

فكم من أصحابه كان سيخاصم ويختصم معهم وهو يرى البيوت
تتناثر هنا وهناك .. وهو يرى صحابة رسول الله يبتنون البيوت ،
ويقتنون متاع الدنيا .. أليس من الخير لمثل هذا الذي وعد الرسول
أن يأتي يوم القيامة كما تركه ، أليس من الخير أن يخرج من مجتمع كان

من المستحيل أن يبقى كما تركه الرسول . . . فما يقوى على البقاء
فيه إلا أحد اثنين:

. من يقبل التغيير ويسأل الله السلامة . .

. أو من يتصدون للمسؤوليات ويحملون الناس على الجادة ،
ويبذلون جهدهم كي يردوا إلى الناس بعض الحق الذي يعرفون أنه يغتصب .
كان عمر من هؤلاء ، وكان على من هؤلاء ، زهدوا وحكموا وأقاموا
عدلا ما رأت البشرية مثله ، وبقوا وما تغيروا ، انتصرت القيم في
سلوكهم ، وجاهدوا لنصرها في أمة تتغير ، وجمتمع يتدفق عليه الثراء ،
ويمتحن — كما قلنا — بالسراء وفتنتها أكبر ، كما قال عبد الرحمن
ابن عوف ، معتذرا للشباب الذي سعى إليه من أطراف الوطن الإسلامي .
فرأى الصحابي يزرع بيديه ويحول الماء مقبلا على الدنيا كأقبله على
الآخرة . .

وخرج أبو ذر من المجتمع ، زهد وما تغير . . نأى بنعسه ، وحفظ
وعد خليله . .

وهذا هو الأصل في خروجه إلى « الربذة » ، فليس صحيحا أن عثمان
نفاه . . فهو قد خرج إلى الشام بعد وفاة أبي بكر ، وبقي هناك ، فلما
اشتدت الاضطرابات بعد مقتل عمر ، وتعددت الأذان الملتشوقة
لصحيحات أبي ذر . . أخرجه معاوية إلى المدينة . . وبعد لقاء مع
عثمان . . طلب الإذن بالخروج من المدينة . .

وفتأذن لي في الخروج . . فإن المدينة ليست لي بدار . .

واستغرب عثمان أن يكره صحابي سكنى المدينة أو يرفضها داراً . .
فيقول : « أو تستبدل بها إلا شراً منها ؟ » .
وفسر أبو ذر رغبته بقوله :

« أمرني رسول الله أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلماً » .
ورد عثمان : فأنفذ لما أمرك به . .

ثم رواية عن اعطاء عثمان له « أربعين من الابل وملوكين » .
ويمكن أن نسقط هذه الإضافة . . ولكن المؤكد أنه قال له :
« فلا تباعد عن المدينة حتى لا ترد أعرابيا ، فقد كان رسول الله يقول
لأبي ذر إذا ما غلبته حدته : « أما فارقتك أعرابيتك بعد ؟ » .

كانت الاضطرابات تحتاج كل العواصم الإسلامية ، والتغيير العنيف
في حياة الإنسان وقيمهم وأخلاقهم ، يهز كل شيء . . فما كان لأبي ذر ،
مادامت السماء تريد أن تتم كلمتها ، وتيقية في دور قائل الحق المر ،
إلا أن يخرج إن الربذة . . في الصحراء . . على بعد ٣ أميال من المدينة .

وليس هذا بالمنفى . . وهو لا يتعذر الوصول إلى المدينة إن
أراد الثورة ، بل لعله هناك يستطيع — لو أراد — أن يقيم معسكراً
للثائرين والمتمردين يغزو به المدينة . .

ولم تكن عليه حراسة تمنعه من مغادرة الربذة لو أراد ، إلى أي من
الامصار التي تضطرم بالفتن والاضطرابات ، والتناقض بين قيم المجتمع
الذي بناه الرسول وواقع الحياة الجديدة التي يبنيها من دخلوا حديثاً في

دين الله ، وجاءوا بكل تراثهم الاجتماعى . . كان يستطيع الانتقال إلى أى بلد إسلامى ، بدليل أنه لما كان بالربذة ، زاره أحد أصحابه فوجد عنده امرأة سوداء شعثة . . فقال له ألا تنظر إلى ما تأمرنى به هذه السوداء ؟ تأمرنى أن آتى العراق . . فإذا أتيت العراق ، مالوا على بدنيهم . . ألا أن خليلي عهد إلى . . ثم روى حديث جسر جهنم ، ومزالقه ، وخطورة أن يمر المرء عليه يحمل أكداًس الذهب والفضة . فهو كان يملك — إذا أراد — أن يذهب إلى العراق فيلتف حوله الناس بدنيهم ، وإكته يرفض ذلك التزاماً بوعده لرسول الله . وهو يربط بين السلطة واكتناز الذهب والفضة ربطاً محكماً ، لا مفر من الوقوع فى الثانية إذا ما ما قبلت الأولى . . ولعله كان بذلك أ كشرهما لقوانين التطور الاجتماعى فى عصره من الشائرين الذين دعوه لينصب لمرأية . . المهم أن فكرة النفى مستبعدة وواهية الأساس ، وهى من اختراع الذين حشدوا كل الطعون ضد عثمان رضى الله عنه .

هو منفى اختيارى . . يفرضه صاحب القيم على نفسه ، استجابة لمن لا ينطق عن الهوى ، فى مرحلة تأبى قوانين الحياة أن تستجيب لأحلام الطاهرين . . .

دخل عليه رجل فلم يجد شيئاً فى بيته ، فقال :

— يا أبا ذر أين متاعكم ؟ .

فقال : لنا بيت نوجه إليه صالح متاعنا (يعنى فى الآخرة نوثق بيديتنا الذى هناك بصالح الأعمال) .

فقال الرجل : لا بد لك من متاع مادمت هنا . .

قال أبو ذر : صاحب المنزل لا يدعنا فيه .

الرجل يرى أنه مادمننا في هذه الدنيا ، فلا بد لنا من وسائل العيش فيها ، ولكن أبا ذر يرى أنه لا يملك بيت الدنيا ، وصاحب البيت لا يلبث أن يخرجنا من دار الفناء هذه إلى دار البقاء والخلود . .

فهو على سفر في هذه الدنيا . . وقد عرفناه لا يتزود في سفره بأكثر من الماء ، وشتان بين سفر وسفر ، وزاد وزاد ! .

وهو ما كان بالداعية كما عرف الناس الدعاة ، وقد رأيناه ينافر أبا الدرداء على بيت يبنيه ، فيدفع أبا الدرداء إلى رد قاس ما كان يجب أن يقوله . .

وقبل ذلك رأيناه يواجه المرأتين في الكعبة بقول لا يمكن أن يفتح بابا للفهم والایمان . .

بل لقد رفض حتى أن تكون له مدرسة ورفض حتى أن ينشر على الناس العلم الذي عرفه ، فقد شهد له علي بن أبي طالب شهادة خطيرة فقال : « وعى أبو ذر علما ، عجز فيه ، ثم أو كأ عليه فلم يخرج منه شيئا . . وكان شحيحا حريصا : شحيحا على دينه ، حريصا على العلم . »

والجدير بالتأمل أن « علي بن أبي طالب » رضى الله عنه يستخدم نفس اللفظ المحبب لدى أبي ذر في الحديث عن الذين : « أو كوا ، على الذهب والفضة ! .

« فأبو ذر ، العالم لم يقدم علمه للناس . . ومن ثم فلم العذر أن
لم يتبعوه ، فقد علم وعمل بما علم . . التزم بكل ما أوصاه به خليله . .
ولكنه « أوكى ، أى أغلق على هذا العلم ، فلم يخرج منه شيئا . .

وواضح أنه رضى الله عنه لم يكن معلما ، وقد رأينا كيف أنه دعا
غفارا للإسلام ثم لم يؤمهم للصلاة . . .

فهو رجل حالت كل العوامل بينه وبين أن يكون معلما ، أوزعيما
سياسيا ، أو قائد حركة ، أو صاحب مدرسة ، بمعنى الالتزام والتنظيم
والترابط . . فهو قاطع طريق في بداية حياته — كما رأينا — أى تأثير
فردى يكتفى بأن يعيد تقسيم الثروات بأسلوبه الخاص ، وفى كل هجمة
يثب فيها ، ولا يمكن أن نسمى ذلك حركة أو موقفا اجتماعيا متكاملا ،
يمكن أن يفضى إلى تغيير فى بنية المجتمع القائم . . أو يعيد الطبقات فيه .

ثم هو يذهب فيسلم وحده ، ويعود لقومه فيهديمهم الله به للإسلام ،
ثم لا نسمع له واقعة ، حتى يعود لصحبة رسول الله ، فينصحه ألا يتولى
الإمارة ولو على اثنين . . ثم هو الذى يختصه رسول الله بأحاديث
الطاعة للسلطان . حتى يصبح رضى الله عنه مصدرا رئيسيا للفقهاء النظامي
الداعى لطاعة ولى الأمر ، والرافض للتغيير بالثورة . . .

وعندما استدعاه عثمان رضى الله عنهما . . بعد شكوى معاوية الذى
خشى من دعواته على الأمن فى الجبهة الإسلامية مع الروم ، أو إن شئت
على الدولة الإسلامية التى كان يبنئها فى الشام .

فلما دخل على عثمان ، تناجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما
 (أى احتدا فى نقاش أخوى حر) ثم انصرف أبو ذر مبتسما .. فقال له
 الناس : « مالك ولا مير المؤمنين ؟ » ، قال : « سامع .. مطيع ..
 ولو أمرنى أن آتى صنعاء أو عدن ، ثم استطعت أن أفعل لفعلت » ..
 وروى من شهد الاجتماع التاريخى بين عثمان أمير المؤمنين وأبي
 ذر قصة هذا الاجتماع فقال :

« دخلت مع أبي ذر فى رهط من غفار على عثمان بن عفان من الباب
 الذى لا يدخل عليه منه ، قال وتخوفنا عثمان عليه ، قال فانهى إليه ،
 فسلم عليه ، قال ثم ما بدأ بشىء إلا أن قال « أحسبتنى منهم يا أمير
 المؤمنين ؟ والله ما أنا منهم ، ولا أدركهم (أى احسبتنى من الداعين
 إلى الفتنة وخلع طاعتك ، والله ما أنا منهم .. ولا أصل لما وصلوا
 إليه) لو أمرتنى أن آخذ بعرقوقى قتب لأخذت بهما حتى أموت » .

واستأذنه أبو ذر فى الخروج إلى الربرة ، فأذن له عثمان كما رأينا ،
 بعد أن عرف وصية النبى إليه بالخروج ، قبل وقوع الفتنة ، وفى
 الرواية أن عثمان عرض عليه هبة من الإبل وغيرها ، وأن أباذر
 قبل ، وفى رواية أخرى أنه صاح بأعلى صوته رافضا أموال قريش
 ودنياها ..

وصدق رسول الله : « مامن ذى لهجة أصدق من أبى ذر » ..
 ولكن الصدق حالة ذاتية ، فالمرء قد لا يكون مصيبا ولكنه صادق

فيما يقول .. صادق فيما يجاهد الناس به .. وصلوات الله على من لا ينطق عن الهوى ، فإنه لم يقل : « من ذى رأى أصدق من أبى ذر » بل قال « لهجة » .. وقد تقول غير الصواب .. ولكنه الصدق ، أى ما تؤمن به ..

وأبو ذر عندما نفى لعثمان أن يكون « منهم » كان صادقاً ، فحادثته نفسه لحظة واحدة ، أن يشير فتنه ، أو أن يشق عصا الطاعة ، ولو أدرك عثمان يوم حاصره الثائرون لقاتل دون بابه .. غير أنه ما من مؤرخ يستطيع أن يقول أن كلمات أبى ذر لم تساهم في تحريك هذه الجماعات التي زحفت على المدينة تريد عدل عمر ، في أمة غير أمة عمر ! .. تريد من خليفة رسول الله أن يبقى عليها مجتمع الرسول في مجتمع بعيد إلى حد بعيد عن صحابة رسول الله .

وما من شك في أن كتاباته حجة حاسمة في يد الذين حركوا الزاحفين إلى المدينة .. الطيبين منهم .. أو أطراف الأخطبوط الصهيوني العالمي الذى بدأ يتحرك منذ أن وصل رسول الله إلى المدينة ..

ولكن أبا ذر كان صادقاً ، فما كان منهم ، ولا كان يسعى سعيهم ، ولا ظن أن الأمر يصل إلى ما وصل إليه ..

ولا يمكن لمن نسب إلى التفكير العلى الحديث ، أن يضع أبا ذر إماماً لما يسمى باليسار ، أو معبراً تمام التعبير عن هذا اليسار ، ولا أن

يخضع عليه صفة أكثر المسلمين اشتراكية ..

فما كان أبو ذر يلتزم إلا بقضية واحدة هي انفاق الأموال ،
انتقال الثروة من يد الأغنياء إلى الفقراء ، رفض الثروات ، وقيام
مجتمع ينقسم بين أغنياء يخبسون الثروات ، ويستأثرون بها ، وفقراء
لا يجدون ..

رفض ادعاء جانب من المجتمع أحقيته في هذه الثروة ، فهي مال
المسلمين جميعاً لأنها من فضل ربهم جميعاً ..

أو قل إنه كان يشير قضية على جانب كبير من التعقيد والاهمية
والخطورة : قضية تراكم الثروات ، فهي جوهر المأساة في التاريخ
الإنساني .. ومفتاح الاستغلال ، وأداة انقسام المجتمع إلى طبقات ،
ولكنها أيضاً ، الطريق الوحيد لقيام الحضارة .

فأبو ذر كان ضد تراكم الثروات ، يكره الذهب والفضة لانهما أداة
الاكتناز ، وبالتالي تراكم الثروات ، ولكنه في قضايا اجتماعية أخرى ،
يغيرها لا تكتمل يسارية ولا تستقيم اشتراكية .. لا نجده في مثل
موقفه من قضية الثروات . فأبو ذر هو الذي يختلف مع ابن عمه فيقول
لله « يا بن الامة ، .. يعيره أنه ابن جارية .. رقيق .. ولو كان أبوء
حرأ ، بل وعم أبي ذر نفسه !!

ويعاتبه خليله : « أما ذهبت عنك أعرابيتك ، ..

ونجد عتاب الرسول هنا رقيقاً .. لأن أبا ذر يعير ابن عمه ،

وهو ندّ له ، مهما تكن الوضعية القانونية لأمه ، ولأن وقوع الإنسان في حالة الرق طرف عارض ، ومن ثم فإن الاحساس بالتعالى على الرقيق أو ابن الرقيق ، يستنكره نبي المساواة المطلقة ورسول الله إلى خلقه بالقيم الإنسانية في قمة تألقها . . إلا أنه لا ينبعث من عنصرية . . أصيلة ، ولا يخشى أن يشكل قاعدة لتفرقة عنصرية . . فالرق حالة عارضة .

ولكن هذا العتاب الرقيق أو اللوم الرقيق من الخليل لخليله ؟
 « أما فارقتك أعرايتك » يتحول إلى ثورة غاضبة ، وغضب ثأري يفرغ لله أبو ذر ويرتعد ، فيدفعه إلى موقف النقيض في أقصى صورته . .

يغضب الرسول على خليله أبي ذر غضبة تصل ذروة ما يعرف عن رسول الله في غضبه عندما يلج تفرقة عنصرية ، عندما يختلف أبو ذر مع بلال ، فيقول له أبو ذر : « يا ابن السوداء » .

هنا إحساس بالتمييز ، مجرد الأصل ، لصفة لا دخل للإنسان في اكتسابها ، أو فقدانها ، ولا أمل في تخطيها ، هنا حاجز ليس من صنع البشر ولا بوسعهم أن يزيلوه ، فليس من حق بعضهم أن يجلس فوق سور اللون محترقا من يتصور أنهم أسفل السور . . لأن لونهم يخالف لونه . .

هنا يصيح الرسول : « طف الصاع ؟ طف الصاع ، أي تجاوز الأمر كل حد ، ولم يعد يمكن السكوت عليه ، ثم يعلن في مواجهة أبي ذر « ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء » .

ويدرك أبو ذر مدى غضب خليله ، ويدرك أنه في هذه المرة ليس معاتبا ، ولا منتقدا ، بل رافضا زاجرا معترضا على موقف يتنافى مع أصول الفهم الاسلامى . .

وسرعان ما ينأى قاطع الطريق على الأرض ، ويضع خده على الرمال طالبا من بلال أن يطأ خده بنعله ، مكفرا عن جريمته بالحديث عن التفرقة العنصرية .

صورة تهز قلب كل حر في أمريكا اليوم .

صورة تتألق فيها النبوة إلى ذرى لا ينالها بشر .

صورة تسمو فيها المبادئ الاسلامية الاصيلة فوق كل التقسيمات والخانات ، فلا يمين ولا يسار ؟ وما حاجى هذا الدين أحد إلا غلبه . .

أين أبو ذر من عمر الذى يقول عن بلال : « أبو بكر سيدنا وأعز سيدنا » أى بلالا .. وعمر فى قومه وقبيلته أعز من أبى ذر ، وعمر بمكانته فى الاسلام أعز من أبى ذر ، فقد أعز الله الاسلام بعمر ، وشهد من المشاهد ما لم يشهد أبو ذر . . وهو وزير النبى وخليفته . .

بل أين أبو ذر فى جرأته وحدته وقسوته ، وهو يعير بلال بأنه ابن السوداء ، فإذا جبهه وحى النبوه خر فيما يشبه السجود - أستغفر الله - عند نعل بلال ا .

لأنهم جميعا أصحاب رسول الله وتلاميذه .

وتبقى صيحته خالدة على مر الزمان وعبر كل المسكان .

فما أحوج أمريكا اليوم إلى صوت يدوى فوق تمثال الحرية .
طف الصاع . . طف الصاع . . ليس لابن البيضاء فضل على ابن
السوداء ، ولا شك أن الغضبة النبوية قد علمت أبا ذر ألا يفرق بين
الناس بسبب لونهم ، بل نجده قد اتخذ على عادته موقفه الاستشهادي ،
عند الطرف الأقصى ، فيتزوج أمة سوداء ! ولكن مع التزامه ، بل
ومغالاته في احترام أبناء السوداء نجده يمارس ذلك باحساس لا يفارقه
عن مكانتهم !

ولا شك أن هناك أسبابا عديدة ، تاريخية ، نفسية وبيولوجية ،
وبعضهم يضيف إليها الآن جنسية خلقت هذا الاحساس بالتمفرقة
العنصرية ، وتفضيل اللون الأبيض على الأسود .

وتتجلى عظمة الإسلام في أنه رفض كل هذه الأسباب ، ووضع الأساس
الموضوعي للإيمان بالمساواة ، ثم طبق هذه المساواة في أكمل صورها
كذلك استطاعت تعاليمه أن تفرض هذه المساواة حتى على الذين
لم يستطيعوا أن يقتلعوا الاحساس بهذا التفوق . . بل كان إحساسهم
هذا وإدراكهم أنه يتناقض مع تعاليم الإسلام دافعا لهم إلى المغالاة في
احترام الجنس الأسود . .

فأبو ذر - كما رأينا - يتزوج سحماء (سوداء) ويفسر ذلك بقوله
« أتزوج من تضعني أحب إلي من ترفعني »

فهو يرى أن السحماء أى السوداء تضع الرجل . . . وموقفه سليم
لاعنصرية فيه من ناحية السلوك الاجتماعي ، بل هو يفرض على نفسه

(١) من العملية الجنسية ، وقد البيض على ما يشاع خطأ عن تفوق السود .

مالا يفرضه أى مؤمن بالمساواة بين الجناس ، لإذ يتزوج امرأة سوداء .
ولكنه رغم هذا كله ، مقتنع بأنها زوجة تضعه ولا ترفعه ..

وهو يدعو العبد إلى التقدم للصلاة قائلا : قد أمرت أن أسمع وأطيع
ولو لعبد حبشى .. فأنت عبد حبشى ، وفى رواية « ولو لعبد أجدع ،
فأنت عبد ولست بأجدع » ١ .

هنا يتفوق الإسلام على أبى ذر ، فالإسلام أجاز لإمامة العبد الأسود ،
والكنيسة الغربية لم يصل إليها كـ دينال أسود إلا فى النصف الثانى من
القرن العشرين ، وبعد استقلال افريقيا ، وبهدف تضليل الافريقيين
لأهدافهم .

بينما كان أول قائد لجيش الدولة الإسلامية ضد العدو الخارجى ..
أسامة بن زيد .. أسود أفطس .. فأبو ذر لم يمثل اليسار ، ولا كان
أكثر الصحابة اشتراكية إن صحت التسمية .. وما كان بالداعية ، وإن
ألمهبت كلماته حماسه المتعطشين لتوزيع الثروات ، وأقضت مضاجع الأغنياء
حتى أنه لما وصل إلى المدينة .. « كثر الناس على كأنهم لم يرونى من قبل » .
ولخص الطبرى تأثيره الاجتماعى فقال « إن أبى ذر جعل يقول :
يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء .. بشر الذين يكنزون الذهب والفضة
ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تمكوى بها جباههم وجنوبهم
وظهورهم . فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ،
وحكى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس » .

ولكن كلما وقف يعظ انفض الناس من حوله .. ربما خوفا من

جواسيس معاوية .. وزبما لان الامر كما قال أبو ذر ، ما زال بي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يبق لي قول الحق صديقا ، أو كما أجاب سائلا ، يا أباذر مالك إذا جلست إلى قوم تركوك ؟ قال : إني أنفاهم عن كنز المال .

حتى الثائرون في عهده ما كانوا ليرفضوا كنز المال .. بل كانوا يريدون جانباً أكبر عند توزيع الثروات ، كما فعل الزنج بعد أبي ذر بأربعة قرون ، قلبوا المجتمع فاستعبدوا البيض !

فما كان الفقراء الثائرون في عهد أبي ذر يريدون إلا أن يحتلوا مواقع الأغنياء .. وما كان بوسعهم أن يتصوروا المجتمع إلا على هذا النحو ، في لحظة من التاريخ ما كان يمكن أن تقوم حضارة إلا عبر انقسام المجتمع إلا أغنياء وغير أغنياء ..

وعندما اختلف أبو ذر ومعاوية في المحاورة المشهورة :

يسأل أبو ذر معاوية : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟
يرد معاوية رجل الدولة : « يرحمك الله يا أبا ذر ! ألسنا عباد الله والمال ماله ، والخلق خلقه ، والامر أمره ؟ » .

فيرد « أبو ذر » في لهجته الحاسمة التي لا تطيق جدل المناطقة ، ولا تعرف المبارزة الرشيقة بالالفاظ — « فلا تقله » .

ويرد معاوية بدبلومه اسيته وذكائه العجيب ..

« فإني لا أقول أنه ليس لله ، ولكن سأقول : مال المسلمين » ..

واضح أن المعنى المباشر عند أبي ذر « مال المسلمين » . يأخذه المسلمون » .

ولكن يصعب أن نقرر أى القولين « مال المسلمين ، أو « مال الله » ليشكل قاعدة اشتراكية أوسع .

أليس القول بأن المال مال الله ينفي حق أى فرد أو جماعة فى أن تستأثر به أو أن تتولى حق تقسيمه ؟ .

بينما القول بأن المال مال المسلمين يعنى أن من حق أمير المسلمين أن يتولى تصرفه ؟ .

ولكن يرد على ذلك أن ولاية أمير المؤمنين على المال تكون هنا نيابة عن المسلمين ، المالك الاصلى للمال . فهو باسمهم ولحسابهم يتصرف فى المال . وأخطر من ذلك أن القول بأن المال مال الله قد يخلق الأساس لمن يقول أنه يتصرف - نيابة عن الله - فى ماله .

هذه كلها قياسات تدفع إليها لاجحة المنطق .. ولكن عمر أسقط قدسية الملكية انطلاقاً من أن الله هو المالك .. بينما خشى أبو ذر أن تكون نسبة المال إلى الله مدخلاً للاستئثار .. ولو أنه لم يشرح ولم يجادل . فالذين يستأثرون بالفى . (مرويات الامة الإسلامية) قد وجدوا فى الإسلام فى مختلف العصور ، والذين يكتزون الذهب والفضة لم يخل منهم مجتمع ولا قرن فى التاريخ الإسلامى .

وليس أبو ذر وحده الذى دافع عن عدالة التوزيع ، ولا كان أكثر المطالبين وضوحاً .

فهذه القضية كانت تشغل بال الصدر الأول من المسلمين بلا استثناء ، وكان يقلقهم أو قل يروعهم رؤية مجتمع ينقسم فيه الناس إلى أغنياء وفقراء ، وأكثر ما يروعهم أنه يقوم باسم الإسلام ، وبسيوف الذين أرادوا أن تمتلئ الدنيا عدلا .. وفي ظل تعاليم الإسلام ، التي ترفض التفرقة ، وتبني اكتناز الثروات .

وقد حاول كبار الصحابة جهدهم أن يوقفوا هذا التحول بسلوكهم غيما يملكون .. وبموقفهم من الأغنياء ..

يقول علي ؑ إن الله تعالى فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم ، فإن جاعوا أو عروا أو جهدوا فبمنع الأغنياء . . وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه . .

أى أن سبب الفقر ، بل كل المظالم الاجتماعية هم الأغنياء .

وعندما مات عبد الرحمن بن عوف ، ورأوا ضخامة تركته ، تسامل عثمان بن عفان ؑ عن صاحب هذا المال ، ولو أنه تصدق وأعطى لوقام على ماله كخير ما يقوم المسلم . . ١٤٠ ، فرد كعب ، أنه ؑ يرجو الله خيرا . .

فعثمان يتسامل عن مصير عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المشهود لهم بالجنة . ويشير شكه وقلقه ضخامة الثروة في حد ذاته ، ويجد أنه حتى لو قام صاحب المال عليه كخير ما يقوم المسلم فإن ذلك لا ينفي التساؤل والقلق والشك .

وكعب رغم أصله اليهودى ، لا يقطع ولا يجزم بل (يرجو)
له خيرا ..

وسؤال عثمان واحتمالات كعب ، تحمل كلها معنى الإنهام للمال
والشك فى مصير جامعه .. وتنبع من كون المال فى ديننا متهم .. وتكسد
الثروات بقلق الضمير الإسلامى ، مهما تكن مصادره ومصارفه .

ولكن أبا ذر يرفع عصاه ويعلن « وما يدريك يا ابن اليهودية أن
صاحب هذا المال يود يوم القيامة لو كان ماله عقارب تلسع قلبه ! »

* * *

وعمر أراد أن يلحق أوائل المسلمين بأواخرهم ، أى يقسم دخل
الامة بالتساوى . . (فليس أحد بأحق من أحد فى هذا المال) وقرر
أن يأخذ فضول مال الاغنياء فيردها على الفقراء .

ومعنى هذا القول أنه كان ينوى أن يطبق لأول وآخر مرة فى التاريخ
شعار (لكل حسب حاجته) .

لأن الفضل ما زاد عن الحاجة . . ففى الحديث عن رسول الله « من
كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد
فليعد به على من لا زاد له . فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا
أنه لاحق لأحد منا فى فضل .

ربما لوبقى هؤلاء الرجال ، أصحاب رسول الله ، لاكتشفوا لنا
طريقا لم تعرفه البشرية حتى اليوم ، طريقاً تترأى فيه الثروات وتستثمر
وتنمو ، ثم تقسم بالعدل فلا يستأثر بها الاقوياء .

طريقا يحقق الرفاهية للمجتمع والمساواة لأفراده . ربما لو عاش
صحابة الرسول ..

ولكن ما كان للبشر أن يخلدوا في الأرض .. وقد مات صحابة
الرسول وجاءت رعية لا تريد الغنى فحسب ، بل وترضى بالفقر وتقبله
كأنه العدل ومثل هذه الرعية ما كانت لتسمع صيحة أبي ذر ..

فهذا الصوت الصاروخ في الدولة الإسلامية .. ما اتبعه أحد ولن
يتبعه أحد طالما ظلت الدنيا على هذا النظام الذي اصطنعه الإنسان ...
ولكن ...

ما أوحش الدنيا من غير صوت يصيح .

والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم
بعذاب أليم) ..

وما أبشع العلاقات الإنسانية بغير صرخاته .. تنبه الغافل وتوقف
الضماير ، وتشهد ثورة الفقراء ، وتورق ليل الأغنياء القساة
الظالمين ..

ما أوحش الدنيا بغير قائل للحق المر .. ومستمع له .

تم الكتاب بحمد الله

فهرس الكتاب

| الصفحة | الموضوع |
|--------|-----------------------|
| ٥ | خطبة الكتاب |
| ١٣ | مدخل |
| ٣٩ | من أحوال المصطفى |
| ٧٥ | حكايات عن عمر |
| ١١١ | المسلمون والسياسة |
| ١٥٩ | محمد رسول الله |
| ١٨٥ | من مقدمة كتاب |
| ٢٠٥ | الإسلام ووالحبشة |
| ٢٢٥ | الإسلام الرأسالية |
| ٢٦٣ | أبو ذر . . والحق المر |

تم بحمد الله طبع هذا الكتاب
في ١٥ من شعبان ١٣٨٨ هجرية
الموافق ٦ من نوفمبر ١٩٦٨ ميلادية

صدر للمؤلف

| | | |
|----------------------------------|------|---|
| مصريون لا طوائف | ١٩٥٠ | نقد |
| الجبهة الشعبية | ١٩٥١ | " |
| قانون الأحزاب | ١٩٥٢ | " |
| روسى وأمريكي في اليمن | ١٩٥٧ | يطلب من مكتبة عمار |
| شرف المهنة | ١٩٦٠ | يطلب من الدار القومية ومكتبة عمار بالقاهرة |
| الغزو الفكري الطبعة الاولى | ١٩٦٤ | نقد |
| " " الطبعة الثانية | ١٩٦٦ | " |
| " " الطبعة الثالثة | ١٩٦٨ | مكتبة الأمل بالكويت |
| الماركسية والغزو الفكري | | |
| " " الطبعة الاولى | ١٩٦٥ | نقد |
| " " الطبعة الثانية | ١٩٦٦ | الدار القومية |
| دراسة في فكر منحل الطبعة الاولى | ١٩٦٧ | مكتبة الأمل بالكويت |
| دراسة في فكر منحل الطبعة الثانية | ١٩٦٨ | |
| القومية والغزو والفكري | ١٩٦٧ | مكتبة الأمل بالكويت |
| أخطر من النكسة | ١٩٦٨ | " " " |
| الطريق إلى مجتمع عصرى | ١٩٦٨ | " " " |
| الحق المر | ١٩٦٨ | مكتبة عمار بالقاهرة |

جميع المؤلفات تطلب

من : مكتبة الأمل - السالمية - الكويت

مكتبة عمار ١٣ - شارع الجمهورية بالقاهرة

أمام مسرح الجمهورية

دار النشر للطباعة

احمد حمدي احمد شعبان

١٢ شارع صفا الله بالعرب الاحمد بالقاهرة